روايات الهلال

فؤاد قنديل



حكمة العائلة المجنونة



حكمة العائلة المجنونة

بقلم

فؤاد قنديل

دار الهلال

الغلاف للفنان :
جميل شفيق

مملكتى

ليست من هذا العالم

لو كانت من هذا العالم

لكان خُدامى يجاهدون

حتى لا أُسلم لليهود

يسوع

إنجيل يوحنا ١٨

(١)

الحجرة الرمادية يشملها سكون غامض .. تجدف فى بحارها رائحة انتظار مشوب بالقلق .. ما الذى يمكن أن تقوله المرآة لوجهها المصلوب أمامها .. يقترب ويبتعد .. داخلها يتقافز سؤال له شفرة حادة .. هل يا ترى وضعت أقدامى على أول طريق الشيخوخة . ؟

طلعت على هذا الوجه شموس كثيرة . تمسحت به آلاف الصباحات والمساءات تجاوزت السابعة والثلاثين .

– لا أحد يطرق الباب .. أختى راوية تزوجت وهى فى أولى ثانوى .. بنات كثيرات تزوجن فى الثامنة عشرة ويحملن أطفالا . وهن بين النساء ربات بيوت .. لهن كلمة لا ترد .. أنا أجمل منهن .. فما بال الرجال عميت عنى عيونهم .

قالوا لها : أخرجى .. فخرجت ..

سارت فى الشوارع ولبست الكعب العالى الذى يحيل المشية إلى نغم جذاب ومثير ، ويهدهد البدن الطرى ويؤرجحه لكن الرجال كانوا يمضون فى طريقهم دون مبالاة ، كأنها كائن غير منظور .. صبت العطور الغالية ، لكن أحدا لم يشم .. مرات قليلة عاكسها بعض الشباب ، لكنهم كانوا عاطلين ، يتلطعون على النواصى ، ولا تبدو معاكساتهم ذات طعم ، أو تدل على جدية فى التقدير أو فى العرض ..

فوق السرير . جنب الجدار الجوانى كانت هناك أكوام كبيرة من الأحلام . مركونة كما الهدوم ، مطبقة ومكوية ، اكن ألوانها حالت ، ومن يقترب منها يشم رائحة عطنة .

فى المرآة عادت تطل .. تشد لحم الـ دين وتحدق بقوة ، لعلها تعثر على شىء يمكن اعتباره هو المسئول عن تأخر نـ يبها ، لازالت تقبع داخل هذه الجدران التى لم تشهد فى حياتها غيرها ، ولعله وجـ ت مع بدء الحياة على كوكب الأرض ، بيت قديم ، جدرانه مرتفعة ومتهرئة وشبه مقوسة فى حارة «شق التعبان» .. حارة سد ومظلمة ، تبدو كأنها قاع العالم .. لا يؤنس وحشتها على الدوام إلا

رائحة الخبز الساخن تسطع بقوة من فرن نصحى عبد النور ، وتطلق سحرها الهمجى اللذيذ فى أجواء الحارة ، لتجعل منها بؤرة للحياة المغمورة فى سنواتها الأولى . أما فى المساء فمقص سيد الحلاق خاصة عندما يأكل الهواء وأنوار محله مع ثرثرته هى النبض الباقى بعد أن تهمد فى غرفتها كل الأصوات .

بعد الدراسة الإعدادية .. قالوا لها :

– يكفيك ما حصلت عليه من التعليم .. مستقبلك فى البيت ، فانتظرى عدلك .

ومازالت تنتظر .. وتمنت أن تعرف أين يقيم هذا العدل .

إلى المرآة يتسلل وجه ينشق عنه الضباب . تبدو ملامحه غائمة لكنه يواصل البزوغ .. تتضح قسمات وجهه تدريجيا .. تعرفت عليه . كانت قد نسيته . منذ مدة لم تره .. تقدم لخطبتها . أخوها نبيل رفض ، وهى لم تر العيب فى شكله ، لكن فى عمله . سائق . ساءلت نفسها عدة مرات : ماذا يكسب وما هو مستقبله ؟ .. لن يكون يوما رئيس مصلحة أو وزير مواصلات ، أو رجل أعمال ، سيظل سائقا لأتوبيس الأولاد ، ينقلهم إلى مدارسهم فى الصباح ، ويعيدهم إلى بيوتهم بعد الظهر .

لا تدرى لماذا اختفى وأين راح ، بعد أن كان يحوم حولها ويحضر كثيراً ليراها متعللا بالسؤال عن أخيها جمعة ، وهو يعلم أنه فى الورشة ، كان يقف قبل الغروب على ناصية الحارة بجوار مكتبة ملاك .. يفتعل حديثا بينما تكون فى موعد جلوسها ، أو يجلس مع يونس اللبان أو سيد الحلاق ..

ها هى بسمته تطل فى المرآة .

– إفرض إنى قلت لا .. على طول تجرى

– أخوكى .

– أنا من سأتزوجك يا خيبة .

– رفضت

– وكرامتك «نقحت» عليك ؟

– فعلا

– فالح .. لو جئت مرة ثانية وطلبتنى بقلب جامد . سأساعدك . تحرك يابنى آدم .

اتسعت ابتسامته ، فأخذت تشجعه .

– الفلوس .. لا يهمك . أسرق لك كردان أمى .. سأتزين وانتظرك . تحرك .. ساكن مع أختك المطلقة ؟ .. أمرى إلى الله .. أسكن معها .. هذا الكلام مؤقت حتى تجد لنا شقة خاصة بنا فقط .. راضية حتى لو حجرة واحدة فقط وصالة .. سلام .. أنا داخلة الحمام.

تستطيع أن تستحم براحتها مادام الذكور غادروا البيت غير مأسوف عليهم .

مضت تتراقص وهى تسعى إلى الحمام .. أقفلت بابه ، وخلعت ملابسها قطعة قطعة . اطمأنت فى المرآة التى لا ترى فيها إلا نصف جسمها .. على إن جسمها مازال «صاغ سليم » ، وأنه فى الحفظ والصون ، مازال بخيره وجاهز للزواج ،، إذا جاء يحيى ، أو غير يحيى ، المهم شخص يكون عليه «القيمة» .

دعكت كل بدنها بالليفة .. ظلت تدعكه ليخرج إلى السطح أجمل ما فيه . جلست على الكرسى الخشب ودعكت كعبيها بالحجر الخفاف ، ثم وقفت تحت الدش وتركت الماء ينزل على رأسها ويترسب على التمثال العريان . يكتب بقطراته البلورية كلاما لذيذا على لحمها الأحمر الذى هيجت دماءه الليفة ، وغطته طبقات كثيفة من رغاوى الصابون المعطر .

التفت بالبشكير الأبيض الكبير ، وأسرعت إلى غرفتها قبل أن تراها أمها وتقول لها كعادتها :

– «الكوبانية» اتصلت تشتكى وتقول المحروسة هنية خلصت ماء البلد .

تستطيع أن تجرى بالبشكير وبدونه مادام الذكور رحلوا .. أبوها والأخوان .

– رجالة كمالة عدد ، أبى ساب الشغل وأصبح لا يهش ولا ينش . نبيل خلص دراسة وقاعد عاطل .. وجمعة ميكانيكى . نصف أجرته على السجائر وطول النهار يغنى .. ولا يصدقنى عندما أقول له : صوت الحمار أحلى .

تذكرت قرنى الميكانيكى الذى تقدم لخطبتها ورفضته ، قالت لجمعة :

– تريدنى أن أتزوجه لأنه معجب بصوتك .

لما لبست ملابسها الجوانية ، سرحت نظراتها إلى صور الشباب الجميل المعلقة على الحيطان .. كانت كل العيون العفية التى تطل من وجوه جون ترافولتا وحسين فهمى وآلان ديلون وروك هدسون وتونى كيرتس ووجوه أخرى ، تحدق فيها .. كيف اختارت زواياها بحيث ينظرون جميعا إليها إذا وقفت فى أى ركن ، بينما وضعت فى وسط هذه الحلقة .. صورة كبيرة لها وهى تبتسم فى إغراء .

– لماذا تنظرون إلىَّ هكذا ؟ .. أول مرة تقع عيونكم على واحدة حلوة .

تنهدت من الأعماق .

– لماذا أنتم كما أنتم .. وأنا التى تكبر .. والأيام ركبها عفريت .. الشمس مستعجلة ، تطلع ساعة وفجأة تغرب ، والعداد يعد.

تحولت إلى صور الأطفال الكثيرة التى صفتها على الجدار الثانى .

– حبايبى .. أنتم أجمل شىء فى الدنيا .. كل الرجال لا يساوون إصبع واحد منكم ، لكن للأسف لابد منهم كى آخذكم بين أحضانى .. نفسى آخذكم بين أحضانى . ضل رجل ولا ضل حيطة . حتى الظل أخذته الشمس وغابت . يحيى .. هيا نتزوج .

نظرت فى المرآة . حدقت فى وجهها من جديد لتحدد لنفسها وتتأكد بنفسها هل هى جميلة، أم متوسطة الجمال أم لا قدر الله دميمة .. اعترفت بأن عينيها ضيقتان ، وشفتيها رفيعتان وجبهتها عريضة ورموشها خفيفة وفقيرة، لونها قمحى .. أم خمرى .. نقول خمرى . ذقنها جميلة ، .. شعرها بنى قصير ، أنفها صغير وكذلك الأذنان . صدرها عامر .. عودها رشيق وطويل نسبيا وممتلىء قليلا عند الردفين. سيدات كثيرات تتحدثن عن جمال ساقيها . المشكلة منحصرة فى حاجبيها المتصلين ببعض ولما حاولت أمها الفصل بينهما فشلت .

جلست تمشط شعرها . تتناثر منه المياه ، بينما كانت تداعب رأسها أمانيها المتعثرة . استبقت أسنان المشط عدة شعرات . مدت شفتيها امتعاضا .. تابعت زينتها . ضبطت على شعرها «التوك» الصغيرة الملونة ، وزعتها فى الأجناب وفوق الرأس وفى الخلف على قمة ذيل الحصان القصير .

فتحت الدولاب واختارت أجمل فساتينها .. لفت به يمينا وشمالا وبدت راضية عن نفسها .. مدت يدها . سحبت شماعة عليها بدلة رجالى .

– سلمت يداك يا أم رمزى .

– بص يا يحيى ماذا اشتريت لك ؟ .. البسها كى نخرج ..

وضعتها على السرير ، وعادت تطل فى المرآة .. رشت العطر وحطت طلاء الشفاه .. طلاء بمبى خفيف ، والتفتت إلى يحيى وقالت :

– البدلة توشك أن تنطق عليك .. بطل تخنْ بمنخارك ..

رفعت الشماعة بالبدلة .

– امش جنبى . رأسك مرفوعة .لازم الناس تحس أنك «ملو» هدومك ، لا يهمك. اصلب طولك .. تمام .. بطل تخن .. تعال فى حضنى .

ضمت البدلة إلى صدرها ، ورقصت مع يحيى بعض الوقت .. دارت بالبدلة عدة دورات فى المساحة التى تفصل السرير عن الدولاب .. تستطيع أن ترقص وتتحدث إلى نفسها وتتقلب فى السرير منذ تزوجت راوية .. تحقق لها قدر من الحرية .. وقعت نظراتها على شكلها فى المرآة الكبيرة. رأت البدلة فى يديها ، تكاد تعصرها وهى تراقص يحيى، الذى تنبهت فجأة أنه ليس بداخلها .. توقفت .. طفرت الدموع من عينيها وألقته على الأرض. ارتمت على السرير ، حاولت أن تقاوم الدموع وهى تقبض بأظافرها على الملاءة وتأكلها بأسنانها ، ولم ينقذ الملاءة إلا صوت أمها .

– هنية .. داخلين على الضهر ، والبيت يضرب يقلب .

نهضت بتكاسل ومسحت عينيها وهى تهمس بصوت متحشرج .

- الخدامة قادمة يا ست هانم .. لابد قادمة .. المنطقة محاصرة . فين طريقك فين .. ما بين قرنى المقشف ليحيى الكحيان يا قلبى لا تحزن .

انثنى عودها . مدت يديها إلى طرف فستانها ورفعته . تخلصت منه وعلقته. انحنت من جديد لترفع بغيظ بدلة يحيى المطروحة على الأرض . طوحتها بقوة فى الفضاء . لطشت البدلة فى سكتها عروسة المولد التى كانت تتابع الموقف من فوق الدولاب .. كانت هناك منذ سنوات .. سقطت العروسة على الأرض وتهشمت .. تهشمت .

انزعجت هنية وأظلمت الدنيا فى عينيها ، وغابت لحظات عن الوعى أو كادت .

حطت على بدنها جلباب البيت أبو سفرة .. تنهدت ثم قالت :

- حتى أنتى .. انقصف عمرك .

جاءها صوت أمها قويا معاتبا ممطوطا بعد أن فاض بها :

- يا هنية .

ضحكت ساخرة :

- لو أعرف العبقرى الذى سمانى هنية .. هنية مرة واحدة يا مفترى ! .

(٢)

لم تستطع الضجة التى تشهدها الحارة صباح كل يوم أن توقظ نبيل .. يمدد جسده الميت على ســـرير يشاركه فيه أخوه جمعــه ، ولم يفلح فى ذلك غطيط جمـعـة العـــالى الذى لا يتـوقف لحظة منذ أن يحط رأسـه على الوسـادة بعـد منتصف الليل .

غطيط جمعة له سمعة . عدد كبير من الجيران يبلغهم طبله وزمره ، والشقق الملاصقة لشقتهم يشكون مر الشكوى لأن هذا الغطيط ينفذ من الجدران ، فيوقظ أصحـاب النوم الخـفيف ويؤرق المرضى الذين يتمنون أن يغيبهم النوم لحظات قليلة ، فينام بنومهم الألم .

الباعة ينسون أنهم ينادون زبائنهم فى حارة ضيقة عرضها لا يتجاوز أربعة أمتار .

.. باعـة الخـضـراوات والفول والبليلة ، وأهل الحـارة أنفسهم يشـاركون فى الضجة ، فمن تحاول أن توقظ ولدها ليذهب إلى المدرسة ، توقظ عشرات غيره يسكنون البيوت المجاورة والمقابلة .

كان نبيل قد طلب من أمه أن توقظه فى التاسعة على الأكثر ليذهب إلى مكتب القوى العاملة يسأل عن خطاب التوزيع . هذا الخطاب يحدد الجهة التى سيذهب للعمل بها ، ونسى أن أمه إذا طلب أحد إليها أن توقظه فسوف يستيقظ معه العالم أجمع ، وسوف يصحو وقد كره اليوم الذى ولد فيه .

بقوة هزت جمعة الذى كان على الطرف ، فتعطلت لغة الغطيط واصطدمت كل الآلات التى كانت تصدره ، وشرعت مبكرا التساؤلات تخرج من فمه .

– فين .. مين .. ليه .

فجأة وقبل أن يصحو من لم يصح فى الحارة . استيقظ الشابان وتقلبا قليلا تمهيدا للقيام . كان الاتفاق بين جمعة ونبيل أن ينام نبيل دائما قبله ، لأنه اشتكى عدة مرات من عدم قدرته على النوم إذا بدأ جمعة تسجيلاته الليلية ، والتزم كل

منهما بهذا الاتفاق ، وسارت الأمور بلا مشاكل ، بعد أن كانت مثار النزاع إلى حد الصراخ منذ سنوات لأن علاقة جمعة بالغناء علاقة قوية ومتأصلة ، ولا يملك الاستغناء عنها فى ليل أو نهار ، والكثيرون لا يجدون أدنى علاقة بين الغناء والميكانيكا ، والبعض يرى أن من الطبيعى وجود مثل هذه العلاقة .

هب جمعة واقفا . تخلص على عجل من جاكتة البيجاما وأسرع إلى الحمام . أدخل رأسه تحت الحنفية وغسل وجهه وذراعيه وإبطيه وقدميه .. سوى بالمشط شعره الكثيف الأسود المفلفل .. أدخل ساقيه فى البنطلون وقدميه فى حذاء من القماش . دس سيجارة فى فمه وخطف قميصه وهبط السلالم ببراعة متفاديا كل الدرجات المهشمة دون أن ينظر إليها . مضى يدخل ذراعيه فى الكمين وهو يهرول فى الحارة ولم يتم ارتداء القميص إلا فى شارع بديعة .

نبيل لا يزال مغمض العينين . عزم على أن ينهض . لكنه عندما أطلق ذراعيه وجد أن السرير كله أصبح له . البراح الجميل . الغرفة كلها له ولو للحظات . لا داعى للعجلة ، لأن عليه أن يذهب إلى مكتب القوى العاملة فى التاسعة والنصف أو حتى العاشرة .. المهم أن يتقلب فى السرير طولا وعرضا ويستمتع بحلاوة المساحة الإضافية .

أخيرا نهض ودخل الحمام وصفر أمام المرآة وهو يمشط شعره الأسود الناعم. فتح باب البلكونة . وزع نظراته على الحارة التى دبت فيها الحركة . فتحت البيوت أبوابها وشبابيكها .

– الجميل لم يفتح بعد

استنشق الهواء الطازج .. رأى على جودة فى غرفته يقرأ جنب الشباك .

– صباح الخير يا دودة .

تعود أن يناديه بهذا الاسم لأنه لا يكف عن القراءة .

شعر بنسيم الأمل يداعب روحه المشتاقة للتغيير .

– نفسى أبدأ الحياة .. ذاكرت وسهرت وتعبت وخلصت الجامعة من سنين .. نفسى أبدأ الحياة .. أشتغل وأكسب وأثبت وجودى .. ويضمنى والجميل بيت

واحد . أسافر . أشوف الدنيا . أعيش .. يا عالم أعيش . نفسى أخرج من شق التعبان .. اخرج من الحبسة للدنيا الواسعة .. أحس أنى قادر على عمل أشياء كثيرة .

كان مستثارا ومتأهبا للطيران ..

قبض على حديد البلكونة بقوة حتى اهتزت فى يده ، نظر أمامه إلى البلكونة المغلقة .. تنفس من جديد . أطلق من شفتيه صفارة ، تردد لحنا عاطفيا رقيقا .

- اسبقنى يا قلبى اسبقنى .. عالجنة الحلوة اسبقنى .

اسبقنى وقول لحبيبى .. أنا جاى على طول ياحبيبى

اسبقنى قوام اسبقنى .. عالجنة الحلوة اسبقنى .

دخل غرفته .. أدى بعض التمرينات الرياضية . أحس بخواء داخلى . استشعر حاجة إلى الطعام . مضى إلى الصالة . نادى أمه . لم يسمع ردا . خمن أنها ذهبت إلى السوق . دخل المطبخ . قلب فى أوانيه ، كانت كلها بقايا عشاء الأمس . فتات خبز وأطباق فارغة متسخة وأطراف خيار .. رؤوس الفلفل الأخضر .. قشر بيض . حبات قليلة من الفول المدمس .

مط شفتيه وعاد . بلغه صرير انفتاح باب البلكونة المقابلة .. رقصت روحه .رأى فتاته ذات الوجه الصبوح . الايشارب على رأسها وجلبابها الأخضر ، تطير عليه عصافير صغيرة ملونة . الشعر الطويل يتهدل على الأكتاف . ابتسامة مشرقة تتشكل على الشفتين وغمازتى الخدين .

- صباح الخير يا رباب .

- صباح الخير يا نبيل . .

- الناموسية كحلى .

- اليوم هو الأحد .

- آه .. أجازه .

- تصورت إنك من البدرية تكون خرجت .

- كيف أخرج بدون شحنة

- أخذت بالأمس كل الشحنات المخصصة لك
- هذا بالأمس .. فأين نصيبى اليوم ؟
- هيا اذهب .. وثق أن ربنا سيكرمك
- قولى سيكرمنا
- سيكرمنا
- شربت الشاى ؟
- لا .. أعمل لك ؟
- خالتك أم جمعة خرجت
- حالا يكون عندك
- لو كانت معه بيضة يكون أفضل
- يا خسارة . انتهى كله بالأمس
- انزل على لحم بطنى
- صدقنى
- تبدأ حياتك معى بتجويعى
- انتظر حتى أعد لك الشاى
- اطلعى للدجاجة واحكى لها عن أحوالى ، ربما كان قلبها أحن علىَّ من قلبك
- انتظر

بدل ثيابه . فتش عن أى نقود . لم يجد لها أى أثر فى جيوبه ولا جيوب جمعه . ولا فى غرفة أبيه. عثر على نصف جنيه فى درج ماكينة الخياطة . عاد إلى البلكونة . طلعت عليه رباب وهى تحمل صينية الومنيوم عليها طبق فيه جبن ، ورغيف بايت مر على النار ، وعودان من الجرجير وكوب شاى. مد جزعه فى فضاء الحارة ، ومدت . أراد أن يمسك يدها . ابتسمت . حذرته .

- الصينية يامجنون

دخل بالصينية المطبخ . وضع الجبن فى الرغيف وفوقه الجرجير .. صب الشاى فى كوب آخر وأعاد الكوب والطبق على الصينية ، وهو يقول :

- وحياة غلاوتك يا جميل لأطلبك من أبيك بعد خروجى التاريخى مباشرة من مكتب القوى العاملة.

اتجه إلى الموظف المختص الذى لديه أوراق التوزيع .. جاء إليه من قبل عشر مرات .. فى كل مرة يجده نائما .. ضاق نبيل بتصرفات الموظف ، لكنه تفاءل وغفر له ، لأنه فى آخر مرة قال : المرة القادمة هى آخر مرة ولن يترك الوزارة إلا والخطاب فى جيبه .. المهم يفتكره بالحلاوة .. كل شىء انتهى لا يبقى غير توقيع المدير

اليوم يبدأ عهدا جديدا فى حياته .. ينتقل من حالة إلى حالة . لن يتسول بعد اليوم ولا حتى من أبيه وأمه .. كفى ما أنفقاه عليه برغم ظروفهما .سوف يقوم هو بالعمل والمساعدة فى مصروف البيت .. لن يسمح لوالدته بعد اليوم بالدوران على البيوت لتعمل لهم «بلانة» أو تحمل «بؤجتها» لتبيع الملابس الجاهزة التى يوردها لها شفيق الضبع .

- من أول مرتب سأشترى زجاجة عطر لرباب وكذلك مجموعة مناديل يد ، ومثلها بالضبط لهنية ، وفستان لأمى لأجل المناسبات ، وطبعا لابد من بدلة لى وساعة وحذاء أجلاسيه يلمع دائما ، وعددا من القمصان الملونة . كل يوم أرتدى واحدا .. ولا داعى لربطات العنق فربما لاتكفى النقود .

عصفور فرحه يحلق بامتداد كل أعماقه ..

الحجرة الكبيرة مملوءة بالموظفين والمكاتب المتراصة والمتلاحمة ، بعضهم نائم وبعضهم يحل الكلمات المتقاطعة وبعضهم يشرب الشاى ويدخن السجائر .. بعضهم يعمل وبعضهم يثرثر حول كرة القدم ومهازل الفرق المصرية ومفارقاتها العجيبة وعبادة اللاعبين برغم الخيبات الثقيلة .

كان الموظف المختص نائما ، ورأسه محطوطة بين ساعديه . وشعر إبطه يظهر من تفكك خياطة القميص ، جاء الساعى ووضع على المكتب كوب شاى:

- الشاى يا أستاذ شحات .

أخذ نبيل ينادى الأستاذ شحات ، ثم تجرأ وهز ساعده عدة مرات ، قال الموظف المجاور له :

– خلاص يا أفندى . تعال غدا أو بعد غد .

ثار نبيل فجأة .

– أى غد يا أستاذ ، أنا أحضر على يدك منذ شهور ، وكل مرة يقول تعال فى الغد .

– كان عنده ظروف قاسية أمس ، ويشكر لأنه لم يفكر فى الغياب .

– كلنا عندنا ظروف ، ولازم «يفوق» ويسلمنى الخطاب .

عاد نبيل يهز الموظف ، الذى كان ينام نومة الموت ، هزه بقوة ، ولما لم يجد أى استجابة تدل على أن الرجل حى ، رفع كوب الشاى وصبه على رأسه .. انتفض الموظف هلعا ، وصرخ .. اندفع نبيل يجرى .. واصل الموظف صراخه وأخذ يتقافز . تنبه كل الموظفين . أسرعوا وراء نبيل . هبط الدرج . الموظفون يتزايدون ويتبعونه ، ويزعقون :

– الحق يا عمر . امسك .. امسك حرامى . امسك يا حسين .

لم يستطع أحد أن يمسكه ، وخرج جميع موظفى الوزارة يركضون فى الشارع، منهم من لا يعرف لماذا يجرى الآخرون .. جرى نبيل بكل قوته ، والموظفون وراءه، إلى أن قفز فى أتوبيس كان يشرع فى الانطلاق من المحطة، وسرعان ما حمله بعيدا واكتشف أنه خالى الجيوب فغادر الأتوبيس فى أول محطة توقف فيها . أخذ يمشى فى شوارع لا يعرفها .. يمشى ويمشى بحماس كأنه يعرف هدفه حتى أحس بالعرق يتسلل خيوطا من خلايا لحمه ويتمشى باردا على بدنه .

توقف فجأة وتنفس بعمق ثم قرر أن يجلس على حافة الرصيف .. شعر ببرودة الحجر، وبرودة النهار وبرودة الناس وبرودة الجدران والملامح والأرض والسماوات. خالجه شعور بأن ثمة تواطؤاً مبهما يتولد من كل شىء ومن كل جهة ولا يكف هذا التواطؤ عن التقدم نحوه من تحته ومن فوقه ، وعن يمينه وشماله .. بل من الماضى والحاضر ، وها هى ذى بشائره تكاد تبدو من بين غلالات المستقبل البعيد والقريب .

- هل هذه هى الحياة ؟ هل هذا هو الإنسان ؟ حتى الهواء يمنعه البعض عن البعض .. كان من الممكن أن يكون اليوم هو بداية عمر جميل وعمل كثير ومستقبل منير وأيام بهيجة .. نزهة وفرح .. خيرا أحمله بين أحضانى وأدخل به على بيتى .. أمي وأخوتى .. تستقبلنى زوجتى وأولادى .. نجلس معا نقزقز لب الهناء .. آه .. ياربباب ماذا أقول لك وأنت الآن تنتظرين على جمر النار فى البلكونة .. لا تفصلك عن أهم كلمة فى حياتك غير ساعة أو ساعتين وبعدها تطلع لك الاجنحة.. لا تلومينى أرجوك .. كنت مضطرا .. أنا حقا أخطأت .. ماذا كان علىّ أن أفعل وقد أوشكت على الجنون ؟! ماذا كان علىّ أن أفعل وأنا أراه يغرق فى النوم بعد أن أغرق الآخرين فى التعاسة .. تكلمى .. إبعدى عنى نظراتك القاسية .. ارحمينى .. كان عليه أن يكون بابا واسعا للأمل .. الحياة تبدأ فقط فى هذا اليوم لى ولغيرى.. ضعى نفسك مكانى .. كان عليه أن يكسر كل الأقفال التى تحبس فى غرفتها سعادتنا .. كل شىء كان بيده .. تصورى الوضع .. يغلق فى وجهى كل أبواب عمرى القادم ليهنأ بلحظات من الراحة .. ألم يعلم ويحس مرة أنه لن يكون سعيدا إلا إذا أسعد الآخرين أولا .. يكفينى لومك .. نعم تسرعت .. لكنى شعرت ساعتها أنى مكبل بألف قيد تقبض على كل ذرة فى جسدى وروحى .. وقبل أن يخرج من صدرى وعقلى آخر خيط من خيوط الحياة لم أجد غير الشاى الساخن .. أنا آسف .. آسف فقط لوجود مثل هذا الكائن .. أنا أخطأت .. وأعدك أنى لو عدت إليه يوما ولم أجد الخطاب جاهزا فسوف أصب الشاى الساخن عليه وعلى رئيسه وعلى كل الذين يتحكمون فى الهواء والحياة والحب والحرية .

نهض ومضى يتسكع هنا وهناك .. ويمر على من يتذكرهم من الأصحاب حتى انقضى النهار وهبط الليل دون أن تتناقص جبال التعاسة والمرارة .

(٣)

أحس يس أنه فقط بعد أن شرب الحجرين وكوب الشاى يستطيع أن يتكلم طول النهار ، ويستطيع أن يمشى عشرين كيلو متراً ، ويستطيع أن يعمل ساعات طويلة ، ويمكنه أن يصبر على أذى العباد ، بدونها لا يسمع ولا يرى ولا يحس .

فى الثامنة صباحا يتسلل يس من جنب زوجته جندية بهدوء تاركا إياها تحلم بما رأته فى التليفزيون . تحرك بحذر فى اتجاه الحمام ليخلص صدره من أكوام البلغم المتراكمة التى تكبس على رئتيه وتمنعه من التنفس ، وتسد عليه كل المنافذ .. وبعد ذلك يمر على ميشو أصغر أولاده ليذهب بسرعة إلى المدبغة خشية ألا يحتسب اليوم إذا تأخر خمس دقائق .

يلبس يس القميص والبنطلون وهو لا يمتلك غيرهما إلا جلباب البيت ، ويبحث عن الشراب الوحيد الذى تركه فى حوض الحمام بالأمس لتغسله من تعثر عليه. وفى العادة تكون هنية ، ثم تنشره ، وعليه أن يتوجه مباشرة إلى البلكونة ليسحبه من تحت المشابك ويرتديه ، ومن بعده حذاؤه الذى فكر فى تغييره عشرات المرات ، لكن الفرصة لم تسنح بعد ، لأن أم هنية تقبض على كل الفلوس التى تكسبها والتى ترد لها من ولديها ميشو وجمعة ، ولا تسمح له إلا بجنيه واحد كل يوم .

- أريد علاوة .. كل الناس تحصل على علاوة .
- انس
- القهوة رفعت البنديرة ، ثمن الحجرين وحدهما جنيه كامل .
- معك الجنيه
- والشاى .
- يكفى حجر واحد
- لا يفيد
- الموجود

- إذا لم أشرب الحجرين لا أصلح لشىء .
- وهل تصلح إذا شربت ؟
- وبعدها معك
- كلمة واحدة
- أمرى إلى الله .. أنت تنكدين على بلد .

فى أحوال كثيرة كان يظهر من يدفع له الحساب . كان الجيران فى حارتهم أو فى شارع طه وحتى فى شارع بديعة الواسع حتى الميدان والجنينة يحبون عم يس ولا ينسون أيامه عندما كان كاتبا أمام المحكمة ، يكتب لهم شكاواهم وينصح الواقعين فى مخالفات أو مشاكل قانونية بأفضل الطرق للخروج من الورطة يتعاطف مع الجميع ويقدم مشورته بلا مقابل . يحب الناس والنكتة ، ويتمنى أن تكون الحياة «سبهللة» ، أما زوجته فلا تتصور الحياة إلا وفى فمها لجام .

عندما شاهد ناهد لأول مرة . دق قلبه وسرت فى بدنه رعدة غريبة لم يستشعرها من قبل . شعر أنه لأول مرة يرى بنات ، مع أنها ليست باهرة الجمال فتاة بسيطة فى شكلها ولبسها وتسريحة شعرها ، على وجهها هدوء وفيها جاذبية نائمة . فى صوتها أدب . عيناها أبرز ما فيها ورموشها طويلة ، وما عدا ذلك فهى عادية .

ناهد بنت صديقه بركات السكرى رئيس العمال فى مخازن حديد التسليح التى يملكها نزيه النمر ، وكان يس يعرف مشكلة بركات الذى أصيب فى ساقيه ، والنمر أهمل فى علاجه وتهرب من حقوقه .. وجاءت ناهد تسأل المشورة .

فجأة اكتشف أن هناك كائنات اسمها البنات . شرع يفكر فى صباه وشبابه. بينما كانت تتحدث إليه عن الجديد فى مشكلة أبيها .. قدح ذاكرته محاولا أن يتذكر شكل البنات أيام زمان ، ولكنه بدا واثقا أن البنات لم تكن قد اخترعت على أيامه . لم يكن هناك غير الشيوخ والنساء ومعظمهن كزوجته والأولاد الذين هم فى الأغلب عفاريت . لكن أن ترى مخلوقا جميلا كهذه الفتاة التى اختارته من دون كل الرجال لتكلمه . شىء جديد وعذب ولذيذ . كل الناس ترقبه الآن وتحسب عليه

حركاته وسكناته . قال لها :

– تعالى نقعد فى جنينة ناصر واحك لى الموضوع بالتفصيل .

– لقد حكيته لك يا عم يس .

– متى ؟

– الآن .

– تعالى .. تعالى .. سنبحث له عن حل .

بدت منكسرة ، لا تكاد ترفع عينيها عن الأرض ، بينما كان يس يتطلع إلى الحركة الدائبة فى الشارع الكبير ، وعلى الجدران تنتشر لافتات ضخمة عليها صور المطربين والممثلين ولاعبى الكرة ، كان يعرف بعضهم لأن الناس طيلة النهار تردد أسماءهم وكذلك الإذاعة والتليفزيون ، سألها :

– أنت تلميذة .

– أنا موظفة يا عمى .

ابتسم وقال : موظفة .. شىء حلو خالص .

– سكرتيرة مدرسة النديم الابتدائية .

– عمرك لا يزيد عن عشرين سنة .

– خمسة وعشرون .

– شىء حلو خالص .

جلس فى الجنينة على كنبة حجرية . جلست إلى جانبه ، سألها من جديد وأجابته . كان ينظر إلى عينيها حينا وإلى شفتيها اللتين تفتحان وتغلقان، ويخرج من هذه الحركة كلام ، ويرى بعض الأسنان وجزءا من اللسان الأحمر الصغير .

انتقل إلى شعرها الأسود اللامع ، ونزل إلى فستانها الأصفر الطويل ، وحذاءها البنى الصغير المبطط بلا كعب .. وتوقفت عيناه طويلا عند يديها الرقيقتين المحطوطتين فوق بعضهما فى وداعة بالغة على ركبتيها .. الأصابع النحيلة المتلاصقة .. الأظافر المقصوصة . تذكر هنية ولم يجد ثمة تشابها ، فطرد صورتها بسرعة ، عاد يتأمل الكيان الحبيب . بعد أن حكت الحكاية ربما لرابع مرة ، قالت له :

- ما رأيك يا عم يس .. كيف سنتصرف ؟

كان ساعتها فى منتهى الاندماج . يتابع رحلته ويحاول أن يحفظ كل المعلومات المكتوبة على الخريطة ، وكافة التضاريس .. كان يبتلع هذا الكيان الجميل جزءا جزءا ، وعضوا عضوا ويحفزه فى ذاكرته ، ولما لم يجد ذاكرة ، حاول أن يحفره فى قلبه ، ويحفره فى عينيه ، ونسخة من هذه الصور فى خياله ، لأنه على ثقة أنها هى التى ستبقى ، والباقى ليس إلا جوالاً مثقوباً .

عادت تسأله ، ولما أحس بالحرج ، قال لها :

- أفضل شىء ، أروح معك لأزوره ، وأفهم منه بنفسى .

نهضت الفتاة وهى فى ذهول حقيقى . ونهض يس ببطء ، كان شاردا يستقطر السعادة وقلبه مفعم بزغب المشاعر ، والسؤال المهم لا يزال كما هو : أين كان عندما مرت البنات به منذ ولد وحتى الآن ، وما السر فيما يشعر به ؟ .. هل اندلعت فى حطب الروح نيران الوجد ؟

لم يفق من رحلته مع جنس البنات إلا لحظات ، عندما وقعت عيناه على الست زينات العايقة التى كانت نهايته على يديها ، لما بكت له بكاء مراً وحارقاً من نذالة طليقها . حاول أن يسرق لها ورقة مهمة جداً من قلم المحضرين ، ولما ضبطوه طردوه من المحكمة وحرم المحكمة . جلس بعيدا بمظلته والترابيزة ، لكن أحدا لم يأت إليه فى منفاه الوظيفى .. وفى نهاية اليوم الذى ينتهى عادة فى الواحدة أسكن أدواته تحت سلم العمارة التى يقف أمامها وعاد منكسا .. فات شهر دون تغيير . وفى يوم لم تطلع له شمس طال صبره حتى الظهيرة وفجأة وقف ولم الشمسية وطبق الترابيزة بعد أن أدرك حجم المصيبة ومساحات العزلة مع إيمانه بأن الناس لم تتوقف عن الشكوى ، لكن كتابة الشكاوى فى الأغلب تتم أمام المحكمة وليس بعيدا عنها .

وضع أدواته تحت سلم العمارة ومضى مبتعدا وهو يشعر بالاختناق .. ظل يمشى حتى وجد نفسه أمام النيل . أسرعت إليه النسائم العليلة تربت على وجهه وروحه ، وراحت أنفاسه تبكى على صدرها .

(٤)

حمل الصباح قرص الشمس على ظهره ، ومضى يصب منه فى أوعية النهار ، اشتعل الضوء وتردد فى كل ركن ، وكانت خطوات الصمت لا تزال تزحف على جفون الشوارع المهجورة وكل الحواس تنعم بالغياب .

فتح مكتبتــه قبل أن يخرج أحد من داره ، وأول ما عمل فى نهاره مثل كل يوم ، أخرج اللوحة السوداء وكتب عليها بالطباشير حكمة اليوم «الدنيا ملأى بما يكفى حاجاتنا ، لا بما يكفى جشعنا» .

كان حريصا على أن يغلق كل يوم لوحته بعد أن يكتب عليها الحكمة التى يصيغها فى العادة بنفسه ، يظل طيلة النهار يفكر فى الحكمة ويحاول جاهدا أن تكون من وحى الأيام وسلوك الناس .. وعندما يتوصل إليها لا يشعر بنفسه لأنها تكون محمولة على أجنحة الرضا والبهجة .

حتى يوم الأحد يفتح دكانه ليخرج اللوحة ويكتب عليها الحكمة ويغلق المحل ، ويعلقها على بابه .

كان سكان الحـــارة وما جاورها من الحارات يتوجهون مباشرة كل صباح إلى دكانـــة ملاك ليقرءوا حكمته ومن لا يستطيع القراءة يسأل من يعرفها ولو تعتعة .

ها هو ذا ملاك ذو الشعر الرمادى ينظر للعابرين من فوق نظارته البيضاء المستديرة ويتظاهر بالانشغال فى قراءة كتاب أو ترتيب الكشاكيل ، أو فتح العلب أو مسح البنك بينما هو يريد أن يطمئن على أن الناس تقرأ الحكمة ، لكنه يدهش لأنه لا يكاد يجد أثر هذه الحكم على سلوكياتهم ، وأصبح بمرور الوقت على ثقة أنهم يقرءونها من قبيل الفضول فقط ، لا رغبة فى الاستفادة والائتناس فى مسيرة الحياة بضوء الحكمة وأنوار الكلمات التى تلخص خبرات الأجيال . وإلا لماذا قال له صديقه الشيخ إبراهيم إمام المسجد :

– ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

كتب مئات الحكم وسجلها فى كراس كبير، وأمام كل حكمة تاريخ نشرها على اللوحة ، نشر فى مناسبات سابقة حكما للرسول محمد عليه الصلاة والسلام مثل «جنة الرجل داره» ، و «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» ، و «المرء كثير بأخيه» ونشر بالطبع حكما للمسيح عليه السلام وللفلاسفة والمفكرين والزعماء ، لكن أكثرها من بنات أفكاره وتأملاته .

تضم المكتبة الكتب الحديثة المقررة على الطلبة فى مراحل التعليم المختلفة وكتباً قديمة ، وكتباً لكبار الأدباء بالإضافة إلى الأدوات الكتابية، وقد تعود ملاك أن يفتح المكتبة النهار كله ، وتعود أيضا أن يدعو الأولاد والشباب للقراءة ، وشجعهم أن يستعيروا الكتب ويعيدوها فور فراغهم منها ولا يزيد ذلك على أسبوع ، ويكتفى بأن يسجل فى دفتر عنده : أن كتاب «الأيام» أخذه سمير ابن المعلم حميدة الجزار ، وكتاب «البخلاء» للجاحظ أخذه رؤوف أخو عواد السروجى ، وكتاب «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» أخذته سنية بنت شرارة البقال .

على جودة له وضع آخر ، فمنذ كان صبيا وهو يذهب إلى المكتبة ولا يستعير الكتب ، طلب من ملاك أن يقرأ فى المكتبة .. كتابا بعد كتاب ومجلة بعد مجلة ، ولا ينسى أبداً قول ملاك له أيام الزيارات الأولى :

– أنت تتعلم من أبويك المشى والكلام ، ولكن حين تبدأ القراءة تشعر أنك تعلمت الطيران .

لا يكاد يغيب عنه يوما واحدا ، لابد أن يمر عليه ، على الأقل ليلقى التحية وهو فى الطريق إلى المدرسة ، ويقرأ الحكمة ، وإذا لم يفهمها سأله . تعود أن ينام ساعة بعد العودة من المدرسة وبعدها يذهب إلى مكتبة ملاك .. يقرأ فيها كتب المدرسة ويعمل الواجب، ثم يطالع صفحات من هنا وهناك ، وقد يتحدث إلى ماجدة إذا جاءت أو يصحبها إلى البيت، وقد ينتظر فى المكتبة وحده حتى يذهب ملاك إلى داره القريبة لبعض أغراضه ، ويقدم للناس ما تعود ملاك أن يقدمه لهم، أو يبيعهم ما يودون شراءه من أقلام وكراريس ومساطر .

قبل أن يلقى عم جودة النمس ربه وكان يعمل خفيرا للشونة ، مر يوما بملاك وسأله :

- أين ولدك يا ملاك ؟

قال :

- ذهب مع أمه إلى جدته بالصعيد .

قال جودة :

- أسألك عن الثانى .

- أنت تعلم أننى لم أنجب غير مجيد .

- ولدك على يا رجل .. أنسيت ؟

تتألق ملامح ملاك وتنفرج أساريره ، وهو يقول :

- حقا ..إن على ولدى وما أنجبه من ولد .. ربنا يحفظه .

- ويحفظك يا رجل يا طيب .

- يا سيدى .. ذهب على إلى مطبعة الحاج سلامة .. يشترى ورقا أبيض .

بلغت أذنيه هتافات الأولاد فى المدرسة . تحيا جمهورية مصر العربية . أنصت باهتمام . تحيا جمهورية مصر العربية . رأى بأذنيه أصواتهم وهى تتكور بلهفة وحماس داخل أقفاص صدورهم ثم تندفع بقوة من حناجرهم إلى أبواق شفاههم، مشتعلة بالبراءة والصدق ، كأنهم يريدون بهذا النداء أن تزول سحابات الغبار ، ويصفو الجو ويفهمون الدروس وتتعالى الضحكات .. تصور ملاك أنهم يحاولون مسح الآذان والقلوب من كل ما فيها ليبقى فقط هذا الأمل الكبير .. تحيا مصر .. مصر .. مصر .

***

فى أعماق الدكان حيث يسود السكون ، وتقل الإضاءة ويتناثر العديد من الكتب والأدوات والأشياء الصغيرة ، وعلب بلاستيكية بها حلوى رخيصة . جلس ملاك على منضدته يصب كل نظراته واهتمامه فى صحيفة يبسطها أمامه . لم يكن فى المكتبة غيره ، وقد أتاح له الهدوء أن يقرأ الجريدة كعادته كلمة . كلمة .

في صفحة الوفيات التي يحرص على مطالعتها ليعرف أسماء من رحلوا، وكثيرا ما كان يجد فيها أسماء أشخاص يعرفهم ولهم في قلبه إعزاز ، وقعت عيناه على اسم من الأسماء .. توقف عنده . قبض الاسم على ذاكرته وعلى عينيه. أحس أنه كان يعرف صاحبه يوما ما ، لكن العنوان لم يساعده على التذكر . وبعد جهد جهيد ومرهق توقف عن محاولات التقليب في دفاتر الذاكرة إذ فشل تماما في استدعاء أي معلومة . وقد حدث هذا من قبل ، عرف أناساً كثيرين ، وعاش أياما كثيرة ، وزار بلادا كثيرة ، ومواقف كثيرة جمعته مع بشر وتركت علامات في وجهه ورأسه وروحه .

رأى الأيام تقف وراء بعضها كطابور طويل من الشموع المحنية المطفأة ، ليس بينها إلا القليل الذي لا يزال فيه بقايا لهب أصفر مختنق يوشك على الذبول والفناء ، ينبعث منها الدخان الذي يتلوى في غموض .

طول عمره كان يتمنى أن يكون كبيرا ومهما ومؤثرا ولافتا للنظر ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وكيف يحدث هذا وهو غير مستعد لأن يخسر نفسه ، فقد كان على قناعة بأن من يلفت الأنظار ، هو إما من المجانين أو المذنبين ، وهكذا بقي سعيدا بحاله ، ويكفيه كما يقول أنه ينام قرير العين ، يجد متعة في أن يقول الصدق ويستمتع بالتسامح ، ويميل دائما إلى حسن الظن بالبشر ، ويبرر لهم الأخطاء ويبتكر لهم الأعذار .

تساءل .. هل الباقي من العمر يكفي كي يفتح نافذة يطل منها الناس على الحياة الأفضل .. يشعر دائما أنه يود لو يمد يده للناس جميعا ، لكن ما الذي يمكن أن يعينهم به ؟ ما الذي يملكه حتى يقدمه لهم ؟ .. أكثر المحيطين به فقراء في المال والعقل والروح .. خاصة الروح .. فكيف يأخذ بأيديهم . كم من البشر يتخبطون في طرق مظلمة وقد غشيت بصائرهم سحب الأطماع والحاجات والهواجس والعقد ؟.

ليس عنفوان الجسد وحيوية الشباب أو المال مطلوبة كي يكون الإنسان ذا نفع لأهله وأحبابه ، يكفي توقد العقل وتوثب الروح .

لكن الأيام الجديدة - فيما يبدو - لن تحمل لنا إلا وجوها أخرى لما قد جرى فى الأيام القديمة .. اللحظات متشابهة فى تعاستها وإثارتها للملل ، ومن الممكن للمـــرء الذى يفكر لبرهة أن يتعرف على ما سوف يحدث ، فلماذا لا يفعل ذلك أحد ؟؟ .

من قال : لا جديد تحت الشمس صادق إلى حد كبير ، بمعنى واحد ، هو أنه من كتاب الأمس نعرف ما سيأتى غدا ، ليس بالضبط شبيهه ، ولكنه ابنه وحفيده فالغد يولد من الأمس وينضج على نار اليوم .

- لا تحمل هما يا ملاك ، مهما كان عملك صغيرا ودورك ضئيلا ، فيكفيك أن تقدم للدنيا ولدين فاضلين ، وأن تكونَ من خلال مكتبتك منارة لكل العابرين .. سوف تنتهى حياتك فى سلام وملل ، ولكنك لن تكون أبدا ممن يقفون ضد الحياة، ولن تتسبب أبدا فى تعاسة أحد ، وهذا هو أقصى ما يتمناه الرب .. فلا تندب حظك وكن دائما على استعداد لأن تفتح نافذة للبشر يطلون منها على المجهول ، وتطل عليهم منها شرائح نور ، فلو لم يكن بإمكانك أن تصنع حياتك كما تريد ، فشارك فى صنع حياة الآخرين .

- الآخرون هم أنا .. وأنا الآخرون .. الآخر ليس غيرى ، ولن أنظر إليه شذرا حتى لو اختار الجميع طريق الذئاب .

فجأة ظهرت أمامه زوجته طيفا ثقيلا .. صرخت فيه بلا صوت . كانت كل ملامحها تصرخ فيه حتى شعرها . اندفعت تقلب علب الألوان وترمى الكتب وتقذف زجاجات الصمغ والحبر وعلب الكربون وتمزق اللوحات البيضاء .. لم يحتمل المشهد البائس فأسقط وجهه فى كفيه .

- كرهتها وكرهت بسببها جنس النساء .. لم تكن كذلك فى بداية الزواج . بدأت رحلتها التعسة بعد سنوات قليلة ، خاصة بعد اتصالها بأقاربها الأغنياء هنا فى مصر عتيقة وفى شبرا ومصر الجديدة .. عندما كانت فى أسيوط مع أهلها كانت الرقة والجمال والأدب .. ثم تحولت تدريجيا حتى وصلت إلى حالتها .. مسكينة .. هل جمالها هو السبب ، أم رغبتها العارمة فى الثراء ؟ .. لهفتها على

الامتلاك كى تنال كل ما تطلب وتتمنى ، فورا بلا إبطاء .. كلما طالبتها بالصبر والرضا اتهمتنى بالبرود وبإدمانى تبديد الفرص ، وقالت عنى لجورج ابن عمتها بالحرف : أنى خامل بلا طموحات ، يحب الجوع والراحة .. ويجهل الحياة تماما بينما يدعى أنه يفهمها جيدا .. الأسوأ من هذا قولها أننى أخدع الناس بحكمى التى لا أطبقها على نفسى أولا .. فأى حكمة فى أن يبقى الدكان مغبرا مظلما ومفكك الأبواب ، مهترىء الطلاء .. للأسف أيدها مجيد .

آخر ثوراتها التى دامت شهورا كانت بسبب عرض ابن عمتها أن يفتح مكتبة كبيرة على أرض يملكها فى شارع بديعة على أن يديرها ملاك .. رفض ملاك .. ولسوء حظه أن عرض خال زوجته الثرى جدا وصل بعد العرض الأول بأسبوع واحد فقط لكى يدير ملاك له مصنعا للكرتون فى حلوان ، ملاك رفض وقال : متغطرس ولا يستطيع التعامل معه . قالت مريم : يملك الملايين وصديق لأصحاب الملايين .. سوف تحدث نقلة كبيرة فى حياتنا .

بهدوء شديد قال لها : الحكيم قال : اجعل صداقتك لمن يتمتع بالأخلاق لا لمن يتمتع بالأملاك .

ثارت وقالت : لابد أن هذا الحكيم المخرف هو انت .

– ولا فخر

– أنت تريد أن تقتلنا ، وأن يعشش الفقر فى بيتنا والجوع أيضا

– نحن بالطبع لن نجوع ، أما عن الفقر فنحن لسنا فقراء والحمد لله ، بل أغنياء ، لأن الغنى هو من يقنع بما عنده .

– وهل عندنا شىء ؟

– الستر والصحة .

– عرفت الآن هدفك الوحيد فى الحياة .

– ما هو يا ترى ؟

– أن أجن

– لا يمكن أن يكون هذا هدفى ، على الأقل من أجل ماجدة ومجيد .

شدت شعرها وألقت ببعض الأشياء وصرخت وثارت ، لم يسمع إلا القليل ، فقد كان يهبط الدرج ، وهو يسأل عن سر غياب مجيد كل هذه الأوقات ، يرسم مع زملائه فى كلية الفنون الجميلة .

عندما عاد فى المساء .. دنت منه ماجدة وقالت له :

– سامحها يا أبى أرجوك ، هى لا تقصد .

– أسامحها يا ابنتى دائما .. فالحكيم قال : اغفر لأعدائك فلا شىء يضايقهم أكثر من ذلك .

– أهى عدوة يا أبى .

– نعم يا ابنتى .. أصبحت كذلك بعد أن تمكن منها الشيطان .. والشيطان طبعا عدونا

دخل مجيد وقال :

– ماما عندها حق .. أنت لا تريد أن تتطور .

– التطور يا مجيد لا يكون فى المطلق ، فى العموم .. هل الهدف أن أتطور ، وليكن ما يكون ؟ .. التطور يكون فى إطار من الظروف المناسبة .

– كل الظروف مناسبة .. أنكل جورج وجدى أسعد يملكان الكثير .

– المال وحده لا يكفى .

– يكفى جدا يا أبى .. أنا أعرفك لا تحب التغيير ، ومن لا يؤمن بالتغيير سوف تدهسه سيارات المستقبل .. الأيام لن تسمح له أن يوقف مسيرتها ..

– أنت لا تفهمنى كما تفهمنى أختك الأصغر منك .. أنا أريد التغيير ولا أحد يكره المكسب الذى يحسن الظروف ، لكن أنا تعاملت مع عمك جورج ولاحظت حبه المفرط للمال ولم تعجبنى طريقة معاملته للعمال أو للعملاء .

– من حقه أن يحافظ على كل قرش وينميه .

– المبالغة فى الجرى وراء المال معناها الدخول فى الحرب .

– الكلام معك لن يحقق أى نتيجة .. أنت مقتنع بأفكارك القديمة وقابض عليها بيديك وأسنانك .. ولن تتزحزح .. وأنت تعمل ضد الزمن .. أنا عندى سهرة حتى الصباح فى مشروع جمال ولطفى . سلام .

قالت ماجدة لأبيها :

– لماذا لا تناقش هذه الافكار من جديد . انظر إليها نظرة مختلفة متخلصة من عاداتك وما نشأت عليه . ويفضل أن تكون المناقشة مع آخرين وليس مع نفسك .

– المشكلة ليست عندى .. أنا متأكد .. المشكلة فيمن يريدون تغيير الحياة بالملابس والأجهزة والمظاهر، ولو فتح هذا الباب لن ينتهى .. المطالب لن تتوقف دقيقة واحدة ، أنا حاولت طوال عشرة أعوام على الأقل مع أمك كى تخفف من طلباتها وتحاول أن تتفهم حياتى وتضبط تفكيرها على تفكيرى .. الحياة عمل وتأمل وعبادة وليست استهلاكا ثم استهلاكا . ومن لا يكبح جماح المطالب سينتهى نهاية غير طيبة .

وعلى فرض أنى ذهبت إلى أى مكان آخر ، لن أكون سعيدا .. أنا أحببت هذا المكان .

– أرأيت .. هذه هى المشكلة يا أبى .. إنك مربوط . مقيد فى مكانك .

– نحن هنا بين أهلنا الذين نشأنا بينهم .. تعودت عينى وروحى على هؤلاء الناس ورؤية هذه الحارات وهذه الحيطان ، أما الدكان فقد قررت أن أرتبه بحيث يكون فيه ركن أنام فيه إذا تعذر علىّ أن أبيت هنا ، أى إذا تمادت أمك أكثر من هذا .. فهى الآن تبدو فى قمة الثورة ولم يتبق لها إلا الانفجار .

– اصبر عليها يا أبى .. أرجوك .

– ما يهمنى الآن ليس أمك .. ما يهمنى هو أنت وأخوك ، وواضح أن أخاك شرب منها الكثير .. أما أنت فأنا أريدك قوية .. استعدى للزمن بالقوة .. والقوة هى القناعة ، ليس أقوى فى الدنيا من القنوع.. عندما لا تستعبدك الحاجة إلى الاشياء تعيشين فى أمان .

– لا تنس يا أبى أن أمى تريد لنا التحسن ، وتعلم أن ذلك لن يكون مع غرباء.

– حب المال لا يعرف الغرباء أو الأقرباء ، والأهم من هذا أن الصراع من أجل الحصول على المال ضد الايمان .. وأنا مؤمن بأن الله سيرزقنى دائما ، وهو الذى يحدد هذا الرزق وحجمه .. وسوف يصلنى حتى لو كنت فى بلاد واق الواق .إن الرب فى الأعالى يرسل الرزق إلى الدودة التى تسكن سابع أرض ، والرزق كما يقولون يعرف عنوان صاحبه ، ولن تأخذى شيئا لا يريده الرب حتى لو حاربت الناس جميعا كى تحصلى عليه .

***

فى يوم رأت ماجدة أمها تأكل أظافرها ثم أصبحت تأكل أصابعها وتقص فستانها لكى يكون قصيرا .. فى يوم ثان أغلقت الشبابيك وأضاءت شموعا .. فى مرة وضعت سكرا فى الطبيخ .

لكن دهشة ملاك بلغت مداها عندما استقبلته فى يوم وهى تقول له :

– أكبر إهانة لى زواجى منك ، لم يحدث هذا إلا بعد أن مات أجدادى الباشوات .. حليم باشا وأخوه منصور باشا فهمى وإدوارد باشا غالى .

ازداد الحال سوءا حتى نصحه الكثيرون ومنهم أقاربه وبعض أقاربها أن يوافق على دخولها المستشفى .. قاوم طويلا ، لكنه فى النهاية رضخ .

(٥)

بعد أن تسكع ساعات كثيرة فى الشوارع هائما قرفانا ساخطا ، مفلسا جائعا مرهقا تعسا .. المستقبل يتبدى له بحرا كبيراً عميقاً ومرعباً ، وهو على وشك أن يسقط فيه من عل .. لا قارب . لا طوق . لا جزيرة . لا شىء على الإطلاق ولا حتى معرفة العوم .

قرر فى النهاية أن يعود إلى عشه .. مر على مكتبة ملاك . لم يجد عليا هناك . فات على بيتهم . لم يدخل . لمح فتحى الدمنهورى ساكن الدور الأول يصرخ فى أمه ويأمرها بأن تذهب إلى أخته ، الشقة لا تكفيه هو وعياله الخمسة . لم يجد حماسا للتدخل .. لعن فتحى الذى يطرد أمه من شقتها ومضى إلى علىّ .. انتقلت أم على وأخته نور فتاة الثانوية ليقيما إقامة كاملة مع أخته الحامل آية .. سافر زوجها الصعيدى عمران إلى البحرين وحذرها من مغادرة الشقة حتى لو هدمها زلزال .

بادره على بعد أن وضع الكتاب الذى كان بيده :

– ماذا حدث ؟

– فى أى شىء ؟

– استلمت الشغل ؟

– الموظف دوخنى السبع دوخات . اليوم ضقت به ، ألقيت فوق رأسه كوب الشاى .

– ماذا تقول ؟

– ما سمعته

– لم يكن يصح أبدا أن تفعل هذا

– تعبت يا على

– اصبر

– أنت شغال ، وتقبض مرتبا . لا تحس بشىء .

- الحياة فى بلدنا تركيبتها مختلفة .
- حظنا .
- لازم نضبط إيقاعنا مع إيقاعها كى ننسجم وتمضى الحياة .
- أى إيقاع يا أستاذ .. تخرجت منذ ثمانى سنوات .. أبى ورث عن أمه نصف فدان فى البساتين . استولى عليه عمى ، ثمنه اليوم فوق المليون جنيه ، ومنذ أن توفيت الجدة ، أى منذ عشرين عاما ونحن فى قضايا .. أخ يأكل أخاه ، وعارف أن أولاده فى ضنك ، ولا قلبه حن .
- لأنه لم ير إلا نفسه فقط . يريد أن يكبر ماديا لا إنسانيا وهذا هو العمى الكبير الذى يصيب كثيراً من الناس .. اطمئن .
- لماذا ؟
- لأنه لا يعرف حقوقه كما أنه لا يعرف واجباته .
- قل يعرفها ويتجاهلها .
- لا .. لا يعرف بدقة . ولا يفهم معنى الحياة الحقيقية .. انظر للغنى المصرى، يشترى بفلوسه لحم وشقق وسيارات ولا يذهب إلى الهرم مثلا، ولا إلى الأقصر ، ومنهم من لا يشترى الجريدة أو يساعد فقيرا .. وكثيرون منهم لا يعرفون أسماء الزهور .. ولا يفهمون فى الموسيقى أو أى مصدر للجمال .. وكثيرون لا يفهمون أصول الحكم ولا المعنى الحقيقى للحرية .. شعوب أخرى فهمتها ، ضحت من أجلها وأصلحت حياتها ولا تزال تحاول أن توفر حياة أفضل .. عندنا المناضل يفضل يناضل وأول ما يوافق المسئول على استقباله ويتناول معه الغذاء ويأمر بتوصيله لبيته بالسيارة الفاخرة .. ينسى النضال وينسى القضية . رغباتنا أقوى من أرواحنا . لذلك أتصور أن شعبنا لو فهم معنى الحرية الحقيقية سيغضب ويثور لكرامته .
- أنا ثرت اليوم لكرامتى .
- واحد من ستين مليون .
- كان الكل يجرى ورائى .. عشرات الموظفين والمديرين .
- فكر فى المنظر .

– لكن قل لى .. أنا أقرأ دائما أن المثقفين هم طليعة الثورة ، ولاحظت إنك مثقف كبير ، لكنك بلا دور .. أى دور .

تنهد على بعمق وبدا أنه فى ورطة ، أو كأن السؤال نزل بالضبط على الجرح .

– كلامك صحيح ، لكن السؤال هو .. المطلوب أن يكون لى دور .. مع من ؟ مع ناس لازالت تنجب سبعة وثمانية أطفال ، مع جهلة يتسلقون أعلى المناصب ، دور مع ناس لا تستغنى عن القذارة والفوضى ، ولا تتخيل حياتها بدونها .. دور مع غياب الديمقراطية الحقيقية التى تتمثل فى الحوارات بكافة أشكالها من أول الزوج مع زوجته ، والأب مع ابنه ، وضابط الشرطة واللص أو المخالف ، والعامل ورئيسه.

– لهذا يهرب المثقفون .. أليس كذلك ؟

– لأنها مباراة غير متكافئة .

– الحل هو الهروب والعزلة !!

– المثقفون الحقيقيون لا يهربون ، وإنما يحاربون بالقلم .

– رجال الدين فى المساجد أفضل .

– طبعا رجال الدين المستنيرون الذين يفهمون ويفسرون دينهم بلا تعصب ويفهمون جيدا روح العصر ومستجداته .

– وهل القلم يكفى لتصحيح الأوضاع التى تتحدث عنها ؟

– لا .

– لماذا فى نظرك ؟

– العبرة بعقلية صاحب القرار .

– الرئيس .

– الرئيس واحد أو مائة .. لابد أن يتوفر الوعى لدى كل مسئول .. الذين قال عنهم الرسول الكريم فى حديثه : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

.. المساحة التى يغيب عنها الوعى كبيرة بأقصى ما تتصور .. كثير من الرجال يفشلون فى إدارة منازلهم بالشكل الصحيح المنتج ، وقس على هذا واصعد فى الأمثلة .

– ما رأيك إذا زاد عدد المثقفين فى بيت القرار .. مجلس الشعب ؟

– عظيم .. فقط استبدل كلمة المتخصصين بدلا من المثقفين .. المطلوب خبراء وعلماء .

- وهل يمكن أن يدخلوه ؟
- أشك فى هذا
- من المسئول ؟
- الحكومة تفعل ذلك بطرق سرية .
- إذن لا أمل .
- لذلك يحجم الكثير من المثقفين عن الدخول وعن المواجهة .
- والعمل ؟
- يحاول الكثيرون تطبيق الدين على الدولة ، فى حين أن الدين سلوك الفرد فى الأساس وليس الجماعة
- بمعنى
- أن يطبق كل فرد أصول وقواعد الحياة السليمة كما رتبها الخالق على نفسه أولا وآليا ينصلح الحال .
- تقصد أن يتم التغيير فى القاعدة .
- بالضبط
- وأنا
- إلى أن يجد فى حياتك جديد . لا تغضب . اقرأ وتثقف . تعلم كومبيوتر . اتقن لغة عالمية .. الانجليزية أو الفرنسية . انزل إلى بحر المعلومات .. ألذ ما فى الحياة القراءة وشرب المعلومات ، ستصبح لك عيون أخرى وقلب آخر وعقل مختلف . ولا تنس أن العمل لن يأتيك وأنت تضع خدك على كفك وتسخط على الدنيا .. اعمل أى شئ حتى لو كان تصليح كراسى فى شقتك . وسوف يأتيك العمل . انس المرتب وانس الحكومة . عش داخل حارتك المرورية .. تذكر قول الله للسيدة مريم «وهزى إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا» يقول لها ذلك وهو يعلم أنها حامل ولن تستطيع أن تهز النخلة ، بل عدد من الرجال لا يستطيع ذلك ، لكن لابد من أداء أبسط الأعمال لتحريك طلمبة الرزق . اقرأ واستعد لكى تستقبل الثمار ، فهى رغم أنف الجميع سوف تأتيك . ألست تأكل الآن برتقالة صاحبها على بعد مائة كيلو على الأقل ، وفى مصر يأكلون تفاحا زرعه فلاح أمريكى ،

ويشربون قهوة من عرق برازيلي . لا تتوتر .. اضبط نفسك واسع .. اسع بفن .

نبيل : يعنى

على : بهدوء .. بصبر . برضا .. الناس فى أحيان كثيرة يسيئون فهم الدنيا ويتنازعون من أجل توافه .. وأثناء النزاع يفقدون المتعة واللذة التى تغيب عنهم لأنهم يركضون ولا يتأملون ما يفعلون .. هل رأيت مرة أحد هؤلاء يتأمل التكوين الرائع للبرتقالة أو الرمانة .. افتح رمانة وتأمل الهندسة الإلهية .. تأمل الفن فى تركيب أجزائها .. الحب الأحمر اللامع .. كل مجموعة فى ركن يغطيها غشاء رقيق لونه ذهبى .. وفى هذا الركن يصطف الحب الأحمر ويتعانق ويبتسم .. تأمل عروق البرتقالة وفصوصها .. كل فص مكون من مئات الحبات البللورية ..

الإنسان المعاصر أصبح مجنونا .. يحاول أن يأكل أكبر كمية من الطعام ويستهلك ماء كثيرا ويغرق فى الصابون ويصب على بدنه العطور ، ويغير كثيرا وباستمرار فى الملابس والسيارات والشقق والديكورات والزوجات والأولاد والأعمال والبلاد ، وعليه لكى يفعل هذا أن يجمع أكبر قدر من المال .

هل هذه هى الدنيا ؟ .. لا .. أنت نفسك لحقت بك العدوى عندما ذهبت إلى الموظف وكان نائما مقصرا فى حقك صببت عليه كوب الشاى الساخن من أجل ماذا ؟ .. تؤذى أخاك الإنسان .. من أجل أن تعمل وتقبض مرتبا لا يكفيك .. لاتدهش لأنى أقول لك إننا بحاجة إلى الفن .. الفن الراقى .

نبيل : تقصد أن الفن مطلوب للتربية .

على : ليكن ما تقول .. مادام الأهل لم يفعلوا هذا ولا المدرسة . البلاد الأوروبية لم تتقدم بالثورة الصناعية ولا بالتكنولوچيا ولا بما نهبته من المستعمرات، لكن بالفن .. الفن جعلها تضع كل ما ذكرناه فى موضعه الصحيح.. أما نحن فلدينا رجل الأعمال الذى يركب المرسيدس ويبصق فى الشارع وعلى السجادة ، ويتمخط فى كمه ولا يتفرج على أفلام يوسف شاهين أو لوحات صلاح طاهر ولا يحتمل مسرحيات الحكيم .

نبيل : هذا الكلام لايمت للواقع بصلة ، أنت تعيش فى برج عاجى ولا تحس بأحد .. أليس كذلك ؟

تنهد على ولاذ الاثنان بالصمت لحظات .. وقام بتشغيل المسجل .. وتسللت منه موسيقى هادئة .

مال نبيل بجنبه على الكنبة وقال بصوت باهت :

– لم ترد على .. ما علاقتك بالواقع يا على .. الواقع يعنى الشوارع مثلا .

– أصبحت أسير فى الشوارع دون أن أحس بالحفر والمطبات ولا بخبط الناس فى كتفى أو صوت الكلاكسات المزعج أو صراخ المنادين وزعيق الكاسيتات .. أنا أغلقت على نفسى من الداخل ، ولوسمحت بفتح نوافذى لهم لأصبت بالجنون أو تشاجرت معهم ، وكان مصيرى من زمان السجن أو المستشفى .

– وهل القراءة هى الحل الوحيد ؟

– أحاول البحث عن حقيقة القصر المجهول .. من بناه وفى أى عهد والغرض منه ؟

– الخرابة ؟

– للأسف .. أصبح خرابة

– تعيش فى الماضى ، والحاضر يطرق بابك

– أنا لم أعد أمنحه سمعى

– أنت تسمعه ولكنك تتجاهله

– يستحق ذلك

– لن نعود للاختلاف .. هل وصلت إلى أى معلومة ؟

– أقوال كثيرة متضاربة ومختلطة ، اختلاف فى التواريخ .. فترات قد تصل إلى خمسين سنة ناقصة فى الكتب ، لا يرد ذكر شئ عنها . فترات كثيرة منسية أو تجد عنها ثلاثة أسطر ، لا تنفع ، و لا تشفع .

لكنى لن أيأس .. أحس أنى لو وصلت لحقيقة هذا القصر وساعدت فى إعادة الحياة إليه أكون قدمت خدمة كبيرة للتاريخ وللثقافة .. للماضى وللحاضر معا .. تعرف يا نبيل ..

وتنبه إلى أن نبيل راح فى سابع نومه .. عدل تحت رأسه الوسادة وعاد إلى «النجوم الزاهرة» .

(٦)

اسمه محمد ، ميشو اسم الدلع . كان ذلك فى السنوات الأولى فقط ، والأسرة لم تعرف الدلع . الحاجة سفينة خالة جمعه ، حضرت من عمان محملة بالهدايا لأختها وأولادها وزوجها يس الفار . طلبت أن يدلل باسم ميشو ، فدللوه .. طلبت أن تأخذه لها فهى لا تنجب . رفض يس . سافرت سفينة مع زوجها ، ودموع الأسى ظلت معلقة بقلبها مدة .

لأنه آخر العنقود ، ورزق به بعد سن الخمسين ، فرح يس به جدا . ظل نصيب ميشو من الدلع اسمه فقط ، وماعدا ذلك لم تسمح الظروف ، إلى أن خرج من المدرسة نهائيا واشتغل فى مدبغة .. كانت هناك دائما مشكلة خاصة بنوم ميشو ، فالشقة ثلاث غرف ، وسكانها ستة قبل وصول ميشو ، كل اثنين فى غرفة . نبيل وجمعة فى واحدة والبنتان فى واحدة والأب والأم فى واحدة ، ولما ظهر ميشو قضى السنوات الأولى مع أبيه وأمه ، ولما كبر قليلا .. فوجىء به أبوه – وكان فوق أمه – مفتوح العينين يحدق فيما يجرى فأمر أن ينام مع أخويه ، ولكنهما رفضا بشدة ثم أذعنا إذ لم يكن بالإمكان أن ينام مع هنية وراوية ، لكن زواج راوية ، حل المشكلة ، انتقل ميشو للنوم مع هنية ، وإن لم يستمر ذلك طويلا ، فقد ظهرت مشكلة ، كانت السبب فى أن ينتقل نوم ميشو من حجرة هنية إلى حجرة الوالدين الذين أصبحا ينامان دون أية رغبات .

كان عفريتا وشقيا، من شدة شقاوته بالنهار ومن كثرة عرقه يشرب الماء ، وهذا الماء يتجمع فى مثانته لتطلقه فيضانا بالليل ، يغرق ميشو والمرتبة ، ويتسلل البول إلى هنية رغم المفرش البلاستيك ، حتى أنها فى عز النوم تشعر بالأنهار التى هدمت الأهوسة ، وأغرقتها فتنهض صارخة تجرى فى الشقة كالمجنونة أو المحترقة .

يظل ميشو يأكل الأرز مع الملائكة بينما الشقة كلها استيقظت لتبحث عمن يصرخ ولماذا ؟!

تضطر أم هنيه لايقاظ ميشو .. لا يستيقظ ، تحمله حملا إلى الأرض وتبقيه واقفا يساعدها أحد الأبناء فى تغيير ملابسه والملاءة .. تعيد وضع المفرش البلاستيك الذى تفرده تحته كل ليلة .

عندما تكررت هذه الواقعة مرات ، رفضت هنية رفضا قاطعا أن ينام معها ميشو الذى تحبه بالنهار فقط ، وكل ليلة يحول لها الحجرة إلى دورة مياه رجالى بشعة الرائحة .. تقول إن الدولاب المقفول تنفذ فيه رائحة «الصنان» وتضغط عليها الرائحة الثقيلة بكل قسوة ، قالت له عدة مرات بمنتهى الرقة : لماذا لا تنهض إلى الحمام عندما تشعر بالرغبة فى التبول .. نكس رأسه وقال :

– أنا أحلم أنى فى الحمام .. ولذلك أفرغ كل مافى بطنى من المياه

هكذا انتقل ميشو إلى حجرة والديه .. نام على الأرض عدة ليال وفصلت له أمه مرتبة ، ونام الصبى أخيرا على سرير مستقل وانتهت المشكلة .

لما كان ميشو فى نحو الثامنة من عمره ، قال لأمه :

– ولد زميلى فى الإجازة يعمل فى مدبغة ونفسى اشتغل معه .

– ماذا يعمل فى المدبغة ؟

– ينقل الجلود من السيارات والعكس

– فقط ؟

– فقط

– طيب يا حبيبى

راح ميشو وبقى منتظما فى العمل شهور الاجازة الصيفية .. كل آخر نهار يضع يده فى جيبه ثم يخرجها وفيها ثلاثة جنيهات يسلمها لأمه . تقبله وتقول :

– رجل يا ميشو

– محمد يا أمى .. محمد

استمر يعمل حتى بدأ العام الدراسى الجديد .. وفاجأ أمه وهو يمد لها أربعة جنيهات بقوله :

– سأظل فى المدبغة .

– المهم رأى والدك وأخواتك

قال نبيل وهنية : لا

وقال أبوه وجمعة : إذا كان مرتاحا خليه

سألته أمه :

– مرتاح يا ميشو فى المدبغة ؟

قال لها بقليل من الحدة : اسمى محمد ..

ضحكت وعانقته وقبلته ، وعادت تسأله :

– مرتاح يا ميشو ؟

ضحك الجميع ، وقال بحدة أكثر :

– اسمى محمد يا أمه

– مرتاح يا محمد فى المدبغة ؟

– مادام فيه فلوس أنا مرتاح .

بعد ثلاث سنوات أصبح مرتبه ستة جنيهات يقبضها مع كل غروب .. تحجرت يداه وتشققت ، تلونت بألوان أخرى غير لون جلده .. طال عوده قليلا واصفر وجهه ، وغدا رفيعا يظهر عظمه فى عدة مناطق خاصة لأمه التى يتعرى كى تحممه وأحيانا تقوم أخته بالمهمة وتقول له :

– تبدو كأنك لا تأكل طول النهار .. أنا ممكن أعد ضلوعك .

– بل آكل .

– ماذا تأكل ؟

– فول وطعمية أو كشرى

– لا تكفى . لابد تشرب اللبن .. أنت لاشك تتعب .

– سوف أشرب

– سأبعث إليك أخاك نبيل ليرى ماذا تعمل بالضبط ؟

– فى عرض النبى .. إلا نبيل

– أباك إذن

– لا ترسلى أحدا .. أنا أعرف مصلحتى

– أنت لازلت طفلا لا تعرف شيئا

يدفع يدها قائلا :

– خلاص .. اتفضلى بره .. لن استحم

تتوتر هنية ، وتقوم بوضع همها فى دعك جسمه بقوة حتى يصرخ رافضا الحمام . تصالحه وترضيه ليهدأ ويسمح لها أن تكمل مهمتها .

(٧)

يصل التلاميذ إلى مدرسة النديم بسيارتى أتوبيس ، يقودهما يحيى صقر وحافظ شارودة .. يسهر السائقان كل ليلة مع جمعة وباقى الأحبة فى دكانة موافى العجلاتى بعد أن تخف أرجل الزبائن .. تنزل الشيش والشايات والقهاوى وكثيرا ما يصاحبها اللب الأبيض والأسمر والفول السودانى ، لا يتوقف حافظ عن إلقاء النكات . منبع لا يجف من خفة الدم وحضور البديهة ، يلتقط القفشة من الهواء وقادر أن يضحك الحجر .. عبقرية ضلت طريقها فسكنت هذا السائق .. كان من الممكن أن يكون فيلسوفا أو مخترعا ، لكن هكذا انتهى وتجمد مثل كثير من المصريين . الواحد منهم أقصى مجده أن يرى الناس تضحك على ما يقول ، وفى آخر الليل يعود إلى بيته ، مفلسا لكنه قرير العين يقول : انهدى يا أرض انهدى.

ويجيئ دور جمعة الفار فيغنى ، ويقول له الجميع : الله

يوم بعد يوم بدأ سهر يحيى يقل ، ولما استفسر جمعة لم يصل إلى رد مقنع .. استبعد أن يكون رفض هنية له هو السبب ، بدليل أنه حضر بعدها مرات كثيرة كما أن ما بينهما أكبر من ذلك .. ولازم البنت تسأل قلبها ولا أحد يغضب من رفضها حتى لو كان عزيزا ومقربا من العائلة .

الحقيقة أن يحيى لما رفضته هنية ، وحصل أن رفضته اثنتان قبلها ، راجع نفسه ، وقلب المسألة على كل الوجوه ، وحلل الأسباب بهدوء . انتهى إلى أن البنات لا يريدن إلا أكياسا على شكل رجال محشوة بالنقود، وبناء عليه فليس بإمكانه أن يجد من تقبله إلا إذا كان لديه المال الكافى وهو بالكاد يجد قوت يومه.

واصل التفكير فى مصادر المال ، لكنه لاحظ أنه لا يملك أي وسيلة .. لا عائلة ولا ميراث .. لا تعليم ولا مشروعات . بل هو لا يعرف حتى التجارة فى المخدرات ولا يعرف كيف يسرق أو يحتال .

رغم هذا فقد ظل يفكر ويتعرف إلى أصدقاء جدد ويجلس مع رجال كبار فى السن وأقدم فى الحى ، إلى أن عثر على معلومة مهمة تقول : أن فيللا البارودى التى تقع على ناصية طه مع بديعة لا تقيم فيها غير ابنته نرجس هانم التى تبلغ الأربعين من العمر .. عانس . تركها أخوها سراج وسافر إلى أوروبا منذ أربع سنوات، ولم يعد ، ولم يرسل إلا خطابا واحدا منذ عامين ، وأهم جزء فى المعلومة أن حشمت باشا البارودى ترك أراضى كثيرة فى كفر الشيخ والهرم وعقارات بشارع بديعة .. قرر يحيى سائق الأتوبيس أن يدخل عالم نرجس . ولم يكن من سبيل للتعرف على هذا العالم غير فتحى الدمنهورى ابن خالة يحيى الذى يعمل بعد الظهر مع كمال ياقوت المنتج السينمائى زوج عين الحياة أخت نرجس ، لكنه بعد تفكير ، قرر ألا يعتمد على فتحى ابن خالته ، أولا لأنه مقزز بسبب معاملته لوالدته ، وثانيا لأنه – فى اعتقاد يحيى – لن يكون أمينا فى قول الحقائق ، فضلا عن أنه سيتملق ياقوت صاحب العمل بإفشاء أسرار يحيى لديه .

★★★

أبلغ الجناينى نرجس هانم أن على سمك وضع فى صندوق البريد خطابا باسمها . أسرعت تفتحه .. لم يكن من أخيها سراج .. كان من شخص لم تسمع به من قبل .

نرجس هانم

تحياتى .. مررت أمام بيتك عدة مرات ، وفى آخر مرة وقعت عينى دون قصد عليك وكنت تقرأين إحدى المجلات فى الحديقة . وقفت أطالع جمالك . كانت معلوماتى أن هذه الفيللا مهجورة ، فإذا بها سيدة أنيقة وجميلة . دق قلبى بقوة ، لكنى اضطررت للابتعاد حتى لا أسئ إلى نفسى وإليك .. وبعد أن عدت إلى بيتى .. لمت نفسى ، فقد كان على أن أقف طويلا وأتأملك فربما لا تتاح الفرصة .. وبعد لحظات قررت أن أكتب إليك هذه السطور تعبيرا عن إعجابى ، فربما يهدأ قلبى ويستقر ، ويكف عن لومى .

ودائما لك كل احترامى وسلامى

صديق من طرف واحد

يحيى صقر

استولت الدهشة على نرجس . طوتها ولفتها . دارت فى الحجرة تبحث عمن يكون قد رآها . خرجت إلى «التراس» . وقفت تنظر إلى الشارع .. من من هؤلاء المارة هو المرسل .

جلست وقرأت الخطاب من جديد . قرأت بهدوء شديد تحاول أن تقلب كل كلمة على أوجهها لعل هناك ما وراءها ، وربما هناك شئ بين السطور .. لم تكتشف أن وجهها علته الحمرة ، لكنها أحست بدقات قلبها الذى لا تذكر أنه دق فى يوم من الأيام إلا مرة واحدة ولسبب مختلف .. عندما استيقظت فى الليل على حركة ، كمنت فى سريرها وبقيت مستيقظة حتى الفجر دون أن تبلغها أى علامة تفيد أن غريبا بالفيللا . اكتشفت فى الصباح وقوع أصيص البوتس . عادت الرسالة الغريبة تشغلها وتدفعها إلى تقليب عدد لا نهاية له من أحوالها .

فى الرسالة التى وصلت بعد أسبوع قال لها :

نرجس هانم

تلاحظين أنى واضح .. كتبت اسمى لأنى مقتنع أنى صادق فى شعورى ومقتنع أيضا أن من حقك علىّ أن أعرفك برأيى فى جمالك ، وخاصة أنه من النوع الصعب ، أى الذى لا يكشف عن أسراره مع النظرات الأولى . جمال عميق آسر وساحر .. أعذرينى .. أنا تعليمى بسيط .. لكن صراحتى هى كل رأسمالى .. فى آخر مرة مررت بالفيللا تأكد لى أنك تعودت الجلوس فى الحديقة ساعة فى الصباح على كرسى بامبو ، وتشربين الشاى فى فنجان مناسب ليدك ، وتلبسين فى الأغلب جيبة حمراء واسعة وبلوزة بيضاء مطرزة .. ما هذا الذوق يا سيدتى ؟

هل قرأت بيت الشاعر الذى يقول فيه :

صونى جمالك عنا إننا بشر وهذا الحسن ربانى

أتركك بألف عافية

يحيي صقر

بقيت نرجس فى الفراندة سهرانة . احساس بالخفة والأمل ، يحملها ويهزها هزات حنون . القدر قرر أن يطلع عليها بخبر هام ويغمسها فى تجربة جديدة .. ولا تدرى ماهى مقبلة عليه .. رفعت عينيها للقمر كأنها تسأله .. طالت النظرات وتناهى إليها صوت فيروز :

سكن الليل وفى ثوب السكون تختبى الأحلام ، فتعالى يا ابنة الحقل نزور كرمة العشاق ، علنا نطفى بذياك الرحيق حرقة الأشواق .

القمر .. شعرت بالسعادة لأنه يقترب منها جدا ويحنو على قلقها .. أحست أخيرا بالبرد .. استأذنت منه واعترفت أنه غصب عنها .. لما تمددت على السرير ، وجدت القمر على الوسادة ينتظرها ويبتسم .

كان الجناينى يحضر مرة واحدة فى الأسبوع ، طلبت إليه أن يحضر مرتين وضاعفت له الأجر ، وكلفت الخادمة أن تحضر أى واحدة معها من معارفها ويقوما بتنظيف الفيللا بالكامل ، لا يبقى فيها سنتيمتر دون تنظيف .. بدأت تفتح الراديو وتسمع الأغانى والموسيقى والبرامج الأخرى . اهتمت بملابسها وأعادت الحياة إلى أزياء قديمة كانت قد أهملتها .. وشاهدتها الخادمة مرة وهى تجرى بعض التمرينات الرياضية حسب شرح البرنامج الذى يذيعه الراديو ، كما رأتها وهى تفتح بعض الصناديق وتخرج منها لوحات تطلب تعليقها ومفارش مخملية جميلة توزعها على المناضد ومساند الصالون .

ظلت فى حيرة حقيقية لأنها لا تستطيع أن تعرف ، من هو هذا المعجب ، ولم يحدث أن حدثها أحد بهذا الشكل عن ملامحها وملابسها . صارت تنظر إلى الشارع من وراء الشيش ، وتحدق فى الناس .. ولاحظت بنفسها أنها تعمل بعض الأمور مرتين أو تتردد فى عمل شئ دون أن تدرى لماذا...

بعد أسبوع وصلتها الرسالة الثالثة التى كانت تنتظرها بلهفة . ودت لو شاهدت على سمك ساعى البريد وهو يضعها فى الصندوق ، ولما رأته فى إحدى المرات ماشيا . سألته كما كانت تسأل منذ مدة ثم توقفت بعد أن ملت برود أخيها .

- فيه رسائل
- لا .. يا هانم
- لو جاءت رسائل .. أفضل أن تنادى ولا تضعها فى الصندوق .

نرجس هانم .

«أظننى شغلتك كثيرا برسائلى .. لذلك فكرت أن أتوقف ، حتى لا تتصاعد مشاعرى إلى درجة عالية يصعب علىّ بعدها أن أواصل عملى وحياتى وحتى لا تنشأ صداقة بيننا ، وهى صداقة لا تقوم على أساس لأنك بنت باشا وأنا موظف بسيط ، أعزب وفى مقتبل حياتى العملية وأسرتى فقيرة .. ولا أملك من حطام الدنيا إلا عقل وقلب ، ومن حقى أن أحس وانفعل بالجمال ، ولكن عقلى يقول الآن .. كفى .. نظرت نظرة وشفت الجمال وحبيت صاحبته .. خلاص . لذلك أقول لك : سلام

يحيي

ملحوظة :

عندى مشوار قريب منكم السبت القادم

ممكن أسلم لو وجدت بوابتك على مصراعيها مفتوحة فى الساعة العاشرة صباحا .. هذا معناه ..

موافقتك .

يوم السبت ارتدى يحيى أفضل ما عنده . وقف أمام المرآة . رضى عن البدلة المكوية تمنى أن يكون لديه رابطة عنق ، وليته تذكر أن يستعيرها من محسن .. حسب أن هذه الأبهة التى أصبح عليها ستقلل من عرض جبهته التى تأكل نصف وجهه ، لكنه فوجىء بها تكبر أكثر ، خاصة لما لمع الفازلين على شعره .

- كان على سيد غراب أن يقصر السوالف قليلا .. لكنه رغم ذلك حلاق ماهر، لا ينكر ذلك أحد ، المهم أنه أبقى على كمية شعر تقلل حجم الأذنين .

ابتسم سعيدا بشاربه الكث ، وخن بأنفه ، وتمنى أن يتذكر وهو عندها ألا يخن .. كانت هنية تتضايق جدا من هذه العادة التى لا تود أن تتركه .

صب على وجهه وصدره نصف زجاجة العطر التى اشتراها خصيصا لهذا اللقاء . ألقى النظرة الأخيرة على هندامه ليتأكد من مجمل الصورة التى ستقع عليها العين .. أيقن بأناقته فى حدود ما يملك ، وهذا ما لاحظه الأولاد وهو يوصلهم فى الصباح إلى مدرسة النديم ، وبعضهم ممن يتسمون بالجرأة والشقاوة علقوا على ذلك بكلمات لطيفة فزادت سعادته .

وقال لنفسه :

- إذا كان الأولاد الصغار لاحظوا ذلك ، فلابد أن الأمر سيكون مرضيا ولن تجد نرجس صعوبة فى قبوله .

تناول فطوره المعتاد من يد شكورة الذى يقف بعربة الفول على الرصيف أمام المدرسة . مضى إلى المقهى فشرب كوب ينسون ، فقد سمع عن فائدته فى تسليك الحنجرة وتنقية الصوت . أعد نفسه للقاء نرجس هانم .. دخل المدرسة واغتسل جيدا بعد الإفطار ونظف أسنانه وتمشى ببطء شديد فى اتجاه الفيللا وهو يقول : مفتوحة . مقفولة . مفتوحة . مقفولة .

محسن مدرس التربية الرياضية فى مدرسة النديم وابن شبل اللبودى تاجر المانيفاتورة توطدت علاقته بيحيى ، لأن يحيى أخذه معه عدة مرات فى الأتوبيس، ونما إلى علم يحيى نبأ العلاقة بين محسن ورشا مدرسة الرسم فى مدرسة البنات وأنهما يلتقيان .. نقلهما مرتين إلى كازينو النيل ، وكان يحيى على مستوى المسئولية ، فلم يلفظ بكلمة لمخلوق ، وكان دائم السؤال عن الآنسة رشا وموعد الزواج ، وأحيانا كان يحمل رسائل محسن إليها . كانا من وجهة نظر يحيى شابين جميلين منسجمين ، يمثلان صورة من صور جمال الحب ورقته وحنانه ، ويغريان بالحماية والمؤازرة .

عندما استعد يحيى لدخول عالم نرجس ، صارح محسن بالفكرة وكل عناصرها وأطرافها وظروفها ماعدا اسم من عليها العين ، كانت الفرصة مواتية كى يرد محسن أفضال يحيى . وضع له خطة الرسائل وكتبها له . حدثه عن المرأة وأهم الوسائل لكسب ودها .

سأل : معقول .. هل تقبله امرأة وهو على حاله الـ .. ؟

– إن أعتى النساء جمالا وحسبا وثراء يمكن أن ترضى بك وأنت بدون مؤهل .. المهم أن تمتلك الوسيلة .

– ماهى الوسيلة .. أنا فى عرضك ؟

– رقة المعاملة والتصرف معها باحترام وصبر مع الثقة بالنفس والكرم .

اندهش يحيى وأبدى تشككه ، فقال محسن :

– أعرف واحدة حاصلة على الدكتوراه ، تزوجت من ميكانيكى ، كان يحمل فقط دبلوم الصنايع لكنه كان مهذبا ولطيفا ، يتصرف بلباقة ومنظره يسر العين .

عاد يحيى يسأل :

– أنا نسيت .. ماهى الوسيلة المثلى للحصول على قبولها ؟

– اثنان لها ، وواحدة لك .. الذوق معها والكرم ، ولك الثقة بالنفس .

قرر أن يتوكل على الله ، يا صابت يا خابت .. لن تحدث خسائر لا فى الأرواح ولا فى المعدات . فما الذى تأخذه الريح من البلاط .

قبل أن يصل إلى الفيللا ، انحرف كى لا يكون إلى جوارها ، انتقل إلى الجانب الآخر بحيث يراها من بعيد ، كانت الساعة التاسعة والنصف . أرسل نظراته صوب الفيللا .. كانت البوابة مفتوحة عن آخرها ، وكذلك الباب الداخلى والشبابيك ، والممرات بين أحواض الزهور .. حتى الزهور كانت مفتحة .. حمد الله لأن متاجر شبل اللبودى للقماش كانت مغلقة حتى لا يصل سره إلى أحد .

(٨)

كوى القميص الذى غسلته هنية بالليل وكوى البنطلون ولمع الحذاء وانطلق إلى المقهى ورأسه مشغول بآمال كبيرة يتمنى أن يحملها هذا النهار .

كالعادة شرب الحجرين وكوب الشاى ، وعمل حسابه أنه يجهز نفسه للموعد الذى يحين فى الثانية عشرة بعد أن تخرج ناهد من مدرسة النديم .. لقد اتفقا أن يلتقيا على شاطئ النيل أمام المستشفى بعيدا عن عيون أهالى الحى .

بعد أن دفع قدميه فى اتجاه سيد الحلاق ، توقف ورأى أن يبحث عن حلاق آخر غريب لا يعرفه ، تذكر أن هناك حلاقا فى منتصف شارع بديعة .. لن يخبر أحدا بشئ . لن يفشى سره أو يكشف خططه . لن يسأله عن سكنه وأهله كما يفعل بعضهم ، ومن اليسير عليه أن يخبره إذا ألح فى السؤال بأية معلومات .

عاد وتوقف وهو يتذكر أن فى جيبه ثلاثة جنيهات فقط ، وحلاق بديعة سوف يحتاج للشعر والذقن والشنب مبلغا وقدره .

– لا .. سيد أرحم ، وممكن ألا أدفع .. أقول له حين ميسرة ، حتى نشرب أنا والجميل كوبين من العصير أو آيس كريم بالفلوس الباقية .

عاد يتجه إلى سيد ، وبعد خطوات توقف وهو على قمة الحيرة .. تنهد وقال : المشكلة لسانه .. غاوى يتبرع بالمعلومات .. أعوذ بالله منك يا شيخ .

مضى يكلم نفسه ، يؤيد الذهاب للحلاق البعيد ، ثم يرجح سيد . يفضل الستر ثم يهدده قصر اليد ورغبته فى كسب الود وتحسين العلاقة .

– لا أمل فى كسب الود بدون عصير ، ولن تتحسن العلاقة إذا لم تلحس الآيس كريم ، وإذا رحنا للغريب ، لن يكون هناك ود ولا علاقة .. أخيرا عزم وصمم على الاتجاه إلى سيد

– الأهم فالمهم .. المطلوب الآن .. الفلوس .. وربنا يستر علينا من الفضيحة .. أنا لا أخشى أحدا .. أنا رجل البيت وحر .. لم يخلق بعد من يمنعنى من شئ أرغبه .

قبل أن يصل إلى باب الدكان . تسمرت قدماه فى الأرض وهو يقول :

– يمين بالله ما أنا داخل .. موسى الغريب أرحم .

اندفع بخطى واثقة يتفجر من تحتها الإصرار والحسم إلى شارع بديعة ودخل على الحلاق ، فرح لأنه كان وحده ، يهش الذباب .. قال له :

– سأكون صريحا معك .. أنا أهلى كلهم من أرباب مهنتك .. زمل يعنى . تركتهم جميعا وجئت إليك .

– أهلا وسهلا .

– مراتى ماتت من سنين ، واليوم نويت أن أخطب ، ما رأيك ؟

– عين العقل .

– عندك حل لظروفى

– بعون الله أرجعك عشرين سنة

– تعجبنى .

نفض الحلاق الفوطة ، طرقعت بقوة مثل سوط الحوذى كأنها تعلن أنها سترضيه وتعيد له الشباب الذى ولى بلا رحمة .

عمل الحلاق بحماس واهتمام .. استخدم كل الأدوات ، واستعان بخبرته ليفى بما وعد . شد الفتلة ونتف . خفف وسوى ودرج .. قصقص الشعر الواقف بين الحواجب ، والشعر المطل من فتحتى الأنف والأذنين . نعم الذقن وضبط الشوارب وسقاهم بالكريم . رش العطور . ثم قال لزبونه الجديد .

– نعيما .

أطل يس فى المرآة ، وفى المرايا الأخرى التى كانت تحاصره وتتطلع فيه من كل ناحية . أحس بالرضا عن شكله . اقتنع أن الرجل عمل أقصى ما يستطيع .. الفرق واضح ..

قال له :

– أنعم الله عليك .. المشكلة فى الشعر الأبيض .

– أكثر الشباب اليوم شعرهم أبيض ، والبنات تبحث عنه .

- عندك حق .
- دليل الخبرة والتجربة .. يوفر الثقة ويبعد الشك
- على بركة الله .
- مبارك مقدما
- عتبتك تخلينى متفائل .

أخرج جنيهين من جيبه .. دسهما فى يد الرجل وهو يقول :

- لا تعدهم .
- مقبولين منك ، دون عد .

رفع الرجل النقود إلى فمه ، قبلها ورفعها إلى جبهته وعاد يقبلها .

سار يس ، يحلق به إحساس مختلف ، يتنفس بعمق .. صالبا عوده ، رافعا رأسه ، قاصدا أن يتأمل الدنيا بعد حلاقته ، يراقب نظرات الناس المصوبة نحوه ، محاولا التأكد من عيونهم أنه اختلف ، وبينما قدماه تلمسان الأرض بالكاد ، كانت شفتاه تلبى رغبة قلبه بالتغنى والدندنة .

لا يزال المتبقى نحو ساعة ، وضع يده فى جيبه ، لم يجد غير اليتيم ، أخذ يفكر فى مصدر مال يدعم به الجنيه المسكين .. نطت صورة ولده على شاشة مخه . قلب الفكرة فى رأسه ، وسرعان ما رضى عنها وبدأ التنفيذ بعد أن أعاد على نفسه .

- جمعة أكيد لم يدخل جيبه مليم .

قالوا له إن شخصا يريده ، فلما خرج من المدبغة لم يتعرف مباشرة على والده إلا بعد أن تأمله لحظات ، وساعده على ذلك أن أباه كان وحده ، ولن يختلط الأمر عليه ، وأبوه أيضا لم يتعرف عليه بسهولة ، إلا لأنه كان ولدا صغيرا ، ملابسه لم تكن أكثر من شوال خيش قصير تحته ساقان رفيعان وكان شعره ملبداً وقذراً ، ووجهه ويداه ملونة بألوان مختلفة .

دق قلب يس لمنظر ولده .. اهتز وتلجلج .. لم يعرف ماذا يقول .. وفكر أن يأخذ ولده كما هو ويعود إلى البيت .. مستحيل أن يكون هذا هو ولده .. كائن ممصوص وقذر ، بائس . لا يعرف البسمة . ضئيل . مهموم . من أجل بضعة جنيهات .

دمعة كادت تسقط ويراها ولده ، ترقرقت فى مآقيه ، استطاع أن يستعيدها ويردها إلى منابعها ، قبض على قلبه بعنف ليتوقف عن المزيد من الطرق فى حنايا صدره .. حاول أن يبعد من أمام عينيه مظهر ولده الذى يصعب على الغريب غليظ القلب ، ثم قال متلعثما :

- ميشو .. أنا كنت أمر من هنا .. قلت .. لا .. أنا ... هل أفطرت ؟

- أفطرت .. ماذا بك يا أبى ؟

أراد أن يقول أى كلام .. يتحدث فى أى موضوع .. لكنه لم يستطع إلا أن يقول وهو يدخل فى بعضه :

- احتاج جنيهين فقط .

ارتبك الولد وزادت حيرته وبحث عن الكلام فلم يجده . لم يكن معه مليم .. طال الصمت والرجل يحدق فى ولده ،. ما عاد يتأمل ملابسه أو هزاله .. كان ينتظر الاجابة .

مر طيف ناهد أمام عينيه ، أسرع يقول لميشو بلهفة :

- اسأل ريس المدبغة . تصرف

دخل الولد وراح الأب يدور حول نفسه ، كمن ينتظر زوجته التى تلد فى غرفة العمليات .

بعد دقائق لمح يس ولده قادما من قاع المدبغة ، حاول أن يرى النقود على وجهه ، لكنه لم يجد لها أى أثر .. كان الولد عابسا وليس فى وجهه أى علامة للنصر .. ملامح جامدة .. وقف ميشو أمام والده وانتظر لحظة ، كانت العمر كله لأبيه . مد يده بصورة آلية .. عيناه فى عينيه . سلمه الجنيهين . خطفهما العاشق وسرعان ما غيبته أول ناصية .

رجع فجأة ولحق بولده وهو يعبر البوابة الكبيرة وقال له :

- اعتبرها سلفة . سوف أردها لك ، وقل لأمك أن زميلك أخذهما وسوف يردهما .. سلفة يا ميشو يا حبيبى .

مضى فرحا بالجنيهات الثلاثة وهو يشعر أن الله يقف إلى جواره .. يؤيد خطواته ، لو لم يكن راضيا سد الطرق فى وجهه ولما أمكنه توفير المبلغ المطلوب.

أعاد على نفسه ما فكر فيه حتى يضمن مناصرة الله له فى الأهم ، وهو لقاؤه بناهد التى دعاها اليوم لتسمع ما لديه .

ظهر الشيخ إبراهيم حمو ابنته الصغرى راوية ، حاول أن يتوارى عنه أو ينشغل ، قرر ألا يعبأ به ، هو ليس مدينا له بشئ والعيال سمن على عسل ، فلماذا يتهرب منه ؟ .. حياه الشيخ إبراهيم باهتمام وسأل عن الأولاد .
عاتبه على أنه لا يحضر لرؤية راوية .. وعده أن يزورها ، وفوجئ يس بما لم يكن فى الحسبان :

- آذان الظهر سيحين بعد دقيقة ونحن على بعد أمتار من المسجد .
- عندى موعد مهم .
- أهم من موعد ربك
- لا .. طبعا .. لكن
- انتهز الفرصة .. هذا نداء الله ، وهذا بيته .
- لقد تأخرت .
- تخيل لو رئيسك فى العمل يناديك ، وهو عبد مثلك ، ماذا ستفعل ؟
- تأخرت لماذا لا تصدقنى ؟
- صاحب الوقت هو الذى يدعوك .
- أم العيال بعافية .. والطبيب ينتظرنى لأصحبه إليها
- الله هو الشافى .
- أعدك أن
- عِدهُ هو
- إن شاء الله .
- الصلاة فى موعدها أنفع للمرء من متع الدنيا

- كلامك حكم يا شيخ إبراهيم
- سوف تعينك على محو الذنوب
- فى نيتى الحج
- مرة فى العمر
- سمعتهم يقولون الصلاة فى الحرم بمائة ألف صلاة
- ومتى ستحج ؟
- قبل أن أموت طبعا
- وهل تعلم متى سيحين الأجل ؟

أسرع يس بالابتعاد وهو يقول :

- كله بأمره يا شيخ إبراهيم

ود أن يلقى نظرة أخرى على منظره .. وجهه وشعره وهندامه .. ليست هناك فرصة لذلك . مر بفيللا نرجس هانم . وقعت عيناه على وردة حمراء متدلية من فوق السور . انحرف عن الطريق فجأة . فكر ألا يقترب من الفيللا . كانت نرجس فى الحديقة . لأول مرة يراها وقد أطلقت شعرها وتزينت وتعرى ساعداها .. مط شفتيه عجبا وقال : يحيى العظام ، نتش الوردة وحملها سعيدا إلى نجمة اللقاء ، بينما كان قلبه يدق بقوة داخل برج صدره .

كانا قد اتفقا على اللقاء فى حديقة ناصر الجميلة المورقة ، على المقعد الخشبى المواجه لأكبر شجرة .. يتكون من شرائح طولية خضراء .. لم تكن الحديقة مزدحمة .. الأولاد فى المدارس وليس فيها غير قليل من كبار السن وبعض السيدات وزوجين أو ثلاثة من الشباب .

جلس على المقعد ينتظر . نظراته تمسح كل الأركان والبوابات والممرات التى تفصل بين الجزر الخضراء . يعرف جيدا طريقتها فى المشى . تابعها كثيرا وهى تمشى مشية طيبة مثل شخصيتها . استدعى فى رأسه ملامحها الحزينة وهدوءها الزائد ، والغلب الذى يكسو كل تصرفاتها ، فهى دائما منحنية وصامتة ومنكسرة النظرات .. تخدم والدها وأخوتها منذ ماتت أمها قبل سنتين . تعمل فى المدرسة

وتنفق على أخوتها ، وأصبحت تنفق على الوالد نفسه بعد أن أصيب فى ساقيه إصابة ربما يطول علاجها كما قال الأطباء .

فات الموعد ولم تحضر . بدأ القلق يعبث بروحه . يتلفت . ينهض . يقعد . يأكل أنامله .. شوك اليأس يخمش قلبه .. تغيم عيناه بأشباح الدموع . أخيرا ظهرت عند البوابة . تعلقت بها نظراته ، وبقيت معه تدلها على الطريق حتى وصلت إليه .

وقف مرحبا . مد كفه إليها . مدت يدها . عصفورة صغيرة . نحيلة الأصابع . حطتها فى كفه .

سألها بمنتهى الرقة : لماذا تأخرت ؟

قالت : شغل فى المدرسة كان لازم أنهيه

قال بصوت حنون : خشيت ألا تحضرى

قالت بحياد : جئت لأنك قلت : هناك شئ مهم

اندفع يقول : مهم جدا .. مهم خالص

فقالت : لذلك شعرت بالقلق

- كيف حال الوالد ؟
- كما رأيته
- لابد من رفع دعوى
- المهم صحته
- ربنا كريم
- مؤكد كريم .

عزم أن يحدثها عن قلبه وشعوره تجاهها ، هذا الشعور الذى يتزايد ويملأ عليه كل حياته . ليله ونهاره . وعزم أيضا أن يشركها فى البحث له عن علاج .

كلما عزم أن يلقى بين كفيها ما يثقل عليه فتحمل عنه بعضا منه ، حدثته عن والدها وظروف صحته ، ومشكلته مع النمر صاحب العمل الذى يتبرأ منه ويتخلى عنه ، وينوى أن يقاوم أى مسعى للحصول على تعويض .

– تصور يا عم يس .. كثيرون تحدثوا إليه بخصوص أبى ، عددوا خدماته ومدة عمله النظيفة مؤكدين له إن إصابته تمت أثناء أدائه لعمله بإخلاص . ذكروه أنه كان ذراعه اليمنى فى تسيير العمل وإدارة العمال .. تصور .. قال إن الاصابة صحيح تمت أثناء العمل ، لكن الوالد هو المخطئ وليس عليه أن يتحمل جهل وإهمال العامل .. هكذا يقول القانون ..

– والسنين التى خدمها ؟

– قال لقد تقاضى أجرها على داير مليم .

– مستحيل . تصرف غير إنسانى بالمرة

فجأة وقفت وطلبت أن يسمح لها بالانصراف . بهت . كان يود أن يدعوها إلى ناد أو كافيتريا ليشربا العصير ويأكلا الآيس كريم . هكذا أعد نفسه .. وتكون الفرصة متاحة ليفرج عن مكنون قلبه .. لابد أن يعترف لها أنه لم يعد يرى غيرها .. قالت

– علىَّ أن أعد الغداء لأخوتى .. أنت عالم بالظروف

مدت يدها لتودعه .. طلب منها أن يرافقها

– أرجوك

– أحب أعرفك إن المحامى طمأننى الحكم بعد أسبوعين

– أى حكم ؟

– الحكم فى قضية الأرض التى استولى عليها أخى

– ربنا يصلح الأحوال

– بعد الحكم مباشرة يدخل جيبى مليون جنيه .. ألف ألف .. شئ حلو خالص

– مبلغ كبير

– لذلك .. كان نفسى أقول لك إن ..

نظرت فى الساعة وقالت :

– أرجوك . لازم أمشى

– أكمل كلامى

- الأسبوع القادم إن شاء الله فى نفس المكان ونفس الميعاد

بدا كأن روحه ستفارق جسده . شهق

- بعيد جدا

- يوم الخميس إذن

- أمانة عليك ما تنسى

تسللت منه ومعها روحه ، ويبدو أنها ردت عليه وهو لم يسمع ، لعله كان مصابا بصدمة الفراق المفاجئ الذى هدم له كل خططه ، وضيع عليه الأثر الذى كان يتوقعه ، وبعد لحظات شرع ينقل خطواته وهو يقول :

- ألم يلفت نظرها شكلى الجديد ؟ .. ألم تتنبه لمنظرى بعد التعديل .. أنا متأكد إن الحلاق عمل فىَّ عملا لايقدر بمال .

جلس دون أن يكمل - ثم عاد فوقف ، ومضى مسرعا نحو البيت .. توقف أمام السيارات ، وأطل فى زجاجها المغلق .. ورأى نفسه تحت أشعة الشمس ولمح التغيير وتأكد منه ، رأى نفسه مرات عديدة فى كل الزجاج الذى مر به ، وعاد يتساءل .

- لماذا لم تلتفت إلى الشعر وتسريحته ، وذقنى الناعمة .. وكيف لم تلمح حذائى الذى لا يزال يلمع .. غريبة .. كل شئ يجرى ويهرب .. الناس فى الشوارع جميعا يسرعون .. كأنهم قرروا الهجرة ولا يلتفتون لما جرى لى .

(٩)

قال على لعم ملاك:

– هل يمكن أن نقسم المكتبة قسمين؟

– كيف؟

– قسم للبيع وقسم للقراءة. قسم لأدوات وكتب المدارس وقسم للكتب الثقافية الأدب والتاريخ والسياسة والاقتصاد والفكر..ثقافة عامة.

أعجبت ملاك الفكرة وقال على الفور:

– غريبة .. كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل؟!.. لكن المسألة تحتاج إلى أرفف جديدة، خاصة أن بعض الكتب فى صناديق على الأرض وتحت البنك.

– بسيطة.. زهدى ابن عمى نجار ممكن يعمل لنا الأرفف، ولن نحتاج إلا إلى الخشب .

– عندنا فى البيت صندوق كبير تحت السرير. أظنه ينفع.

– لن يكفى ، وعلى أية حال . الرأى متروك لزهدى.

راح زهدى وشاف الصندوق وقال:

– ينفع . لكنه يحتاج بعض المراين، لا تحملا هما

لما تحدث على عن ضرورة طلاء الجدران، رأى ملاك إرجاء المشروع لحين ميسرة، وطلب من ابنه مجيد الذى كان مشغولا بدراسته فى الفنون الجميلة أن يحضر ليرى ما جرى للمكتبة ويقول رأيه..

مرغما جاء ولم يرض عن شئ قال:

– المكتبة كلها يجب إعادة صياغتها من جديد، والتخلص من كل ما فيها من الأخشاب، البنك فظيع، والأرفف بشعة والعلب، والجدران تحتاج إلى تنكيس من أسفل لارتفاع متر ونصف المتر ثم محارة كاملة وطلاء وإضاءة، وأهم شئ التخلص من الكتب.

لأول مرة ينفجر ضاحكا.. وظل يضحك لعدة أيام كلما تذكر رأى ابنه. لكنه قال له ساعتها بعد أن خفت بالونات الضحك:

- أنا سعيد بأفكارك يا مجيد.. لابد إن شاء الله خلال المائة سنة القادمة نعمل كل الذى فكرت فيه.

تركه مجيد دون أية كلمة ولم يعد مرة أخرى، ظل مشغولا بين الكلية ومرسمه فى بيت الكريدلية.

★★★

تخرج على فى قسم الفلسفة. أحب هذا اللون من المعرفة والدراسة منذ تربى فى مدرسة ملاك للحكمة، استشعر رغبة عميقة فى أن يمضى فى هذا الاتجاه ويطور معرفته به ويغوص فى أعمق أعماقه .. قال لنفسه:

- إن التفلسف لم ينته دوره بعد، ومازالت للفلسفة مهمة كبرى فى الحياة. لازال علينا أن نحاول تأمل أشكال الحياة وسلوكياتنا كبشر حتى بعد أن أخذت بعض العلوم أجزاء من اهتمام الفلسفة وبحوثها، ونتش كل علم جديد منها قطعة ليؤسس لنفسه موضوعات وقضايا واعتقد البعض أن العلوم نهشتها كلها، لا .. لازالت علاقة الله بالإنسان فى حاجة إلى رصد وتحليل ، وتأمل أسباب ونتائج ودلالات هذه العلاقات تحت أضواء المستجدات التى تظهر مع كل عصر. فهل نظرة الإنسان إلى الله لاتزال كما كانت من قبل؟ لقد كشفت نهايات القرن العشرين وتجلياتها العلمية عن تقنيات تمكن الإنسان أن ينظر إلى الله نظرة جديدة، نفيض بالتقدير والمزيد من الفهم لعظمة الخالق، إذ تحقق العلم من عبقرية الصانع الأكبر وروعة ابداعه وإعجازه فى التشكيل، ومن كان يتشكك مثلا فى قدرة الله على تسجيل مواقف البشر وأعمالهم وأقوالهم، لم يعد ثمة مجال لذلك بعد أن أصبح شريط كمبيوتر صغير يمكن أن يتضمن مجلدا من مجلدات الموسوعات العالمية كالبريتانيكا أو الأمريكانا أو لاروز-.

يقول على متأثرا بأقوال بعض أساتذته، إذا كان هناك من ينشغل بالهندسة ومن يهتم بالطب ومن يعنى بالاقتصاد والرياضيات ومن ينصرف إلى شئون المال

ومن يتفرغ للألعاب الرياضية أو الفنون والآداب، فلابد أن يكون هناك من يتأمل الناتج من كل هذا، وتأثيره على مسيرة الإنسان، فكل شئ يسعى فى الحقيقة نحو الإنسان ولخدمته ويدور فى فلكه.

كان على مختلفا عن زملائه.. يقرأ كثيرا ويحلل ثم يناقش أساتذته ويستنفر معارفهم، فيلتفتون إليه ويقربونه منهم ويمدونه بأسماء المراجع والكتب التى تسد نقصا فى مجال بعينه يكون قد خاض فيه.

شغلته العديد من القضايا. الألوهية . الوجود . الانسان. الزمان. الخلود. الاغتراب . الموت، ورغم اهتمامه بالكلية وكثرة قراءاته، إلا أنه كان يقضى فى مكتبة ملاك ساعتين كل يوم على الأقل بعد نومة القيلولة التى يحرص عليها بعد عودته من عمله بمكتب رئيس الوزراء.

فى أحد الأيام أيقظه صياح الناس.

– الحقوا عم شبل ... الحاج شبل اللبودى خبطته سيارة

ولما أطل من البلكونة ليعرف ما جرى أشار له ملاك كى يهبط .

لبس سريعا بسرعة ونزل.

– خذ مكانى حتى أرى عمك شبل . ربنا يستر

– خليك أنت وأروح أنا

أسرع ملاك يهرول فى إثر الراكضين تاركا على فى المكتبة. كانت الإسعاف قد وصلت، أخذ رجالها فى نقل الحاج شبل وإدخال جسده الذى يسيل منه الدم عربتهم البيضاء، وسرعان ما اندفعت تشق الزحام بمقدمتها الحمراء، والناس خلفها يقفزون فى سيارات نصف نقل وميكروباص وينطلق السائقون بهم خلف الإسعاف.

كان الكل يدعو للحاج شبل بالسلامة وطول العمر، فكم عمل من خيرات وعاون الجميع ووقف مع الحق، جلس ملاك صامتا فى المستشفى يستعيد شريط علاقته بشبل .

لقد أعطاه الشقة التى يقيم فيها الآن ، بعد أن انهار البيت الذى كان يسكن فيه مع والدته ، وبقى فيه مع زوجته بينما رحلت الأم إلى جوار ربها.. داخ ملاك بحثا عن حجرة تكون قريبة من المكتبة فلم يجد، ولما علم شبل تنازل له عن الشقة التى يتخذها مخزنا للأقمشة فى شارع تقاوى.

فى نفس البيت.. تقيم أية أخت على جودة، وقد أجر الشقة لزوجها عمران صديق ولده محسن.

قام شبل بنقل جزء كبير من الأقمشة إلى بيته حيث حشرها تحت السرير وفى السندرة وفى الدكان، وبعضها ظل فى الشقة مع ملاك حتى سحبها بعد شهرين، وكان قد سمع من ولده بأن عمران صديقه حزين لأن مشكلته بلا حل.. خطب أخت على ومرت سنوات ومات والدها دون أن يفرح بها وقد أصبح الوضع مهددا ولم يعد معه مليم، فسلمه الشقة ليتزوج بها، وربنا يفرجها.. بعد شهور قليلة عرض عليه أحد الأثرياء العرب أن يعمل معه فى تجارته وسافر معه إلى البحرين.

جاء على باله ما قال شبل لمساعده لما زعق فى نسوة شاهدن كل ما فى المحل، ولم يشترن شيئا: النساء محطة إذاعة. والتقليب طبعهم وحقهم يا حمار.. كان على يود أن يبقى ملاك ويجرى هو ليكون إلى جوار عم شبل ، لكن ملاك أصر أن يذهب ، عزم على أن يذهب إلى المستشفى بعد أن يعود صاحب المكتبة . أزاح عن كاهله أساه .

سحب على المنفضة ومضى يضرب الكتب والأرفف والبنك، وهو يفكر مثل الكل فى شبل ورجولته ، وكعادته كان يترك الجزء ليمضى إلى الكل:

– الإنسان ليس موقفا فقط. الإنسان عندما يلتقى بالزمان يصبح هو التاريخ. لا تاريخ بدون إنسان.. وشبل ليس أغنى رجال الحى، بل هو تاجر بسيط ومع ذلك حرص على تعليم كل أولاده.. أولهم هشام ضابط الشرطة والثانى محسن المدرس ثم ثلاث بنات.أصغرهن توقف تعليمها عند دبلوم التجارة. لها ملامح جميلة.. ربما كانت أجمل بنات الحى.

- رجل جدع والجدعنة «شحت».

بينما كان ظهره لباب المكتبة يواصل تنظيف الكتب من الغبار، أحس أن شخصا يقف وراءه. تحول برأسه واضعا المنفضة جانبا وهو يقول:

- أى خدمة؟

- أنا التى تقول لك : أى خدمة

نزل عليه سهم الله. حدق فيها وحاول أن يكتم شهقة.. كانت تقف على بعد نصف متر من فتحة الدكان. سقط ضوء النهار على وجهها. فتاة رشيقة العود ممتلئة قليلا، فى عز الشباب والنضارة. يتفجر وجهها الخمرى بالصحة والجمال .. أحلى كثيرا من بنت شبل اللبودى.. عيناها خضراوان واسعتان تحرسهما رموش صفراء ، يتهدل على الكتفين شعر كثيف ناعم، يلتف حول بداية جموحه شريط برتقالى . يزين صدرها نهدان مزدهران تحتهما خصر نحيل وعود ريان.

ظل ساكتا لا يدرى سر الحيرة التى أصابته ، فقد بدت له: جميلة جدا لدرجة مدهشة، كما أنها فيما يبدو ليست من المنطقة ، ولكنها تتكلم بثقة واطمئنان، والغريب أنه يشعر فى أعماقه أنه رآها من قبل ربما منذ مدة طويلة.

أوشكت على الابتسام، أنقذت نفسها وأنقذته بقولها:

- أين بابا.. أول مرة يتأخر

عندئذ فقط قبض على العصفور الذى كان يحلق فى رأسه.. هذه العيون لايتوه عنها وهذا الشعر، وبعض هذه الملامح العفية المتوردة كانت منذ سنوات قليلة براعم أنثوية لا تلفت الانتباه إلا فى إطار الطفولة.. الآن فقط يمكن أن يسمح لنفسه أن يفرح ويبتسم ويقول فى شبه اطمئنان وفى غير قليل من الدهشة:

- ماجدة؟

ببطء شديد قالت كأنها تشك وتخشى الزلل:

- هل يا ترى أنت .. على ؟

- بشحمه ولحمه

- شكلك لم يتغير كثيرا

- شكلك أنت.. تغير كثيرا

ضحكت ورقص ضوء الشمس على أسنانها وفى وعينيها وتمشى على الخدود..

قالت : كيف ؟

ابتسم هو الآخر ومنع نفسه من أن يجيب على سؤالها بصراحة واكتفى بأن قال:

- تغير كبير..

- إنت خلصت؟

- السنة الماضية

- على ... يا على .. فاكر؟

ضحك وقال : سعيد أنى شفتك يا ماجدة

لحظة صمت . كل منهما عاجز عن سحب نظراته من عيون الآخر. قال على:

- المفروض إننا نتبادل الأماكن

- هذه مكتبتك.. حدثنى عنك أبى كثيرا.

- أبوك يعطينى أكثر من حقى

- لم تجبنى أين ذهب؟

- راح يطمئن على عم شبل

- شبل اللبودى

- أتعرفينه؟

- بالطبع

- للأسف خبطته سيارة

فزعت وسألت : والحالة؟

- ربنا يستر

- لو سمحت لما يرجع بابا قل له أنى رحت الدرس

- أى درس؟

- العربى
- فى أى سنه؟
- الثالثة
- الثانوية؟

هزت رأسها.. كان يشعر أنه يقف أمام عروسة لا يتعين أن تنتظر كثيرا وصول العريس.. عروسة ناضجة وجاهزة.. تملأ حياة رجلها سعادة حتى لو لم يجد ما يأكل..

- سعيدة

فوجئ بها تتأهب للمغادرة. أسرع يمسك بآخر ذيول الفرصة، فلم يتصور أن ينتهى اللقاء هكذا...

- أدبى أم علمى؟
- أدبى
- كيف حال الفلسفة؟
- بين بين
- أنا مستعد أساعدك.. لو أردت
- ياريت
- تقولين لعم ملاك أم أقول أنا
- قل أنت
- بل قولى أنت
- لا .. أنت
- لا .. أنت

تولدت ابتسامة على شفتيها الناضجتين قبل أن تمضى وتولدت فى قلبه المشاعر التى يرويها الإعجاب بالفتاة الجميلة.. استعاد قوامها وثبته أمام عينيه وقال فيه ما قاله القدماء:

زينت زينب بقد يقد — وتلاه ويلاه نهد يهد

جندها جيدها وظرف وطرف — ناعس تاعس بحد يحد

دار حول نفسه كمن يحاول أن يرقص، لكنه لم يكن يعرف النغمة الصحيحة.

هو فى حالة تحليق . حصان مجنح.. يطير من حول السحاب الملون.. والكتب تحدق فيه وتغنى له وتزغرد على إيقاع قلبه الذى كان نائما تماما، أو كان يسكن ثلاجة .. يقيم على رف من رفوفها المعدنية الباردة.

– ربنا يشفيك يا عم شبل .. سامحنى . الجمال يا عم شبل هو السيد..

قلب فى ذاكرته عن شكل ماجدة قبل أن تكون هذه الوردة. آخر مرة كانت تقريبا منذ ثلاث سنوات، ولعله رآها بعدها ولم ينتبه. كانت صبية عادية نحيلة العود، لا يلفت النظر فى شكلها غير العينين والشعر، تهوى، اللعب كثيرا مع بنات الشارع أو زميلاتها فى المدرسة، وكان أبوها يرسله أحيانا للبحث عنها وإعادتها، فقد كان أخوها لايقيم فى البيت أغلب الوقت.. دائما غير موجود . كانت ماجدة تضيق بأمها وسخطها الدائم وزعيقها مع الوالد وغرامها بمشاكسته منذ أن يؤوب فى المساء.

ضحك على وهو يتذكر عندما راح يناديها من عند صاحبتها.

– أظن اسمها نجاة . فاكر . لأنى اضطررت فى هذا اليوم إلى جرها وهى تنادى: يا نجاة يا نجاة .. حوشى الولد المجرم عنى. يا نجاة.. مالك بى يا لزقة، وأنا أقول لها : أمرنى والدك أن آتى بك فلابد أن آتى بك.

آخر مرة لم يرها ولكن جاءت سيرتها . منذ شهرين قام عم ملاك بزيارة زوجته فى مستشفى الأمراض العقلية، كان معه مجيد وماجدة يوم أحد السعف. حملوا الخوص الأخضر .

حكى له والدموع تحرق جفونه.. خطفت منهم الخوص وراحت بعيد فى الجنينة. أخذت تدوسه بقدميها حتى هرسته، ثم التقطته ومضت توزعه على النزلاء فى المستشفى . أسرع إليها مجيد، يجذبها، بينما كانت تقول له:

– لن أذهب معك إلا بعد أن تاكل البهائم . اصبر

عندئذ صرخ مجيد:

– هيا بنا يا بابا .. انتهى فيها الأمل. أمى راحت . وزيارتها «بهدلة»

تصور يا على مريم وصلت بها الحال إلى هذه الدرجة..

حاول أن يواسيه .. لكن على نفسه كان متأثرا ومتهاويا وأشفق على عم ملاك .. والده الحبيب وأستاذه الطيب.. كان يتساءل عن السر فى أن مثل هذه النوعية من البشر يمكن أن تتعرض للشقاء وهى الجديرة بالسعادة والهناء.

بعد شهر جاء مجيد يجرى فرحا متهللا.. دخل عليه المكتبة يقول:

– كسبت يا بابا.. فزت يا بابا.. فزت بجائزة الصالون.. الثانى على مائة متقدم في مسابقة شباب الفنانين.

عانقه أبوه

– ألف مبروك يا حبيبى .. ألف مليون مبروك

أطلت من جديد دموع سيالة، ومتألقة بالفرح والشكر

– أول مرة فى حياتى أفرح من عشرين سنة

– عارف مقدار الجائزة يا بابا

– هذا لا يهم . ليكن قرشا واحدا ليكن شهادة. تقول فيها جهة مهمة أن مجيد ملاك فنان قدير . فنان موهوب.. هذا يكفينى.

– الجائزة.. ثلاثة أشهر فى باريس.. إقامة كاملة ومصروف جيب وزيارة المتاحف والمعارض والكنائس ومعاهد الفن، يعنى أكثر من عشرين ألف دولار.

مجيد يتكلم وهو يحمر ويخضر، ويدور حول نفسه، وكلما دار طال وكبر وتلونت ملابسه أن تشاهد شخصا مبتهجا تفرح.. السعادة معدية..أصبح فى نظر على شجرة تتدلى منها كل الثمار الجميلة.. أغصان الفرحة تتراقص وتنثر حولها ألق السعادة.. نجوم صغيرة تومض فى سماوات القلب. فرحة من الأعماق يعيشها شخص وجد أخيرا ما يبحث عنه.

فرح على لم يكن فقط من أجل مجيد، لكنه كان فى الأساس من أجل ملاك .. الرجل المرهف الرقيق الذي نال بعض المكافأة بفلاح ابنه بعد مأساة زوجته التعسة وصبره عليها.

(١٠)

لم يكن يحيى يستطيع أن يستغنى عن لقاء الأحباب فى دكان موافى العجلاتى ، هو وجمعة وقرنى زلطة وحافظ شارودة وبقية الفريق المنسجم.. تبدأ الجلسة بنشرة الأخبار يلقيها شبراوى الديب وكالة الأنباء المتنقلة.. لو قابلته كل نصف ساعة يفاجئك بقوله:

– عرفت الخبر.. وصلك ما جرى؟

أخبار محلية . أخبار دولية. أخبار فنية. رياضية. اجتماعية. شخصية.. قضايا تعيينات . تنقلات. حب. زواج . طلاق . موت . ميلاد . سفر. أعمال سحرية. مرض . حادثة . ساكن جديد. بناء . هدم . فوز . خسارة . حرب . حج . طهور . زار . وليمة . ضرب . نجاح . سقوط. سرقة . اغتصاب . نصب. ولا تخلو أنباؤه من أخبار الحيوانات ، من كلاب وقطط وحمير وثعالب وبط وفئران.

فى وسط الكلام فوجئ يحيى بشبراوى يقول:

– صحفى راضع من بز أمه تمام نشر احصائية لمن يعمل بالتجارة من أعضاء مجلس الشعب وجدهم ٨٠٪ ما بين فراخ وحديد و عملة وأدوية وفياجرا ومخدرات ومجوهرات وأخشاب وكافيار وخنازير وعجول وسيارات ومحمول وزهور و خردة وعقارات وأراضى.

علق قرنى : لأن دخول مجلس الشعب ، يكفى له أن تفك الخط

قاوم المعلومة قدر استطاعته وهو موقن تماما أن قائلها كان يحلم أو لم يكن غطاؤه كافيا أثناء النوم .. أقسم الشبراوى بأيمانات المسلمين أنها معلومة صحيحة ١٠٠٪ واسأل عنها وتأكد.

دخلت المعلومة رأس يحيى فإذا بها تمسح كل ما بها، وتقف وحدها فى ساحة دماغه كعملاق، وتبدو جبهته التى تشغل ثلاثة أرباع مساحة وجهه كأنها زادت ووصلت إلى فمه.

جلس بينهم بعض الوقت شاردا، وذاهلا عن أقوالهم ونكاتهم وعندما شرع جمعة يغنى، عاد إلى الجلسة الفواحة بشيشة التفاح وضحكات الجميع وصوت جمعة النشاز، ومضى يخن بأنفه دون أن ينتبه له أحد . ويبدو أن هذه العادة تتوالى كلما توترت أعصابه.

فكر أن ينصرف، لكنه أرجأ ذلك حرصا على مشاعر جمعة، وحاول أن يعود إلى شروده .. منعه الغناء.. وعندما انتهى جمعة، أسرع الرفاق يقولون:

– كنت النهارده فى أحسن حالاتك . زجاجة بيرة واحدة تفعل كل هذا

– رائع يا جمعة

الكل يمتدح الصوت. شعر صقر بالارتباك.. أحس أن عليه أن يقول شيئا

قال: يا جماعة. صوت جمعة استوى

– كلام صح ، ولازم يا جمعة تروح لملحن أو أى واحد فنان يسمعك

– مدرس الموسيقى المغرور الذى يسكن فى بيت شبل اللبودى

– الاستاذ راضى

– عقدنى . قال لابد أدرس فى المعهد.. فيه دراسة مسائية.

– أنت لم تعد فى حاجة إلى معهد.. أنت جاهز على الإذاعة مباشرة

يحيى اكتفى بهذا القدر.. وجد الفرصة مواتية للانصراف دون أية تعلقات تنطلق وراء ظهره لأى سبب.

أخذ يمشى . استولت عليه الدهشة. كيف أن عضو مجلس الشعب بجلالة قدره وعلو مكانته، عضو المجلس الذى يجلس مع رئيس الجمهورية . عضو المجلس الذى من حقه يحاسب الوزير. عضو المجلس الذى يأمر وينهى. الذى يعمل له الناس ألف حساب. هذا العضو ممكن أن يكون مثله راسب ابتدائية .. لا .. لا مستحيل.

– لابد فيه حاجة غلط.

شرد قليلا ليعاود تقليب الأمر.. وأعجبه رأى يقول: إن هذا الكلام لايمكن أن يكون صحيحا، لسبب بسيط ، هو أن معنى هذا أن جميع أفراد الشعب سيدخلون

مجلس الشعب ، ثم عاد يقول.. لا. لأن الانتخابات كما المنخل، تمنع الكثيرين ولا تسمح إلا بدخول عدد قد الكراسى التى فى المجلس ، والباب لا يدخل منه اثنان معا فى وقت واحد.

كيف لم ينتبه إلى هذه المسألة مع أنه يكثر من قراءة الصحف خاصة منذ تزوج نرجس وأقام فى الفيللا، ويحب دائما أن يعرف أحوال البلد ويحرص على متابعة الجديد فى السياسة ، بالذات فى العالم العربى، لكنه لا يستطيع أن يتصور إن عضو مجلس الشعب، أهم قيادات البلد يمكن أن يكون بلا مؤهل عال.. لا .. مؤهل عال أيضا غير كاف ، لابد أن يكون عالما كبيرا وعقلية جبارة وخبرة وحكمة ودماغ، وحتى لو كان هذا قد حدث فى بداية الثورة منذ أربعين عاما على أنها صورة من صور رد الاعتبار ، واعتذار عن سنين طويلة من الذل والإهانات وكان المتعلمون قلة، فمستحيل أن يبقى الحال على ما هو عليه . مستحيل.

كان يحيى قد ترك أتوبيس مدرسة النديم ، وطلب من نرجس مساعدته على شراء سيارة أجرة جديدة. دفعت له عشرة آلاف جنيه مقدمة والباقى أقساط يسددها مما يكسبه.

بعد أن نفذ فيروس مجلس الشعب فى رأسه وأصاب كبده، وصل داره غير مستعد للحديث فى أى شئ ولا حتى نوع الطعام، وأحاديثه كلها دارت داخل نفسه، ثم تساءل فى دهشة لماذا ينشغل بهذا الأمر، إذا كان المجلس بمؤهل أو بغير ، وماذا يكون على خريطة البشر كى يفكر فى هذا الموضوع؟

رغما عنه أصبح الأمر قضيته، ومحور تفكيره وأسئلته مع من يركبون معه السيارة، فقد ترك الاستماع إلى الأغانى، وظل راديو السيارة على الأخبار والبرامج السياسية بما فيها بعض جلسات مجلس الشعب، وفوجئ عدة مرات بأشخاص ممن يستقلون سيارته يجمعون على أن عضوية مجلس الشعب أفضل استثمار لرأس المال وأسرع وسيلة للإثراء، وهى بالقطع أحسن من الاستيراد والتصدير وتجارة العملة وشركات توظيف الأموال وأعمال السياحة والمقاولات، فضلا عن أنها تفتح كل الأبواب وتسهل كل صعب ، وتحقق الطموح المادى والأدبى.

دخل يحيى بعد ذلك مرحلة جديدة من الاسئلة عن حجم المبلغ المطلوب للحملة الدعائية، هذا إذا كان الشخص يتمتع بمحبة الجماهير وله بينها شهرة وصيت.

تضاربت الأقوال ، فمن قائل أنها مائتى ألف ومن قال أنها ربع مليون، وأكثر الناس قالوا تختلف من شخص لآخر، وكثيرون أكدوا على أهمية انضمامه لحزب ، وللحزب الوطنى بالذات ، لأنه حزب الحكومة الدائم وحزب الرئيس الدائم والحزب المستولى على كل شيء وأعضاؤه هم أصحاب الحق فى التفاهم مع الشرطة وكلامهم على العين والرأس وطلباتهم أوامر .

غالبية الذين سألهم أكدوا على مسألة الدور السياسى والتبرعات المالية والمشاركات الاجتماعية ، وأدهشه أنهم قالوا بمنتهى الثقة:

– ومع ذلك فهى مقامرة ومغامرة غير محسوبة ، مهما حسبت لها

كل المحاذير وضعت أمامه مثل ساحة تبدو بدايتها ولا تلوح نهاياتها، تتكدس على أرضها الصخرية مئات القنافذ والأشواك والثعابين والفئران والعقارب والكلاب والذئاب والنحل والقمل، وعليه أن يمضى بين هذه الكائنات الشرسة ليصل إلى الحلم الكبير.. كرسى العرش والمجد والنعيم والاذائذ.

لم يفهم بالضبط لماذا ظل هذا الفيروس فى عقله؟ لا يترك له فرصة للنوم أو التمتع بالمتاح من الحياة الهنيئة مع الزوجة والأصحاب ، والنهل من المتع السائدة فى متناول أمثاله كالطعام الشهى ومشاهدة السينما والتليفزيون ، وحضور الأفراح والرقص والغوص. فى بحار البهجة التى تطوف أحيانا بحوارى وشوارع مصر القديمة.

تذكر عواد النمس عم على جودة ، كان يعمل فى مديرية الأمن . انتهت مدة خدمته مؤخرا.. حضر عشرات الانتخابات وشارك فيها فى السر والعلن.. يسكن بالدور الأرضى فى أول بيت بحارة شق التعبان. وصديق يس الفار ونديمه فى المقهى .. انتهز مرة فرصة وجوده وحده واستدرجه فى الكلام. قال له وهو يخن بأنفه كعادته:

– نفرض .. مجرد فرض .. أنى أردت دخول مجلس الشعب ، ممكن

– هل لديك شكوى؟ لو عندك شكوى قدمها للصحافة أفضل

- لم تفهمنى
- كلامك واضح
- نفرض .. مجرد فرض، أنى أريد أكون عضوا فى المجلس
- ماذا قلت ؟ لم أسمع
- أنت سمعت ياعم عواد، ومع ذلك سأعيد عليك السؤال.. ما الإجراءات المطلوبة لشخص مثلى، يشبهنى فى حالتى وظروفى لكى يكون عضوا فى مجلس الشعب؟
- أنا كنت أعرف إنك عاقل يا يحيى ،ماذا جرى لك يا بنى ؟
- يا عم عواد.. ريحنى .. كلام ابن عم حديث.. نتسلى.. هيا أجبنى
برم عواد شواربه وقال بعد أن أخذ نفسا عميقا واستعاذ من الشيطان:
- بسيطة
فرح يحيى
- ربنا يبارك فيك يا عم عواد يا نوارة الحتة.. فتحت نفسى الله يفتحها عليك.
- بسيطة .. المطلوب فقط أن تفتح حسابا فى بنك الشعب .
- بنك الشعب ؟! أنا أول مرة أسمع على بنك بهذا الاسم .
- يكون لك رصيد عند الناس.. وأنت طبعا من هذه الناحية .. صفر
- ياسيدى تكلم على المشاع. دعك منى .. ماذا يفعل هذا الشخص ليكون له رصيد فى هذا البنك؟
- يعمل مشروعات خيرية جماعية تستفيد منها الناس ليتحول إلى رجل البر والإحسان، جمعية لرعاية الأيتام.. مستشفى . مدرسة. مسجد. كسوة للفقراء. فتح مضيفة تقدم عشاء ولو مرة كل أسبوع للمساكين وأبناء السبيل والمحتاجين.
بعد حديث عواد سرح يحيى وشاف إن الكرسى المسحور يبعد ، يبعد .. لكنه يراه يزيد نورا وتألقا، ورغم بعده يكبر ويلمع . قال لنفسه:
- كلام عواد واضح وسليم مائة فى المائة.. الحمار لازم يكون فهم.. الحكاية كلها فلوس، وأنا حتى بعد أن دخلت بيت نرجس، لا أملك ألف جنيه على بعضها، وباقى على ديون وديون .. ويا عالم.

(١١)

أبلغتها أمها بالخبر.. اشتعلت فيها النيران. أسرعت تبحث عن نبيل فى البلكونة . فى الشباك. فى الشارع. فى أى مكان.

– لازم يتصرف . لازم يشوف له حل.

سلمان الضب مدير مدرسة فى السعودية يريد أن يعقد عليها وتسافر معه خلال أيام قليلة . أبوها وافق. أمر والدتها أن تخبرها لتستعد . غدا سيحضر الضب ليصحبهما إلى الجواهرجى وإلى محلات الملابس لتشترى ماتشاء.

قاومت رباب الخبر والفكرة والمشروع. قاومت بالصراخ والبكاء والتهديد بالانتحار ، إذا أرغموها على الزواج من شخص فى الستين من عمره وغير مصرى.

– سوف أرحل معه إلى حيث لا أعلم ، وأعيش حياة لا أدرى عنها شيئا، ولا آمن على نفسى فيها، ولا أعرف كيف تبدأ وكيف تنتهى ومع من؟.. وكيف السبيل كى أرى أهلى ويرونى، ويسألوا عنى وأسأل عنهم.. الزواج من عربى معناه إلقاء الفتاة فى جب عميق ضيق مظلم وبلا نوافذ ، ولا يسمح إلا بالطعام فقط وبعض الهواء.

ذكرت أمها بزميلتها وداد التى تزوجت من عامين بنفس الطريقة، ويعانى أهلها الأمرين للتحدث إليها فقط بالتليفون، ويتمنون أن يسمعوها. أن تكتب إليهم. يشاهدوا رسم يدها بالحروف على الورق.. لا شئ من هذا من حقها أو من حقهم.. زوجها كل عدة أشهر يكلف سكرتيره أن يتصل بهم ويطمئنهم ويسألهم إذا كانوا يريدون شيئا.. فترد عليه الأصوات التى تضيعها الدموع والدعوات وطلب الرحمة.

ذكرت أمها بحبها لنبيل وحبه لها، وأنه لن يسكت أبدا، وعليها أن تعثر عليه أولا وتبلغه حتى يتصرف.

طلبت من أمها الانتظار حتى يتقدم نبيل. سألتها أمها عن جدوى الانتظار .. كيف سيتقدم وهو عاطل!، وحتى لو اشتغل ماذا سيكسب فى عمره كله بالمقارنة بما يكسبه الشيخ سلمان فى شهور.

انحنت على يد أبيها تطلب منه أن يرفض ولا يلقى ابنته فى المجهول.. كيف يطاوعه قلبه أن يتخلى عنها! أو على الأقل ينتظر شهرا .. شهرا واحدا فقط..

سحب يده. ارتمت على قدميه. رفعها عن الأرض. واصلت بكاءها . وأخذها فى أحضانه وتنهد ثم قال:

- الزواج سترة يا بنتى

- نبيل يا أبى

- نبيل ابننا . لكنه لم يتقدم

- سيتقدم

- حتى لو تقدم.. ماذا يملك وأنا عندى كوم لحم؟!

- أنا وأخوتى خمسة

- وأخوتك من زوجة أبيك أربعة

- مالى بهم

- أنا الذى أجر كل الحمولة

- أرجوك يا أبى.. انتظر شهرا

- وعدت الرجل .. اتفقنا وانتهينا .

جاء ت أمها .. ربتت على ظهرها تركها إمام.. وخرج

ظهر نبيل وعلم بالخبر من هنية.. كان قادما لتوه من مكتب أستاذه د. شاهر لطفى الذى كان دائما يرعاه ويتوسم فيه الخير أثناء دراسته ، سأله أن يبحث له عن عمل. وعده الدكتور بالبحث، وسوف يبذل مساعيه لولا أنه يدرك حجم التضخم والكساد السائد وتشبع الشركات بالعمالة الأساسية والزائدة.

كان نبيل حتى لحظة واحدة فاتت ضجرا وساخطا . يشعر بالملل والفتور.. الحياة فى نظره دورة سخيفة من فراغ.. ساعات تتوالى ثم تنصب فى أيام .. الشمس تشرق وتغرب فى تشابه مقيت ولا جديد فى حياته، لكن خبر زواج رباب بالضب شاله عاليا وأسقطه على رأسه وظهره فهشم كل شئ، ووضعه تماما فى مواجهة نفسه ويأسه وتعاسته وعجزه.. ثبته بقسوة أمام مرآة الخزى، وحتمية

التفكير فى عمل يكسر كل الحواجز ، ويوفر له الحياة التى تليق به، والتى طال شوقه إليها، لابد من عمل بعد أن تكدست أشكال القهر وسدت كل الطرق والأبواب والنوافذ، وها هى رباب الحسنة الوحيدة فى الحياة.. الوجه الصبوح والأمل المشرق. الوسادة الطرية الوحيدة التى يسند إليها رأسه توشك على الانفلات لتترك رأسه تسقط على الأرض وتتناثر فتاتا تعافه حتى الكلاب.

ذهب إمام سرحان إلى زوجته الثانية.. أصر نبيل على الانتظار حتى يعود . قالت أم رباب أنه سيبيت هناك حسب النظام المتفق عليه.. ولن يأتى إلا بعد عصر اليوم التالى مع سلمان. أخذ العنوان ومضى إلى البيت الثانى.. يقبع فى قلب حارة من داخل حارة متفرعة من شارع بيوت العرب. بيت ضيق جدا ومعتم وتحت الأرض. كله عيال تجرى وتتصادم وتصرخ.

تناقشا طويلا بلا جدوى. كان الأرنب يدور حول نفسه ليهرس ذيله.. وتدور السيارة بسرعة فائقة حول الميدان على أمل أن يرى السائق رقمها على اللوحة الخلفية.

اعترف إمام أنه قبض مهرا خياليا لايحلم به أى أب، كلام نبيل بالنسبة له ممنوع من الصرف والإعراب ، ومحروم من النقاط ومن علامات الترقيم ومن أى ملمح يجعل له معنى ، لكنه يحترم حق الجيرة.

تحدث نبيل بحدة عن الآباء الذين يبيعون لحم بناتهم، وعن الرجال الذين يتزوجون بحثا عن شهواتهم ولايعنيهم ماذا سيكون مصير الذرية من العذاب والهوان.. تحمل إمام قدر استطاعته وهو يشفق على ابن جاره التعس. لم يستطع أن يظل منحنيا يتحمل سوط الإهانة.. يكن حبا لنبيل، ويتمنى أن تكون رباب من نصيبه. لكن العين بصيرة واليد قصيرة.. الحبيب المدله لم يجد عملا . والد البنية يتمزق فى داخله ، منقسما بين حبه لنبيل وظروفه الثقيلة . اضطر أخيرا أن يقول:

– أنت ولدى يا نبيل ولايصح أن يظلم الولد أباه

– حاشا لله .. أنا لا أظلم يا عم إمام

– مادمت لاتعرف الظروف فأنت تحكم علينا من الخارج

- بل أعرفها
- لا . لا تعرفها .. مضطر أن أوضحها لك لأنك تهمنى وخاصة انك ابن عم يس ولا أريدك أن تفهمنى خطأ، لو شخص غيرك ، لم أكن لأعرى نفسى أمامه،
- ماذا هناك يا عم إمام؟
- هل تعرف الخصخصة؟
- نعم
- المصنع الذى أعمل به و هو تابع للدولة، اشتراه رجل أعمال
- اعرف أن الحكومة طلبت ألا يمس العمال
- فعلا ، صاحب العمل الجديد تعهد بألا يطرد عاملا
- فما المشكلة إذن؟
- المشكلة أن مرتباتنا من الأصل كانت ضعيفة.. فأنا مرتبى كان مائة جنيه، لكنى كنت أحصل على خمسمائة، مقابل حوافز وساعات إضافية ومكافآت وغيرها .
- ألم يستمر الحال كما هو؟
- ذهب كل هذا وبقى المرتب، وإذا كان عاجبك

سكت نبيل لحظات حائرا ثم قال:

- والحل؟
- فكر أنت وأنا أنفذ
- يا عم إمام أنا أحب رباب جدا
- وأنا أعلم ، وأنت نفسك غالى جدا عندى.. لذلك تركتك تتكلم، وكان يجب أن أطردك من أول كلمة، لأنها ليست من حقك.. أنت شاب أمامك المستقبل عريض وغدا تعمل وتجد بنت الحلال التى تحبها وتحبك.. سيبها يا بنى تشوف بختها وخلى عندك إيمان وصبر.

طأطأ الشاب رأسه ثم أخذ طريقه خارجا من البيت مختل الخطوات حتى كاد يقع.

بصعوبة تحسس طريقه فى العتمة خلال الممر المفضى إلى باب يسلمه إلى ممر مظلم أكبر قليلا هو الحارة.

كانت الحارة معتمة إلا من أنوار شاحبة تنشع من زجاج ملطخ ببصمات الأيادى .. سار نبيل وهو يحس أن الظلام بلا نهاية. كانت أقدامه ثقيلة ونفسيته فى الحضيض.. طالت به المسافات . وكثرت الحارات.

أخيرا صعد إلى الشوارع الملطخة بالضوضاء. رأى إمام سرحان واقفا فى وسط الشارع. وجهه يشبه وجه المهرج . أنفه يكبر ويكبر وأذناه. وعينيه تضيقان وفمه يتسع. يطول عوده وتكبر بطنه دون كل الأعضاء. ذقنه تتدلى ولسانه يخرج من فمه ويتدلى ويطول ينزل إلى مستوى بطنه ويرتد صاعدا كأنه أستك مطاط، وكأن شخصا يشده إلى إسفل.. ملابسه فضفاضة أكبر كثيرا من مقاسه. كأن عملاقا تنازل له عنها . استدار إمام، فوجئ نبيل بأن ظهره عار تماما . تحرك إمام وعدد كبير من الأولاد يتبعونه ويرمون مؤخرته بقشر البرتقال.

تنهد نبيل وطرد الصورة الغريبة التى تداهمه وتلح على رأسه، وتقلب فى الرجل كما تشاء .. كان المهرج يحاول بكل وسيلة أن يضحك الناس.. خاصة الأولاد.

نبيل وحده يشعر بما يجرى ولا سواه يشعر.. تجمعت حوله كائنات اليأس وأعدت القدر الكبير. أشعلت تحته النار.. انقضت العصيان ذات الرؤوس الكبيرة المكورة الثقيلة تقرع الطبول. ترسم المناخ الملائم لوليمة العشاء.. حمله اثنان وألقياه فى القدر .. الضربات التى تلاحق الطبول تحمس النيران كى تجيد العمل وتنجز المطلوب.. لما نضجت الفريسة أمكن فى يسر تمزيقها إلى «نسائر» مضت الكائنات العجيبة تأكل من لحم نبيل وتتخطفه .

★★★

قرر ألا يعود إلى البيت . سوف تكوب رباب فى البلكونة.. غدا سيأخذها الجزار إلى السلخانة وتنتهى قصة حبهما، وتغادر مصر كلها .. ماذا عليه أن يفعل ليدافع عن حبه ؟ لابد أن يفعل شيئا .. حتى الهرب برباب لايقدر عليه.. لكن تخليه عنها على الأقل ينقذها من الإقدام على الانتحار.. وتساءل : هل حقا ستقدم على الانتحار كما قالت له ؟! حب بدون امكانيات، لاطعم له ولا لون ولا مستقبل. حب

بدون إمكانيات خدعة ، لأن الحب معناه الارتباط الدائم.. والارتباط عقد ونفقة يوقع عليها القلب الذى لا يرضى للحبيب لحظة واحدة من عذاب وندم.

رأى أن يذهب إلى جمعة حيث يجلس الآن مع فرقته فى دكانة موافى العجلاتى، لكنه تذكر أن يحيى صقر كثيرا ما يكون معهم وهو لا يريد أن تلتقى العيون، ثم عاد فقال فى نفسه.

– الماضى راح لحاله، وقد تزوج نكاية فى هنية واحدة ترث على الأقل مليون جنيه

لا ملجأ إلا على. قرر ألا يقول كلمة عما حدث أو سيحدث . لم يعد هناك ما يبكى عليه . وعليه أن يحاول النسيان. الطريق مسدود.

وعندما فتح على الباب قال له : رباب أرسلت أختها تسأل وطلبت أن تذهب إليها فورا.. هيا اذهب.

دفعه نبيل قائلا:

– لن أذهب إلى مكان .. وسّع .. وسّع

دخل وسب جميع من يعيشون على الأرض... ففهم على. دخل دورة المياه ولما خرج . سأل على:

هل بلغتك الأخبار؟.. لم يرد عليه، أعاد سؤاله.. ورفع صوته . لم يرد عليه ، بحث عنه ولم يجده ، جلس وهو يقول:

– عملت طيب. تزوجها أنت . حلال عليك

بعد لحظات عاد على يحمل خبزا وزجاجتى بيرة ودخل المطبخ . انحنى نبيل وفك رباط الحذاء وخلع الشراب وتمدد على الكنبة..

عاد على بالعشاء الخفيف ، وضعه وهو يقول :

– أخت رباب قالت إنها راحت تنادى عمها رجب شقيق إمام الأصغر كى يحاول إيقاف زيجة عريس الغفلة

قال نبيل مقطبا : أرجوك يا على، أقفل على الحكاية أو اذهب

– بس . بس .. المسألة لا تستحق كل هذا الغضب

- تستحق أو لا وتستحق.. دعنا منها

- موافق ، لكن الموضوع محتاج كلام

أكلا وشرعا يحتسيان البيرة، قال نبيل:

- سألت عليك عم ملاك فقال إنك نادرا ما تذهب إليه هذه الأيام، وأحيانا تقعد معه دقائق.

كما أنى جئت لك مرتين هذا الأسبوع فلم أجدك.. أنت طول عمرك نظامك كما الساعة ماذا جرى؟ ماذا جد؟

هرب على من السؤال وفتح سيرة رباب . تحول كل ما أكله نبيل إلى سخط وعاد يسب العالم والآباء والحب أيضا.

- أباء ضعفاء بدون شخصية . حياة صعبة ومعقدة.. خيوط متداخلة وملتفة على بعضها بطريقة شيطانية لا تعرف لها بداية من نهاية، ولاتعرف لها طرقا مستقيمة.. ظروفنا ونظام معيشتنا مثل حوارينا الحلزونية الملفوفة الطويلة الضيقة المظلمة المليئة بالحفر والمطبات وبالكلاب والعرس والعيال وبحيرات المياه.

قل يا على.. هل خلقنا الله كى يعذبنا

على: خلقنا كى نعرف ونفهم

- سنوات طويلة مرت لانعرف ولا نفهم

- لا .. عرف الناس الكثير وفهموا أكثر

- والنتيجة؟

- مزيد من الفهم والاكتشاف

- أى اكتشاف؟.. البيرة أثرت عليك بدرى

- اكتشاف أسرار.. النفس والكون المحيط

- مازال السؤال هو: ما النتيجة؟

- العبرة ليست بالنتائج.. الوسائل نفسها لذة ومتعة ومجد

- لذة .. أين هى اللذة والمجد؟

- الاكتشافات .. مناقشة الثوابت . خرق الأسوار . القفز فوق الحواجز . لا تتحدث عن نفسك ، تحدث عن عمر الحياة والأحياء.

– النتيجة أن الثوابت تقع على رؤوسنا، القفز فوق الحواجز يكسر عظامنا

– كى نحاول من جديد ونتقن العمل ونحفر للعزيمة والإرادة فى العمق

– الطمع لايترك الفرصة لعمل شئ مضبوط

– أحيانا كثيرة يستخدم الإنسان عقله لتحويل الأمور عن مسارها الصحيح إلى منهج يخدم أغراضه.

– الحل؟

– الحل معروف من زمان ، والإنسان يتجاهله ويتهرب منه

– وهو

– الدين والفن .. معلما البشرية، الأول خلقه الله والثانى خلقه الانسان

– سيبنا من الأول . أمره مفهوم.

– الفن . أحد اكتشافات الإنسان الرائعة لإنقاذ روحه من الضياع ومن الفناء

– الفن وحده يعمل كل هذا الكلام الكبير

– وأكثر

– تبالغ

– طالما لايهتم الفنان بإثارة الغرائز، فهو قادر على تحريك الحب والطموح وقيادة الإنسان بأسلوب ناعم وجميل ، ليعبر الأوحال والمستنقعات والظلام نحو حدائق السعادة والحلم ، والرضا عن العالم والصبر على الناس، وترك مساحة لهم يمارسون فيها أطماعهم وقسوة قلوبهم، وكلما زاد من يحبون الفن زاد المتسامحون، وقل القساة وزاد المتصلون بالروح وقل عباد المادة وزادت الأنوار وتوارت الظلمات.. اتسعت المساحات واختفت الأسوار .

– أى فن؟

– أى فن .. المسرح . السينما . القصة . الشعر.. الفن هو الغذاء الحقيقى للبشر . هو العلاج . سلم نفسك له. كلما اقتربنا منه . اقتربنا من الحب وتعلمناه فى أرقى صوره. وكلما ابتعدنا عن الفن كلما هبطنا وتولانا الطمع وتبادلنا الكراهية.

- أفضل الفنون

- كلها مرايا تساعدك أن ترى نفسك وترى ما هو جوهرى فى الحياة.. أن ترتفع على الصراعات المادية التافهة.

- لاحياة خارج هذه الصراعات أو بدونها.. أنت تعمل وتقبض ، ولو أنا عندى ما عندك لا توجد مشكلة.

- أصبر ولا تتوتر. لا تجعل الزمن يرعبك. أقرأ وأهدأ واستعد كى تستقبل الثمار. فهى رغم أنفك ستأتيك!

- إقرأ!

- إقرأ .. ليس فعل أمر .. القراءة وطن .. القراءة ليست فقط فى الكتب .. القراءة هى احتواء العالم بالمعرفة وهذا هو معناها فى القرآن.

- أنت مزاجك عالى وأنا لست فى حالة تسمح بمجاراتك . سلام.

قرر على أن يساهم فى حل مشكلة صديقه الذى يتأزم كل يوم أكثر.. عزم أن يتقدم بطلب إلى رئيسه فى دعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء لتعيين نبيل.. من غير المعقول تركه بهذه الحالة.. لم يبق له إلا أن يقتل أحدا. وفى الغالب نفسه.

- لن أدهش إذا بلغنى هذا الخبر بداية من هذه اللحظة..

كم يا ترى فى مصر مثله؟.. لابد أن هناك مليونى عاطل، وهذا يعنى مليونى قنبلة موقوته جاهزة للانفجار فى أى وقت.

للأسف.. رفضت صحف الأهرام والأخبار والجمهورية نشر مقالى عن هذا الموضوع.. ولما حاولت التحدث عنه مع الوزير المختص فى معرض الكتاب قطعوا الكهرباء ومنعونى من الكلام ومن يومها قاطعت المعرض.

(١٢)

الفيروس يعمل بقوة فى رأس يحيى والهدف الكبير لا يفارق فكره .. يروح به ويجىء بالنهار ويحلم به عندما ينام . تحركه رغبة دفينة وعميقة كى تكون له حيثية فى المجتمع . لقد رفضته ثلاثة أسر ، زوجة أبيه التى شردته ولم تمكنه من الحصول على الشهادة الابتدائية .. ها هم أخوته غير الأشقاء يحصلون على المؤهلات العالية واحدا فى أثر واحد ، وكلما حاول التقرب منهم ، تهربوا وتعللوا وكأنهم جميعا متفقون على التبرؤ منه ، خاصة بعد رحيل الوالد ، الله يسامحه ..

لم يكن له من بيت يلجأ إليه إلا بيت خاله ، وهو على قد حاله ، لكنه وزوجته الطيبة الحنون رحبا به ، وهى بالذات كانت تحرص على تسليمه نصيبه من اللحم قبل أولادها ، وترجوه وتلح عليه أن يأكل المزيد ، وتكثر من سؤاله إذا كان يريد شيئا ، وتطل عليه إذا نام ، وتحكم الغطاء حول بدنه الذى كان هزيلا . ثم أقام فترة مع أخته الشقيقة المطلقة وقد تزوجت وسافرت إلى طور سيناء . نماذج غريبة من البشر التقاها فى مسيرته وهو يبدو وحيدا .. كان هناك دائما أحباب . أما موقف أخوته فيحز فى نفسه بشدة ، هو لهم الأخ الأكبر ، كان عليهم أن يلجأوا إليه . يسألوا عنه ، يرحبوا به ويخففوا عنه بعض وحدته ومعاناته .. ألم تكن صلة الرحم قادرة على أن توحى لهم بالرحمة . وهل هو إلى هذه الدرجة حيوان أجرب ، يمكن أن يمسهم منه عدوى ، أو مجرم يمكن أن يلحق بهم العار والفضيحة .

قبل أسبوع ركن السيارة الأجرة على جنب ، وأسند رأسه على عجلة القيادة وفوجىء بدموعه تنهمر وجسده يرتعد ويرتج من شدة الانفعال ، لأن أخاه المحامى أشار لسيارة أجرة ، ولما وقف له ، قال له :

– اتفضل يا متر

قال المحامى : محكمة شمال القاهرة يا اسطى

ثم تنبه إلى أن السائق عرف أنه محامى ، فسأل :

– أنت تعرفنى يا أسطى

– عز المعرفة

– كانت لك قضية عندى ؟

– عندكم كلكم

– عندنا كلنا !

– أنت وأخواتك

– متأسف .. فهمنى

– ألا تعرفنى ؟

وجه المحامى نظراته إلى مرآة السائق بلا مبالاة ، ثم قال :

– لا أعرفك

أوقف يحيى السيارة وتحول إلى أخيه ، وقال :

– لا تعرف هذه الهيئة .. لم ترها من قبل

قال المحامى بلا اهتمام :

– أنت .. يحيى

اندفع بالسيارة وهو يقول :– هل تذكرت شكلى ؟

– افتكرت أنى شفتك من كذا سنة ، فى وفاة الوالد

– الله يرحمه ، وكيف حال إخوتك

– الحمد لله

– أظن أنا أخوكم الكبير

– أعذرنا .. مشاغل

– عاذركم

ساد صمت ، وبعد لحظات قال المحامى :

– هنا .. اتفضل

زعر يحيى ، لما رأى المحامى يقدم له خمسة جنيهات .. نظر إليه معاتبا

– ترضاها ؟

– حقك

- ترضاها يعنى ؟
- طبعا .. سلام
سحب المحامى الحقيبة البنى الجلدية وغادر العربة ، وأسقط ورقة البنكنوت إلى جوار السائق . أسرع يصعد درجات المبنى الكبير ، ويتابعه يحيى بنظراته وروحه الناقمة .. نظراته تصعد مع حذائه الذهبى اللامع وهو يدوس درجات السلم الرخامية فى ثقة وكبرياء ، فوقها البنطلون الطويل البنى الفاتح ، فوقه الجاكت التويد فى لون القهوة وتظهر من فوقه ياقة القميص الأصفر ، وقفا يتدرج عليه شعر أسود ثقيل .

ولما غاب الفتى رشيق العود الذى نفذ فى المبنى الضخم كالرمح ، شعر يحيى بالبرودة المفاجئة ، وأحس أن كل الأشياء كبيرة وهو ضئيل .. وهى تواصل تضخمها ، وهو يمعن فى ضآلته .. حتى السيارة التى يجلس بداخلها تصغر وتصغر .

لمح الجنيهات الخمسة تجلس بجانبه ، يعلم أنها أكثر من حقه عن المسافة التى قطعها .. رأسها برأسه .. تنظر إليه بطرف عينها .. تتحرك وترقص وتتلوى و تنبسط وتنقبض غير عابئة به . مصرة على احتقاره ، عندئذ أسند رأسه على عجلة القيادة وغلبه الأسى فأنشأ يبكى .

تناهى إلى سمعه نقر على الزجاج . رفع رأسه . رأى بجانب عينه سيدة بادية الأناقة تقول له :
- الزمالك .
أشار لها كى تركب ومضى يجفف دموعه ، ويعيد تنظيم نفسه ، انطلق إلى حيث أرادت ، وهو يفكر فى شىء واحد .. واحد فقط .

هل يمكن أن يكون يوما فى موقع يسمح له أن يعطى أخاه المحامى أجره وتكون يده هى العليا .. كلما طرد الفكرة لينتبه إلى غيرها ، كأن يتذكر ماذا طلبت منه نرجس . ينسى ويفكر فى المحامى وجنيهاته الخمسة ، وهذا البرود الذى لا يصدر حتى عن غريب .

مد يده وبسط كل أصابعه وقبض على الورقة أم خمسة ، وضغط عليها . فعصها . هرسها . وتأكد أنها ماتت تماما فى راحته . فكر أن يقذف بها إلى أرض الشارع ، أو يتوقف ويلقيها بنفسه فى صندوق القمامة ، لكنه تراجع وقرر أن يدفنها فى جيبه وهو يقول :

- انتظرى هنا .. فى يوم قريب

ستعودين إليه .

(١٣)

لما لم تأت فى موعدها ذهب إلى بيتها متعللا بزيارة والدها . فتح له صبى فى العاشرة . وجد أمامه بركات السكرى يجلس على الكنبة فى صدر الصالة . فرح وتهلل . هنأه بالسلامة .

- الحمد لله على كل حال .

- إن شاء الله تخرج وترجع شغلك

- مادام نروح الحمام يبقى خير وبركة

ظهرت ناهد فى جلباب البيت وشعرها الأسود يتهدل على كتفيها ، ولولا شريط أخضر يمسكه من منابته لأغرق الوجه والصدر . بدت جميلة فى عينيه ، وهى تضع على صدرها فوطة المطبخ ، وتحمل عليها تورتة .

- أهلا يا عم يس

- أهلا بست العرائس

- تعالى يا سمير .. سلم على عمك يس

دخل شاب فى سن المراهقة . طويل ونحيل . حبوب متناثرة على صفحة وجهه . رحب بالضيف ، قالت ناهد :

- بارك لسمير

- ألف مبروك

- فاز بجائزة أحسن رسم على كل مدارس الجمهورية

قال بركات :

- أصرت ناهد أن تعمل له التورتة بيديها احتفالا بأجمل أيامنا منذ ماتت المرحومة .

أضافت ناهد : الوزير قرر له مكافأة ألف جنيه

- شىء عظيم

تهلل وجه بركات وهو يقول : لذلك وافقت أن يدخل الجامعة بعد أن كنت أبحث له عن عمل

علق يس : جاءت الجائزة فى الوقت المناسب .

- ربنا عالم

التفت عم يس الى سمير وسأله : هل كنت دائما تحب الرسم ؟

قال سمير : من صغرى وأنا أشطر ولد فى الرسم .. الأستاذ نفسه كان منبهرا ويشجعنى .. إذا فتح الكراسة تتغير ملامحه من الفزع للفرح والابتسام ... وفى الآخر يقول : الله عليك يا سمير .. ولد فنان صحيح .. مستقبلك بإذن الله مضمون .

لما كان يطلب منا رسم عروسة المولد أرسم له عروسة بجناحين ، تحلق فى السماء ، وقلوب كثيرة ترفرف حولها ، طلب مرة نرسم منظر عن الكتاب رسمت له قلم يجر وراءه سيارات ومصانع ومزارع وأعلام ، وبمناسبة ذكرى حرب أكتوبر ، طلب نرسم جنودنا فى الحرب .. رسمت له ديوك راكبة مدافع وطائرات .. أمامها أرض صفراء وفيها نقط من الدم ووراءها الأرض خضراء .. شافها الناظر أصر أن يعرضها فى مكتبه . شافها وكيل الوزارة طلبها كى تعلق فى مكتبه .

قال يس : الحمد لله إن الوزير لم يرها

ضحك الجميع وعاد يس يسأل سمير :

- نفسك تدخل أى كلية ؟

- نفسى أدخل كلية الزراعة واستلم أرض فى الصحراء . أستصلحها وأعيش جنبها وارسم .

- شيء حلو خالص

سكت لحظة ثم استطرد :

- نفسى يا أخى يا بركات تشاركونى فرحتى الكبيرة . المحكمة على وشك أن تحكم فى القضية

- أية قضية ؟

- أنت نسيت .. قضية الأرض التى أخذها أخى . نصيبى فى الميراث .. أرض ثمنها مليون جنيه . خلال أسبوعين ثلاثة ترجع لى .. المحامى متأكد من الحكم ، وبعدها يصدر قرار التمكين .

- مليون جنيه ! .. مبلغ ينقلك نقلة كبيرة يا يس

- والحبايب ينوبهم نايب

طوال الحديث لم تكن عيناه تفارق ناهد . يتصورها وهى تجلس هكذا فى بيته. هما معا ولا أحد سواهما .. ها هى الآن تقطع تورتة حبهما ، وها هى تضع برشاقة قطعتين فى طبق وتقدمه له ..

- تفضل ياعم يس

لا تزال هذه هى المشكلة .. عم يس .. عندما يلتقيان خارج البيت سيطلب إليها أن تكف عن هذه الكلمة

تنهد وسرح

- يا سلام على الحب .. لما أشوفها قلبى يرقص .. حياتى كلها ترقص .. لا .. الدنيا كلها ترقص.

ذاق قطعة ثم قال :

الله شىء حلو خالص تسليم يدك يا ست العرائس

ابتلع الحلوى ثم قال :

- إن شاء الله يا بركات ، لما اكسب القضية وترتد لى الأرض . ثمنها مليون جنيه كما تعلم .. ساعتها . ناهد هى التى ستصنع التورتة . أحسن من أكبر محل حلويات .

وأحب أن يستدرجها ، فقال :

- مستعدة يا ست البنات

ردت على استحياء :

- ربنا يسعدك يا عم يس

كان بركات يضحك كثيرا ، وكذلك ناهد والأولاد . حالة متأججة من البهجة تشمل المكان وأهله .. حالة نادرة من السعادة والفرح وخلو البال والرضا عن النفس وعن الدنيا .. فرح بسيط وطيب وعلى قد حاله .

كانت أكبر الضحكات التى قهقه لها يسن كثيرا ، وربما لعشرات السنين لم يذق حلاوتها ، عندما فاجأه بركات قائلا :

- لكن قل لى يا يس ، ما هى الحكاية ؟

- أية حكاية ؟

- أنت رجعت إلى الوراء عشرين سنة . كيف أصبحت هكذا فى عز الشباب ؟

كان هذا هو المراد من رب العباد .. لم يكن يس يطمع من الدنيا فى أكثر من هذه العبارة .. كانت الجسر الذى عبر عليه من الضياع والحيرة والشك فى شكله وإمكانات شخصيته ، وهذه هى الشهادة الكبرى من المسئول الأول عن المشروع . أجمل مشروعات الكون . لقد حصل على أول تصريح رسمى عالمى من الجهة المختصة بأنه مؤهل وصالح لأن يتقدم ، وراية الأمل فى المليون جنيه ترفرف بين الحين والحين على كل النوافذ والأبواب .

رقص القلب ورقصت الروح واقشعر البدن ، ونبتت أجنحة فى الجبين وتأهب الجسد المشبوب المعجون بالهناء للطيران .

- ما هذا الذى يجرى فى الدنيا ؟ .. ما رأيك يا ست العرائس . لم تعد هناك مشكلة .

كانت ناهد قد ابتسمت وعادت تنظر إلى يس لتتأكد أنه فعلا كما قال أبوها .. عندئذ تضاعفت سعادة ذى الجناحين ، وتقافز فى كرسيه واستعد لاحتضان العالم .

قامت ناهد واتجهت إلى المطبخ . تصور يس أنها تسير فى خطوات راقصة وأن أباها الرائع دون أن يقصد رمى رمية صائبة فى حلق المرمى ، فهزته بقوة أسعدت كل سكان الأرض .

تنهد بعمق وارتعد من السعادة التى انغمر فيها ، وعزم على أن يعالج صديق عمره بركات على نفقته حتى فى الخارج ، وبعدها يحجز له كى يحج إلى بيت الله الحرام إذا كسب القضية .

لقد مرت عشرون سنة وها هى الثمرة توشك على السقوط فى يديه .. أراد أن يقول لكل إنسان

- لا تقنط من رحمة الله ولا تفقد الأمل .

(١٤)

لم تستطع أم رباب أن تتجاهل خبرة جندية أم هنية .. الكل يعلم أنها بلانة ماهرة .. تنظف أجساد البنات والنساء .. وتجعل أخشن جلد أنعم من الحرير والقطيفة .. نساء الحى جميعهن مررن عليها ، أو مرت بيدها على لحومهن .. ومن خارج الحى جاء إليها من بلغه صيتها وشطارتها ، وقد تعودت أن تتفنن فى عملها وتبتكر الأدوات والمواد التى تستخدمها فى نزع الشعر من جذوره ، وحيثما كان موضعه ، ولذلك فهى لا تتعجل الانتهاء من أى بنت أو سيدة مهما كان العدد ، فالعائلة التى تستعد لزواج ابنتها ، تدعو أم هنية لتنظف العروس، وأم العروس وأخوات العروس وربما صديقاتها المقربات ، وعمل أم هنية لا يتوقف تقريبا ، فكل يوم تدعوها النسوة لتنفيذ عمليات التجميل . تنظف الواحدة منهن من ساسها لراسها ، لا تترك سنتمترا واحدا دون أن تمر عليه ، وتتلمسه وتتحسسه برهافة وتتيح الفرصة كاملة لأطراف أطراف أناملها كى تقرأ صفحة الجلد ، ولا تسامح نفسها أبدا إذا اكتشفت أى منهن موضعا فى جسدها أهملته البلانة ..

تمضى فى تقليب البضاعة وفحصها جزءا جزءا وعضوا عضوا ، وتتكفىء على وجهها لتمتد يداها وترسل نظراتها المترفقة إلى الفرجين الأمامى والخلفى وما بينهما ، وإلى الظهر والقفا وأصابع اليدين والقدمين والإبطين ، وتحك الكعبين ، أما الوجه فله اهتمام خاص وتفرغ ودربة لأن الأصل فى شغله النمنمة .

تساءلت أم رباب وهى حائرة عمن [illegible] ابنتها التى خطفها سلمان الضب ، كيف تدعو أم هنية وهى التى كسرت قلب ابنها نبيل ! وإن لم تكن هى التى فعلت بل زوجها إمام .. وما الفارق ، الجهة واحدة ، صحيح هناك كوافيرات ومراكز تجميل يمكن أن يتحمل سلمان التكلفة ، لكنها لا تتصور أن الكوافيرات وهن شابات صغيرات يفقن أم هنية .

لم تلبث أن حسمت المسألة ، وقد رجحت اللجوء إلى أم هنية ، واستقرت على الإجابة التى تدعم موقفها .. أولا الجار أولى بالشفعة ، فلا يصح أن ألجأ إلى

الغريب إلا بعد أخذ رأى القريب ، وثانيا من الذى ينافس بلانة الحى الوحيدة فى شطارتها ولو جلس فى التكييف والزجاج الفيميه واستخدم الآلات الحديثة والألفاظ الأجنبية .

عندما أبلغت ابنتها بذلك رفضت ، وبعد جدال طويل قالت بضيق : اعملى ما تشائين .. أنا لا أرى مبررا لذلك كله .

فأكدت الأم : لازم يا ابنتى .. لازم تروحى لزوجك على سنجة عشرة .

ردت رباب بقرف : إذا كان زوجى

قالت الأم : زوجك بشرع الله

واستطردت بحدة : لا وقت للتراجع . ويكفى ما فعلت ، جهزى نفسك للدنيا الجديدة أحسن لك .

جاءت أم هنية ، وبكت رباب بين يديها .. طيبت خاطرها البلانة وأتقنت وأبدعت .. حضر سلمان وحط فى يدها خمسين جنيها .. رقص قلبها وزغردت للعروس زغرودة طويلة .. فجرت الابتسامة على شفتى العروس رغما عنها .. زغرودة موسيقية تلألأت فى مدخل الشقة الضيقة البسيطة ، وبنت سرادقاً كبيرا ملوناً من الفرح الذى لم يكن قد بدأ بعد برغم كتب الكتاب .

أخرج سلمان عشرين جنيها ومد بها يده إليها فشكرته ودعت لهما بالسعادة ، انشرح صدرها لما شاهدت حال أفراد الأسرة جميعاً وهم يبتسمون ويفرحون .. وأقرت بينها وبين نفسها أن سلمان رجل طيب بصرف النظر عن فلوسه .. ملامحه بسيطة وهادىء الطبع فيما يبدو ، لكنه كبير فى السن ..

لما نزلت السلالم درجة ، درجة ، تذكرت شباب رباب وحلاوتها ، وفرت دمعة من عينيها ، وتحسست جيداً الموضع الذى يحتضن الجنيهات ..

كانت أمواج كثيرة تتلاطم ، ومشاعر متناقضة تتخبط وتتدافع فى نفس بسيطة ، لكنها تدرك بشكل ضبابى طبع الحياة ..

توقفت قبل أن تخرج إلى الشارع كى تضع العشرين فى صدرها والخمسين فى مكان سرى ، تعودت أن تدس فيه المبالغ التى لا يصح الكشف عنها .

قابلها نبيل على باب الشقة وتشاجر معها لا لأنها جهزت رباب للعريس العجوز الذى اختطفها منه .

– غضبى لأنك زغردت بسعادة دون اعتبار لمشاعر ابنك ، لا أحد فى الدنيا يفعل ما فعلتيه ، ولا توجد أم يطاوعها قلبها لتساهم فى فرح خصم ابنها ..

أيدته هنية وألقت على أمها بعضاً من غضبها ..

قالت الأم : لا تحزن يا نبيل .. الزواج قسمة ونصيب .

صرخ فيها قائلا : قسمة ونصيب نعم ، لكن نزغرد ونهلل ونرقص ..مالنا ومالهم ..

حاولت أن تطيب خاطره ...قالت بضعف وهى تمد يديها إلى صدرها :

– أعطونى عشرين جنيها .. خد لك عشرة وأنا عشرة .

خطف الورقة وألقاها بقوة ساخطة فى الصالة .. وأسرع يهبط الدرجات .. كاد يبكى من الحنق والغيظ ، احتقر العالم كله وبصق عليه .. التقط أنفاسه بصعوبة .. صدره مغلق والدنيا كلها كذلك .. جوفه بركان ثائر .. كانت هنية قد أعطته خمسة جنيهات ليشترى لها بعض المطالب .. اتجه مباشرة إلى كورنيش النيل .. دخل مقهى الرشيدى .. هنأه بخروجه من قضية المخدرات كما تخرج الشعرة من العجين .. طلب زجاجة بيرة شربها على مرتين ، طلب زجاجة أخرى .. أخيرا بدأ يشعر ببعض التوازن النفسى .. تنفس بعمق وابتسم ، نهض واقترب من الرشيدى يسأله عن أخبار الخمسة والأربعين يوما التى قضاها رهن التحقيق، والرشيدى يحكى عن أعماله وأقواله التى كان يلقيها بجرأة فى وجوه الضباط ووكلاء النيابة ، مؤكدا أنه لا يهمه من أحد إلا من ربنا .

يقول له نبيل : وربنا أنت جدع .. لكن هل صحيح أنت تخاف من ربنا ؟

يرفع الرشيدى صوته : أنا يا بو النبل مسلم وموحد بالله .

يعلق نبيل : موحد بالله آه .. لكن الصنف على العين والرأس .

يسرع الرشيدى قائلا : زجاجتان فقط طيروا مخك .. انكتم يا مجنون أنا تحت المراقبة .

قام من جنبه واختفى .. بعد لحظات ، استشعر نبيل حاجته إلى زجاجة ثالثة، لكنه تنبه أن الحساب لن يسمح فألقى الخمسة وخرج ..

عندما اقترب من فيلا البارودى قابل كاملة خادمة الدكتور شاهر لطفى أستاذه فى الجامعة ، كانت الدموع فى عينيها ، وتمسك فى يدها «بؤجة» .. سألها ، شكت له من سوء معاملة زوجة د . شاهر .. حذرها من العودة إلى البلد فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، دعاها إلى أن تبيت عندهم حتى الصباح .

فكر فى الطريق بأنها ربما لا تجد مكانا مناسبا فى بيتهم ، فمضى بها إلى على جودة ، وحكى له حكايتها ، سمح لها على بالمبيت فى الغرفة الداخلية وينام هو ونبيل فى الغرفة المطلة على الحارة .

ظل نبيل ساهرا إلى أن نام على ، ثم تسلل بالليل إليها .. وجد الباب مغلقا .. همس مناديا .. عالج المقبض .. فتحت له فاجأها وحاول عناقها .. طلعت عليه سخونة جسمها البض .. رفضت واعتذر لها حتى لا تخرج فى عز الليل .. جلست على السرير وجلس إلى جوارها يتحدث معها ثم هجم عليها محاولا مرة أخرى .. نفضته من فوقها وسحبت «البؤجة» ورفعت رأسها وهى تمضى بإصرار نحو الباب .. استيقظ على وعرف ما جرى .. وحاول مخلصا أن يستبقيها وأقسم لها أن ينام على باب حجرتها وهى تغلقها من الداخل بالترباس .. أبدا .. قالت أنها ستخرج حتى لو تطلب ذلك أن تعمل لهم فضيحة وتفقع مائة صوت .. وتصحى كل الناس الذين يقيمون فى الحى ، اعترفت بأنها أخطأت لما وثقت بشخص تظن أنها كانت تعرفه وشعرت بالأمان معه ، وحسبت أنه رجل ..

جلس نبيل بعض الوقت على الكنبة فى الصالة يلوم نفسه لا لأنه اقترب منها ، ولكن لأنه تسرع ولم يعد الخطة بشكل جيد ، وكلما عاتبه على قال له : لا تصدق هذه الحركات .. أنا أعرف هذا النوع .. المسألة كانت تحتاج إلى ترتيب أكثر ..

تركه على بعد أن قال له : نبيل هذه أول وآخر مرة يحدث هذا فى بيتى .. هذه الأمور ستهدد صداقتنا .. غضب نبيل وعاد إلى بيته .

(١٥)

«الابتسامة التى تطلقها على الناس ترجع إليك مرة أخرى» . كلمات كتبها ملاك ، توقف بعض الناس كعادتهم يقرءونها وبعض البعض يتأمل والبعض يناقش .. أكد الجميع لصاحب الحكمة أن القراء فى الحى قلة ، والمستفيدين منها أقل ، والأفضل أن تجد فرصتها فى مكان أكبر .. سوق مثلا أو ميدان أو أى بقعة يكون فيها تجمع بشرى كبير .

تأمل ملاك الفكرة وأدارها فى رأسه عدة أيام .. رضى عنها وقرر أن يطبع عند صديقه الحاج سلامة ألف ورقة لا تزيد عن حجم الكف . يوزعها كما قالوا فى منطقة عبور كثيفة أو ميدان رئيسى ، وليكن ذلك يوم أجازته ، يخرج من الكنيسة ومعه الأوراق فى حقيبة يده الصغيرة السوداء ، ويناولها لأصحاب النصيب ، لعلها تلاقى قلبا حائرا أو نفسا ضائعة أو لعلها تكبح جماح إرادة عزمت على الشر ..

دعا ملاك ربه أن يعينه وأن يلهم الناس أن تقرأها بتمعن ، وأن تنصت إلى معانيها بقلوبها .. فغير مستبعد أن يكون لها ولو لدى شخص واحد بعض الأثر . ساعتها ستكون الدنيا أجمل .. قال فى نفسه :

- إن امتناع شخص واحد فقط عما كان يتوجه إليه أو يبيته من الأذى كفيل بأن يشيع الفرح فى الآلاف .

فى آخر لحظة تنبه إلى أن مريم ، لن ترض بذلك وسوف تشعلها نار لا تخمد أبدا إلا بهدم المعبد ، والمعبد لا ينقصه إلا القليل لينهدم . قرر أن يؤجل الموضوع كله حتى يقع على وسيلة هادئة لا تستفزها .

لما انتقلت مريم للإقامة فى مستشفى الأمراض العقلية ، وبعد انقضاء حزنه عليها نسبيا، وخمود نار غضبه لما آلت إليه حالها ، والوضع الذى أصبح عليه بيته رأى أن الوقت أصبح مناسبا لينفذ مشروعه الذى يحلم به .. أن يوزع الحكمة فى الشوارع . لكنه فى آخر لحظة أيضا تذكر ولده مجيد ، فهو أكثر تعصبا للمظهر

من أمه، وسوف يكون أكثر ثورة . ولما سأل على جودة كان له نفس الرأى .. ومع ذلك فقد كان ضغط مشروعه ثقيلا ورايات حلمه ترفرف وتلوح له فى كل وقت وتدعوه ألا يخشى شيئا . فمضى يقنع نفسه : كل عمل عظيم ، كان فى بدايته موضع اختلاف واعتراض المحيطين ، لكن أصحاب الأفكار الملهمة المشبعين بها صموا آذانهم ضد محاولات التثبيط وإطفاء أنوار الأمل ، وانطلقوا بأفكارهم يدفعون من أجل أن تظهر وتحيا وتنتشر ليلهم ونهارهم وأموالهم ، بل وأحيانا أرواحهم ، وليست الخطوات التى قطعتها الحياة على طريق التقدم إلا كفاحا ضد الإحباط ، وانتزاعا للأمل من وحل العادة والخمول واليأس .

عندما انتقلت مريم إلى المستشفى كان مجيد بالسنة الثانية بكلية الفنون . تجاسر الأب على أن يشرك ولده فى تصميم الحكمة واختيار نوع الخط وحجم الورقة ، وقبل أن يكمل ملاك كلماته كان مجيد يصيح معلنا غضبه ، وحاول ملاك بهدوء أن ينقل إليه أهدافه ومشاعره وأمله فى أن يكون شخصا مفيدا على قد جهده ، إلا أن مجيد أنهى النقاش قائلا :

– لو كان الأنبياء والرسل الذين أرسلوا لهداية البشر طوال حقب الزمان بما فيهم يسوع .. تجمعوا وهبطوا معا على أرض مصر من جديد وانتشروا فى كل محافظاتها ، لما صلح حال الناس .. خليك أحسن فى حالك ، ويكفيك أن ترعى ماجدة ، فهذه رسالتك .

بعد سفر مجيد إلى باريس . شعر ملاك أن الرب يقف إلى جواره وخامره احساس أنه دبر سفره كى تتاح له الفرصة لينشر حكمته ..

– ما أجمل أن نتأمل أفعال الرب ونقرأ كلماته التى يكتبها بمصائر البشر . فما يجرى للناس هى كتابة ربانية ، وعلينا أن نحاول فك الطلاسم والوصول إلى أسرارها .. فى كل موقف سر ، ووراء كل سلوك غاية وهدف .

انطلق ملاك يؤلف حكمه ويفكر طويلا فى صياغتها بحيث لا تكون طويلة أو مملة . وإنما الأفضل أن تكون مكثفة ومحبوكة وقوية ، فى الوقت ذاته بسيطة ..

«أفضل من الذى يسن القوانين ، من يعلمنى كيف أغنى» .
«كن كالغصن الرطب ، تميل مع الرياح ولا تنكسر فى العاصفة» .
«نام عميقا من لا يملك ما يخاف على فقدانه»
«العربة الفارغة أكثر ضجة وصخبا من العربة الممتلئة».
«إذا زرعت غصنا أخضر فى قلبك ، فسوف يقف عليه بلبل أو كروان» .

كلما كتب واحدة فاقت سابقتها ، وأعجبت المستشار الأول ، وأعجبت الناس . أصبح ملاك ذا شهرة بحكمه ، ووصل الاهتمام بها إلى الصحف ، فنشرت بعضها تحت عنوان أسود عريض «حكمة ملاك» .

شجعه هذا على أن يتفاعل ويشعر بأن الحياة جديرة بأن نحياها ، لأن هناك من يقدر ويستجيب . انشغل بالقراءة وصرف وقتا أكثر لتأليف الحكم وإعادة صياغتها وتقليبها فى رأسه وعلى لسانه .. محاولا إضافة مسحة موسيقية مع قليل من السجع المناسب والطبيعى دون اضطرار أو تكلف .. وأخذ ينتظر قدوم يوم الأحد بفارغ الصبر ، حتى ضاق بهذا الانتظار الذى يشعر أنه ليس أسبوعا ولكنه شهر ويزيد ، وهذا ما دفعه إلى أن يقوم بتوزيع حكمته يومين فى الأسبوع ، ثم أصبحت ثلاثة .

زاد عدد زواره وزاد عدد مناقشيه وحوارييه . واضطر على أن يكثرمن فترات وجوده حتى يعينه على البيع ، فقد لاحظ أن صاحب المكتبة أصبح يخطىء فى حساب البضاعة المباعة ، كما كان يضطر للبقاء وقتا أطول يوم الجمعة ، لأنه اليوم الذى يذهب فيه ملاك لشراء تموين المكتبة طوال الأسبوع .

* * *

لما قاربت الشهور الثلاثة على الانتهاء ، توجس ملاك من عودة مجيد فسوف يبطش بمشروعه ، ويحطم كل ما بناه ، ويحرمه من أجمل أيام حياته التى وجد ذاته خلالها ، بل وجد صحته وعافيته ، ولاحظ على والجيران تدفق الدماء فى وجهه وزيادة وزنه قليلا برغم المجهود البدنى والذهنى الذى يبذله .

مع إشراقة صباح آخر يوم فى الشهور الثلاثة تهيأ لاستقبال برقية من ولده تفيده بساعة وصوله ، عزم على أن يأخذ سيارة كبيرة تقل بعض الأحباب لاستقبال ولده الوحيد الذى اختارته عناية الله كى يرفع اسم عائلة أسعد عبد الشهيد سدراك بين الناس .. ولده الذى سيفخر به اكتشف ملاك أنه نباته الذى ترعرع وأثمر ويمكن للجميع أن يروا ثماره أعلى من كل الثمار وأنضج وأزهى من غيرها .. وما إن اكتشف ملاك أنه تمادى فى أحلامه وأفكاره حتى استدرك قائلا :

– سامحنى يارب ، فأنا برغم كل شىء بشر ومن حقى أن أزهو وأتيه .

لم يكن يعرف السر فى أنه طوال تفكيره فى مجيد ، كانت الصورة التى تطل فى نوافذ رأسه جميعها هى صورة مريم .. وما إن يفكر فى مجيد لحظة حتى ينفتح باب كبير ويرى فيه عرضا بانوراميا مجسدا لذكرياته مع مريم ، كانت الرؤية ضبابية وأحيانا معتمة ، حاول كثيرا أن يجد خلالها ركنا مضيئا فلم يوفق إلى ذلك ، حتى شكلها الجميل ، لم يكن يظهر على شاشة الذكريات جميلا .. حتى عيونها المشهورة بجمالها الفريد كان يراها واسعة جداً محدقة جدا . توجه إليه سهاما حادة بشكل جنونى مثير للرعب .

ها هى تجلس معه يوم أن استشعرت الحمل الأول :

– أريد بنتا أسميها ماجدة على اسم أعز صاحباتى

يقول لها :

– وأنا أريد ولدا أسميه مجيدا .. ليس على اسم أحد ، لكنى معجب بهذا الاسم ، وهو فى نفس الوقت يتفق مع اسم ابنتك .. ألا تلاحظين مدى التوافق بيننا فكلاهما يبدأ بحرف الميم ، وكلاهما يتحدث عن الفائزين بالمجد .

قالت بسعادة :

– مثل اسمك واسمى

رفع رأسه إلى أعلى قليلا وتنهد ، ثم قال كأنه يتحدث إلى الغيب :

– سوف يكون الولد والبنت بمشيئة الرب فى أعلى المناصب ، لابد أن نجتهد بأقصى ما نستطيع لتتحقق آمالنا فيهما .

يضحك ملاك في شبه مرارة ، ثم يتملكه الأسى من هول المفارقة وتنبت في عيونه دمعات قليلة وهو يقول :

- ربنا يتم شفاءك وتعودين إلى بيتك وتستقبلين ابنك مجيد وهو فنان كبير

هل قلب المؤمن دليله . في الغالب هذا ما يحدث ، وفي الغالب أيضا لا يحدث .

قبل الغروب وصلت البرقية المنتظرة

«أبي الغالي .. أنا بخير .. لا تنتظرني .. سوف أبقى هنا لمدة عام .. قبلاتي لماجدة .. مجيد»

كان واقفا فجلس وقال لنفسه :

- هذا الولد من يومه قاسي القلب .. لا يحس بأهله

لما وصل علي إلى المكتبة مع الغروب ، سأل عن أخبار مجيد . حدثه ملاك عن البرقية وهو يفيض أسى وحزنا .

قال علي :

- لماذا لا تفرح بولدك الذي نجح .. لو كان قد عاد بعد الشهور الثلاثة لكان ذلك دليلا على أنه محدود الموهبة برغم فوزه ، لكن استمراره هناك هو الدليل على أنه لقي ترحيبا .

- أقول لك سيغيب عاما كاملا

- وماذا في هذا ؟ خلق الشباب للعمل والسفر واقتحام الحياة ومحاولة الإمساك بالنجوم ، وليس على الآباء الوقوف في طريقهم .

- مدة طويلة وأنا وحدي

- السنة أصبحت مدة قصيرة جدا .. إذا مر منها شهران . وشهران .. لا يبقى منها إلا القليل ولا تنسى المكاسب التي سينالها مجيد . العلاقات . الخبرة . الدراسة . العمل . الأضواء . الطموح . عالم آخر .. إنها باريس يا والدي .. وما أدراك ما باريس .. النور والجمال والمجد .. اسمح لي أقول لك : أنت تظلمه بالقلق عليه والتفكير في قص أجنحته وتقييده .

- ولدى الوحيد يا على

- الأولاد فى هذا الزمان ليسوا للآباء ، بل للحياة ولأنفسهم .

انفرجت أسارير ملاك قليلا وهدأت ملامحه وهو يخرج من بوتقة الحزن

- أنت مقتنع بما تقول أم أنك تخفف عنى

- مقتنع تماما ، ولم يحدث أن فكرت أن أقول غير الحقيقة لا لك ولا لغيرك

- ربنا يحفظه ويوفقه

- نعم .. هو ذاك .. أدع له .. وإذا كان فى سفر مجيد مصلحة له ، فلا ننسى أن فيه مصلحة لك

- ما هى ؟

- مجدك .. حكمتك

- ذكرتنى .. سأذهب إلى سلامة لأستلم حكمة الغد

بدا ملاك فى عيون على كطفل فرحان سيذهب مع أهله إلى الملاهى .

(١٦)

منذ عشرين سنة غاب الوالدان . منذ عشر سنوات تزوجت الأختان ومنذ أربع سنوات سافر الأخ الوحيد ولم يظهر ولو مرة ، ومنذ عامين سافرت صافيناز أكبر الأختين مع زوجها الملحق العسكرى فى سفارتنا بروسيا .. كم كبير من الغياب تكدس على مدى سنوات . الكل يذهب وهى وحدها فى الفيلا . ويكتمل الغياب ويتعتق بانشغال أختها الصغرى زوجة المنتج السينمائى . لا تسأل عنها إلا كل سنة مرة . وجدت نفسها فى صداقتها مع الممثلين وأهل الفن المشتغلين بالسينما والمسرح حتى أصبحوا هم أهلها ، وعالمها ، وها هو زوجها يستعد لافتتاح شركة باسمها «عين الحياة» للإنتاج التليفزيونى.

سنوات طويلة من العزلة والبرد والوحدة والملل ، ليس لها من ونيس إلا الموسيقى والطيور والقطط ، لم تتحمس للنظر فى المرآة غير مرات قلائل ، لعلها أتعس حياة .. قعيدة وحيدة وخاملة . زاد الحال سوءا منذ سافر سراج . فقدت الشهية وماتت الرغبات . لامته فى نفسها كثيراً على هذا التصرف الأنانى بالغ الشذوذ.

لم يدق أحد من الرجال بابها ، لأنها دائماً بين جدران البيت لا تبرحه . دعتها أختها لحضور بعض الحفلات التى تجمعها مع الممثلين والفنانين . رفضت . كان أخوها سراج يدعوها للنزهة فترفض . مختلفة قليلا عن أخوتها ، وكان والدها غير متحمس لتوطيد الروابط مع باقى أفراد العائلة . يريد أن يحمى أولاده – كما كان يقول – من أى احتكاك طائش ، لكنه لم يعش ليحرس أى شىء . مات الوالدان معا فى حادثة انفجار إطار سيارة وهما عائدان من الاسكندرية . وتركاها وهى تشعر أنها غير قادرة على الاندماج فى الناس أو إجراء حوار مع أحد.

لما طرق دنياها يحيى برقة وأناقة تفتحت روحها واستقبلته بترحاب ، ولما كاشفها بمهنته البسيطة وظروف عائلته مع قدر من التلوين الكاذب، لم تأبه لكل

ماقال. حاولت أن تبذل أقصى جهدها لاستكشاف صدقه فقط فى مشاعره نحوها . لم تر أية أهمية أو خطر فى أن يكون شحاذا أو جائعا أو ضائعاً .. أو .. أو .. لم تتصور أن يكون لذلك قيمة ، كل المطلوب مشاعر إنسان يشاركها الحياة ويخفف من حدة البرد والسأم و الرتابة المقيتة ، وأن يفتح صندوق الجسد المغلق على أسراره.

كان الشوق للمشاعر والجوع للأحاسيس . أمنيتها الأولى أن تصحو فى الصباح لتجد من يقول لها : صباح الخير أو صباح الفل ، وأن يقول لها صديق أو أخ : فستانك جميل أو تسريحة شعرك حلوة . هيا نذهب إلى السينما .. أنت تحسنين الطهى . ذوقك جميل ، ما رأيك فى أن ..؟

استدعت أختها وزوجها وابن عمها وشخصا رابعاً ليس من العائلة ، لكنه كان صديق والدها ، وكان أكثر من يسأل عنها .. رأفت بك عامر وكيل وزارة التعليم الذى أحيل إلى المعاش منذ سنوات . حدثتهم عن يحيى ورغبته فى الزواج منها.

اضطرت أن تكذب وتقول : رجل أعمال . على أساس أنها كلمة مطاطة تضم تقريباً كل من لايقبض من غيره . كں مهنة حرة يدعى أصحابها- إعجابا باللقب الجديد - إنهم رجال أعمال . يحيى قال لها ذلك . وإذا ضاقت سكك الحوار وسألوها:

- أى أعمال ؟ ، يمكنها أن تقول تجارة السيارات ، ولن يطول هذا اللقاء أكثر من ساعتين، وبعدها يذهبون فلا يرجعون ، كما تعودوا .. وهى تدرك مشاعر صديق والدها الذى يدعمها بآرائه وثقته.

حدثتهم عن رغبتها فى أن ترفض عرضه للإقامة معه فى شقته المطلة على النيل فى فم الخليج ، لأنها لاتستطيع إلا أن تقيم فى الفيلا حيث اعتادت أن تعيش . وافق الجميع واستحسنوا الفكرة وقال رأفت عامر موجها حديثه للجميع وخاصة ابن عمها وزوج أختها :

- أولا لكى لا يفكر أحد من أخواتها ولا حتى هى فى بيع الفيلا إذا خلت، وثانياً لأن بقاءها فى بيتها يشعرها بالثقة والاطمئنان وتمتعها بكامل كرامتها ، ولو حدث خلاف لا قدر الله ، هى فى بيتها وليذهب هو حيث يشاء، وثالثا لكى تتاح الفرصة لزيارتها ، والأهم من هذا جميعه أن يجد أخوها - إذا عاد - البيت مفتوحا ولا يجده مهجورا أو خرابا ، ناهيكم عن أهمية بقائه مفتوحاً وعامرا يحمل اسم البارودى.

عندما عاد يحيى يوم الجنيهات الخمسة بعد لقائه بأخيه المحامى ، سأل نرجس عن ملكية الفيلا ، فعلم أنها لازالت باسم والدها وأن الميراث لم يقسم بعد، وغياب أخيها أوقف كل شىء .

فكر فى الفيلا التى تساوى نحو مليون جنيه ، ولا يستطيع أن يفيد منها .. لو استطاع التخلص منها لكان ثمنها بداية لمشروع ممتاز يرفعه إلى السماء فى يوم وليلة .. إذن لماذا كان السعى للزواج لو لم يكن من أجل المال؟.. لابد أن هناك غير الفيلا .. ممتلكات أخرى .. كان يعرف أن أسرتها تمتلك خمسين فدانا فى إيتاى البارود ، يركب معظمها مستأجرون . كل سنة يحضرون إليها ليضعوا بين يديها عدة آلاف من الجنيهات وهناك ثلاثة أفدنة مسورة على طريق مصر إسكندرية الصحراوى .. وهناك عمارتان متجاورتان فى شارع شبرا .. أربعون شقة وعدد من المحلات ، لايزيد إيجارها جميعا على ألف جنيه فى الشهر ، توزع العوائد بينهم جميعا .

الفيلا بناها جدها الباشا تاجر القطن الشهير فى الأربعينيات ، وكان لديه سبعمائة فدان أكثرها فقده على حياة عينه ، والباقى تقاسمه على أولاده التسعة.

نرجس لاحظت طيبة يحيى وخفة ظله وميله للنكتة وحسن معاملته ، فتسلل إلى قلبها وأحبته . رضيت عن القدر الذى وضع يحيى فى طريقها لينهى عهدا من تجاهل الرجال ، و شعورها بالضياع الذى سبب لها مسحة من الذلة وتكدس فى نفسها إحساس بأنها ليست كغيرها من النساء وتفتقد لما يتمتعن به.

الفترة الماضية كانت تعسة ، وهى لا تفتأ تتذكرها بعد أن امتلأ البيت بالشمس والدفء والنور والوجود الإنساني .. كانت الدقائق تمر عليها والثواني في زمان ماقبل يحيى ثقيلة ومرعبة . وكانت تطلب من الخادمة أن تبيت معها وإذا أبت أن تبيت طلبت إليها أن تبعث بولديها وهما دون الخامسة عشرة .

ربما كان البسطاء يحسدونها لأنها حفيدة الباشا وأنها تقيم في فيلا. لكنهم لم يتصوروا أنها تعاني بالليل والنهار . لا تجد من تتحدث إليه ولا تجد ماتعمل، ولا تخرج ولا تتنزه ولا تضحك ولا تكاد تنام إلا نوما متقطعا لا أحلام فيه ، وتأكل طعاما يتيما ومسكينا بلا طعم. وتكتفي - لتبديد الوقت - أن تقلب في ألبومات الصور .. تبدأ مع كل ألبوم رحلة الذكريات وما تلبث العيون أن ترتل أناشيد الدموع.

وجود يحيى رحلة جديدة ومختلفة . طعام وكلام وحب وقبلات ونوم ولذة وأنس وآمال مفتوحة على المستقبل .. دخوله عليها نبض لكل القلوب وفتح لكل النوافذ . وتجديد لكل الدماء التي تسرى في عروقها وعروق الجدران وعروق الأرض ، وعروق السقف وكل العروق التي تجعل من الفيلا أسعد مكان في الدنيا يجمع حبيبين . أو على الأقل يجعل منها مكانا حيا دائم النبض مختلفا عما كان.

فوجىء يحيى بنفسه يحبها ولم يكن يتوقع ذلك . فقد عثر لديها على التقدير والاحترام والترحيب والاهتمام الذى لم يجده في أى مكان ، ولم يلحظ مرة أنها انزعجت من يديه المتسختين أو ملابسه غير المهندمة . كما أنها لم تتأخر لحظة عن تلبية مايحتاجه قبل أن يذكره .. الماء الساخن . الطعام الجيد . الفراش النظيف . الأضواء الخافتة والموسيقى الناعمة ولم يشعر بأن عمرها الذى يزيد على عمره بثلاث سنوات له تأثير سلبي على علاقتهما العاطفية والجنسية - على العكس - تراجع عمرها النفسى ، وأضاء وجهها ورنت ضحكتها وانطلق لسانها يشرح ويعبر ، ويمكن أن يقول النكتة أحياناً . وربما لأول مرة أصبحت تهتم بالحديقة والزهور .. حمد الله وحمدته على هذا التوفيق العبقرى لقلبين تائهين في سوق الدنيا المتسعة والمتشابكة التي تملأها العقد وتسد منافذها الأفكار السوداء.

اهتم بها يحيى واصطحبها فى السيارة إلى الحدائق والأماكن الأثرية والمطاعم التى يتحمل أسعارها ، وإلى المصايف فتضاعفت سعادتها لأنها خرجت من الجحر المظلم . لكن ذلك كله لم يمنعها من التفكير فى أن يكون هناك عمل آخر ليحيى بدلا من التاكسى . عمل كبير يدر عليه دخلا طيباً ويكون ذا مظهر أفضل يليق بهما . خاصة أنهما اتفقا على إخفاء طبيعة عمله الحقيقى. عن أختيها .. فتحت الموضوع مع عين الحياة فقالت لها:

– كيف نوزع الميراث فى غياب سراج ؟ ومن منا الذى سيزرع الأرض؟ وليس منا من يحتاجها الآن على الأقل لا أنا ولا أنت ولا صافيناز . يكون أشرف لنا ألا نفتح الحديث فى الموضوع إلا بعد ظهور سراج.

وسراج لم يظهر رغم مابذلوه جميعا من جهود ، سواء بالنشر فى الصحافة أو كتابة المذكرات والشكاوى لوزير الخارجية وعشرات المكالمات مع السفارة المصرية فى باريس، الكل يقول : نواصل البحث .

انشغلت عن سراج بيحيى، والعمل الذى تفكر له فيه ، والصورة التى يجب أن يكون عليها كزوج لحفيدة الباشا وساكن الفيلا وصهر سراج بك والمنتج السينمائى والملحق العسكرى ووكلاء الوزارة ومناصب أخرى لأقاربها لا تكاد تعرفها . وأهم من هذا أنه أبو ابنها الذى يملأ الآن بطنها .

يحيى يأسف لأن الثراء الذى سعى إليه ثراء مع وقف التنفيذ ، كالذى يملك ورقة بمليون جنيه لاتصرف إلا وهو فى المعاش ، ولا يضمن إن كان سيلحقها أم لا ، لكنه فى نظر الناس من المليونيرات.

كان عليهما أن يجوسا خلال نفس الدرب الملتبس ، ويتعجلا نتائجه حتى لا يعود سراج فيتحفظ لأى سبب على هذه الزيجة التى يرضى عنها أطرافها.

عندما وصل إلى البيت فى يوم الجنيهات الخمسة ، كان قد عزم على أن يبيع السيارة إذا لم يجد فى جعبة نرجس وسيلة للتصرف فى بعض ماتملك . صارحها بنيته . سألته عن البديل :

– سأفتح محلا لبيع قطع غيار السيارات .

كان قد بلغه قبل ليلتين أن محلا كبيرا فى شارع بديعة معروض للإيجار .. ناقشته لحظات . اقتنعت بأن المحل أفضل من السيارة الأجرة . طلب منها خمسة

آلاف جنيه ليربط صاحبه . قبل أن يخرج قالت له :

- ليتك ترجع مبكراً حتى نحتفل .
- لابد نحتفل بالمحل .
- لا . بالأهم ؟
- ما الأهم ؟!
- فكر .

زاغت نظراته هنا وهناك باحثا عن الأهم. أشفقت عليه من الحيرة وأشارت إلى بطنها . أضاءت ملامحه وصاح منتشيا وهو يحتضنها ويرفعها ويدور بها.

- الله عليك ياصاحبة الأخبار الحلوة .. هيا معى .. سنحتفل خارج البيت.
- أدفع الفلوس الأول .
- سندفعها معا وننطلق بعدها للسهر.

كان يخامره إحساس بأنها ربما تكون قد جاوزت سن الإنجاب.

.. ولذلك كان مهيأ للحرمان من الإنجاب حتى يعبر جسر الفقر ولما تتحسن الأحوال يصبح من حقه أن يتمنى الذرية .. لم يكن متلهفا على أن يرى أبناءه . .. كان مشغولا بهدف كبير تختفى إلى جانبه الآمال الصغيرة وكان من حظ نرجس أنه كان فى دنيا ثانية بعيداً عن التفاهات والشهوات الصغيرة التى تستدرج أمثاله . كان راقيا رغم أنفه . مترفعا عن الدنايا والنزق الذى يستمتع به أقرانه وأصدقاؤه القدامى.

صارحها بأنه اتفق مع تاجر قطع الغيار على أن يزوده بالبضاعة ، وعندما يبيع يسدد له ، وطلب منها أن تسمح له باستغلال الأرض المسورة بالطريق الصحراوى كمخزن لقطع الغيار المستعملة لأنه سيتاجر فى النوعين لتلبية احتياجات الجميع .. ويزيد عدد العملاء ، فيتسع الرزق ، وطلب منها أن تلد له كل ستة شهور لأنه يريد دستة من الأولاد على الأقل .

(١٧)

قال ملاك لعلى:

– تصور ..نسيت أنك خريج فلسفة .

– غريبة .. وما الذى فكرك؟

– ماجدة .

– والمناسبة .

– تريدك أن تشرح لها ..لا تجد صعوبة إلا فى العربى والفلسفة . رضيت عن مدرس العربى ، ولم يعجبها مدرس الفلسفة.

– بكل سرور .. ماجدة أختى .

– وقتك .. لا نريد أن نزعجك.

– وقت أن تحب أنا جاهز.

– الامتحان بعد شهر.

– فقط

– ما رأيك أن تذهب الآن ؟.. هيا اذهب إليها .

– سامحنى .. أفضل أن يكون الدرس عند أختى .. أنا أشرح لنور وهى زميلتها.

– عظيم .. يعنى فى نفس البيت .

★★★

.. نزلت نور ، ودعت ماجدة لدرس الفلسفة . كان أبوها قد أخبرها أن على سيشرح لها يومين فى الأسبوع بدءا من اليوم التالى :

قال على :

– هذه الحصة نعتبرها تجربة ، إذا فهمت شيئاً من كلامى أو أمكنك استيعاب الدرس ، يمكن أن نستمر ، وإذا لم يحدث شىء من هذا فلابد من البحث عن مدرس ممارس للمهنة حتى يساعدك فى تحقيق فهم جيد للفلسفة ، تستطعين معه

الحصول على أعلى الدرجات ، وبالمناسبة مادة الفلسفة لا يصلح لها الفهم المتوسط .. إما الفهم الجيد جداً أو عدم الفهم .

فى نهاية الدرس سألها عن رأيها ، قالت :

– شرحك أفضل من شرح أستاذ المدرسة وأستاذ الدرس الخصوصى.

– أشكرك .

– أنا أحس أن المدرس موظف يؤدى عمله ، إذا أداه ، أما أنت فتشرح بمزاج، لأنك فيما يبدو تحب الفلسفة.

– جداً .

– أشكرك يا على أم أقول ياأستاذ على.

– أنا على فقط ..

التفتت إلى أخته :

– سلام يانور.

– سلام ياماجدة .

رافقها على حتى الباب ، وقبل أن يفتحه قال لها :

– أرجو أن تشجعى الوالد على زيارة والدتك .. أنت .. بالذات لا تتخلى عنها.. لابد أن تحرصى على زيارتها .. خذى لها قطعة شيكولاتة . كيلو فاكهة . ملابس جديدة . شبشب . توكة شعر . منديل للرأس ، أو حتى وردة .. أى شىء . امكثى معها ساعة أو ساعتين . زيارتك لها تقرب موعد شفائها .. أنت ابنتها . والبنت مصدر الحنان والحب للوالدين. عند زيارتها ، سرحى شعرها أو إعرضى عليها خياطة ثوبها أو سرد بعض الأخبار . اربطيها بالدنيا .

تنهدت ماجدة :

– فى كل زيارة أجدها أسوأ.

– وستكون أسوأ طالما نسيها أهلها .

– بدأت أحس ان زيارتها بلا داع .

– لا .. لا .. إنها تحتاج إليكما .. ومستعد لمرافقتك إذا لم يجد والدك الوقت الكافى.

- أشعر أنها لم تعد بحاجة لأحد .

- على العكس .. هى فى حاجة إلى حبكم وأسفكم لما جرى لها .

- إنها لاتحس بنا عند زيارتها .

- يهيأ لك .

- صدقنى .

- إذا كان النبات والحيوان يحس .. ألا يحس الإنسان حتى لو نقصت بعض قدراته أو ضمرت بعض أعضائه بسبب عدم التفاهم والانسجام .

- واضح أنك تعرف مشكلة ماما .

- طبعاً .. ربما أنا الوحيد الذى فضفض له أبوك ، وفهمت أنهما لم يتفقا معا على شىء لأن الطبيعتين مختلفتين .. أبوك يؤمن بالروح وهى لا تؤمن إلا بالمادة ، هو يرضى وهى تطمح دائماً إلى مستويات أعلى . هو يبحث عن الإنسان والجوهر، وهى تبحث عن المظهر.

- والحل ؟

- لقد نقلت إلى المستشفى والحل يكمن فقط فى رعايتها .. المطلوب لهذه السيدة المسكينة .. أن تشعر بالحنان وأن نخلق لها أسبابا للفرح . هدية . خبر . زيارة . خدمة ، وأنت الوحيدة المؤهلة لهذا الدور وهى لن تنتظر إلا منك ، لأنها فقدت الأمل فى الوالد تقريباً .

- أخاف منها .

- ترمينها وهى التى عانت لتتمتعى بالحياة .

- أتمنى أن يفيدها سؤالى عنها .

- لمسات الحنان تعالج المريض والعاصى .. الحصان الهائج يهدأ إذا عامله صاحبه برقة وصبر وكذلك الكلب والقطة .. أنا آسف للأمثلة .

قبل أن تستدير وتنصرف ، ابتسمت له بود وصبت فى عينيه نظرات يختلط فيها الأسى بالشكر والإعجاب .

هبطت الدرجات إلى شقتها وعلى فى رأسها .. بدا لها بعقله ولغته وثقافته وإحساسه ناضجا جداً ، حدثت نفسها : من فى سنه يملأون الشوارع

ويستعرضون تفاهاتهم و سوء أخلاقهم .. جلس بشكل محترم وشرح بطريقة جذابة لاتدعو للملل .. فهمت أهم مبحث من مباحث الفلسفة . مبحث القيم .. كانت أقسامه الحق والخير والجمال تختلط .. الأمثلة التى ضربها وفسرها هى التى مكنتنى من الفهم .

مضت تتذكر كل تاريخه معها .. منذ وعت للدنيا وهى تراه مع أبيها ، وكلما ذهبت إلى المكتبة وجدته ، وكان يصحبها إلى نجاة ونرمين وغيرهما .. ومرات إلى أتوبيس الرحلات وكثيرا ما وجدته يبيع بدلا من أبيها ، فى حين كان أخوها مجيد يرفض رفضا قاطعاً أن يقترب من المكتبة .

لم تتنبه إلى الوقت الطويل الذى فر بسرعة وهى تستعيد وتتأمل ملامحه .. من شعره إلى أصابع يديه مروراً بلون عينيه وحركة شفتيه .

لم تستطع أن تتجاهل إعجابها بشكله وعوده الرشيق وأناقته ولباقته .. نموذج رائع للشاب .. تنهدت وقالت من قلبها : ربنا يحرسه .

★★★

طويلا كان ..الدرس الأخير الذى سبق الامتحان .. كان ممتلئا وشاملا ومركزا وكانت ماجدة مصغية تماماً وكذلك نور . لا شىء يشغلهما إلا أن يستجمعا أكبر قدر من شرح على.

لم تكن عيناه تغيبان طويلا عن عينى ماجدة الخضراوين الواسعتين، وكان بإمكان عينيه أن تمرا على ملامحها الدقيقة الناعمة فى نظرات خاطفة .. لسانه فى طريقه الجاد كقطار يمضى بقوة واندفاع ناحية المحطة الأخيرة . العقل يستحضر ويحلل ويقدم الأمثلة . يجتهد فى البحث عن الجمل البسيطة التى تقرب المعانى العميقة والبعيدة والأفكار المعقدة .

لما انتهى . وقفت لتودعه وتشكره .. فردت عودها الرشيق . مد لها يده ، ومدت لأول مرة يدها ، حطتها فى كفه . حمامة صغيرة طرية لاتستطيع الطيران فى عش كبير دافىء. ضغط عليها بحنان وصوب نظراته إلى عينيها الساحرتين . كان مبهوراً بهما للغاية .

قال : خلاص .. انتهى الدرس .

ابتسمت ابتسامة حيية وقالت :

- انتهى ياعلى .
- أنا فى حاجة إلى أن يرضى عنى والدك.
- والدى سعيد بك.
- درجاتك فى الفلسفة بالذات ترفع من قدرى.
- اطمئن ياعلى.

حامت فى أعماقه لحظة فرح وهيِ تنطق اسمه . هذه المرة بالذات ، كان نطق اسمه مختلفا .. فمها الصغير ينثر الكلمات برقة ، فتأخذ على شفتيها وفى نبرة صوتها العذب طعماً آخر.

تشجع وقال :

- سأراك مرة أخرى .

أحنت رأسها قليلا وقالت :

- نحن جيران .. سعيدة .

سكت لحظة ثم قال لها من قلبه :

- دائماً .. سعيدة .

فى الطريق إلى بيته صاحب طيفها وسأله عن أحوال قلبه ، فاحتار بماذا يجيب .. لكنه قال مايكشف عن قلقه من هذه المشاعر التى تجتاحه ، ويدهش لها .. كيف هكذا يبدو محاصرا بها وبطيفها وذكراها وملامحها .. كيف به يبدو محاطا بورودها وأشجارها وعبق شذاها .. لابد أن يقاوم الأمور .. من الناحية الاجتماعية لاتستقيم .. لو مضى هذا الحب فى طريقه إذا جاز أن نسميه كذلك فإلى أى شىء ينتهى .. حاول كثيرا أن يدعو النفس إلى نسيان الموضوع كله واعتباره مجرد صداقة ، بل أقل من ذلك بكثير ، هى ابنة صديقه فحسب .. وصديقة أخته فقط .. وجارة لها ..الدين .. حاجز ضخم وصلد وأصعب من أن يخترق ، ثم لماذا يخترق .. وهل انعدمت البنات المسلمات؟! .. يجب أن ننزع أنفسنا بقوة من استدراج الحب ولا يتعين أن نجلس برضانا على القمة المنحدرة .. إن ذلك سوف يتسبب فى تعاسة المحيطين .. سوف أقاوم ، وسوف أبتعد وأبعدها عنى بملامحها الجميلة الفاتنة ، وعبيرها الأثير وتأثير عينيها، وجاذبية

وجهها دقيق المعالم ، وطيبتها ورقة طبعها ، سوف أقاوم ذلك الحنان المنساب فى عينيها .. سوف أقاوم .. نعم .. سوف أقاوم.

عندما بلغ بيته ، تنبه إلى أن قلبه يدق بقـوة واحتـدام ، وأنه يرتعـد كأن قوة جبـارة ترتطم بقيعان أعماقه . حاول أن يجلس . أن يفعـل أى شـىء .. مد يده إلى المكتبة ، فكر أن يستأنف مطالعة الديـوان الذى كان يقـرأ فيه منذ يومين وبه مجموعة من الأشـعار اليـونانية والرومانية كانت الصفحة مطوية عند قصيدة لسافو .. قرأها وما بعدها وقرأ قصيدة لأناكريون بعنوان «إلى إيروس» :

إنى أريد .. أريد أن أحب
ولقد زين لى الحب (إيروس) أن أحب
فأبيت من جهلى أن أصغى إليه
فقبض من فوره على قوس من ذهب
ودعانى إلى القتال، فقررت أن ألبس له الحديد
أمسكت بالرمح والدروع
ونهضت كأنى أخيل
أنازل الحب (إيروس) فسدد لى سهاما بعد سهام
وكنت أحيد عنها فتطيش ، ولما نفدت سهامه
تقدم إلىّ يتقد غضبا فأمسكنى بقوة
حتى كاد يحرق بدنى ، وهجم على
وسرعان ما نفذ إلى قلبى، وانهزمت
يالها من حماقة أن أتقى بدروع!
أى سلاح خارجى ينتصر على الحب
إذا كانت المعركة قائمة داخل نفسك

كان يقرأ القصائد بلا عناية .. نظرات تتساقط فوق السطور وتتنقل بين الكلمات دون أن تأبه لمعانيها . ثم اكتشف - ربما من وطيس المعركة التى اشتملت عليها قصيدة كريون - أن القصيدة بها مايستحق أن يتوقف عنده ، وحينئذ أسقط فى يده ، وعاد يقرأ من جديد بذائقة جديدة .

(١٨)

هل تذكرين المبنى المهجور الذى أشرت لك عليه فى إحدى المرات ونحن نمر بشارع العبيط . يجهل الناس قدره ويسمونه «الخرابة» . لقد بدأت منذ شهور رحلة البحث عن حقيقته ، فهو ليس قصرا عاديا أو مجرد مبنى كبير مهدم وهجره أهله .. سيطر علىّ إحساس أننى سأصل إلى شىء ، ولو لم أصل إلي معلومات معينة ، فسوف أصل إلى .. إلى ذاتى .. والبحث - كما أظنك تعلمين - هو الكشف عن إنجازات البشر التى أخفاها أو تجاهلها بشر، وأكمل الزمان المهمة.

اكتشفت ياست الملاح أن هذا المبنى المهجور هو فى الحقيقة كان قصرا بناه وزير شهير اسمه نور الدين من وزراء قلاوون .. ولابد أنك لاحظت حالته الآن، وبعض غرفه مهدمة وكذلك جانبا كبيرا من سوره، لكن الذى لاتعرفينه أن عمك حنفى العربجى يقيم فيه هو وحماره . والحمار يصب بوله على جدرانه كل يوم حتى دمره، ومكان الجزء المتهدم من السور يجلس سمكرى بوابير وباعة الملابس القديمة ، وبائعو أحذية قديمة وشباشب ، وزوجة حنفى تبيع الدواجن وتذبحها فى دلو ، وتغسلها فى دلو آخر وترمى كل ذلك فى سفح الحيطان وعلى الأعمدة ، فتطير الروائح الكريهة إلى كل مكان وتجد الحشرات والديدان مرتعها الخصيب وحضنها الدافىء . وسرعان ماتتبعها القطط والكلاب والبوم والثعابين وسبقتها الوطاويط والفئران والعرس.

لابد أنك سمعت عن حدوث عدة جرائم قتل بها .. نساء مخنوقات ورجال تقطعت أجسادهم ، منهم من ينتمى للحى ومنهم غرباء ، أما الغرف العلوية التى تتزين جدرانها بأبيات من شعر الغزل حولها النقش المحفور والزجاج الملون والمشربيات والنجف ، والسقوف العالية تتدلى منها فى الأركان مشكاوات فيها مصابيح تضاء بالزيت فإنها مسكونة بالمتشردين دائماً ، والعشاق مؤقتا الذين يمارسون الجنس واللواط ، ومنهم من يتخذها أماكن مستورة لاخفاء المخدرات والمهربات.

تصورى يامنيتى ومرادى أن هذا القصر بناه صاحبه الوزير لحبيبته التى هام بها غراما وهى امرأة من الشعب .. من حينا هذا ..استدعى أعظم الفنانين فى عصره فى العمارة والزخرفة والبناء والطلاء ، ليقيموا لها وسط منطقتها وبين أهلها قصرا منيفا رائعا على مساحة ألفى متر، قضوا خمس سنوات قبل الانتهاء منه فى عمل دائب ، وكان هديته لها لتعيش فيه ولم تدخله إلا بعد أن أحاطه بأشجار الورد والياسمين، بالإضافة إلى الأشجار العالية كالكافور والسرو وكذلك أشجار الجهنمية ومن الداخل أشجار الفاكهة من التين والجوافة إلى المشمش والتوت والبرقوق والبرتقال .

وقد عثرت على بعض الأوصاف للحبيبة التى خلبت لب الوزير ، فوجدت أنها تستحق القصر ، كما أنى أحسست أن الكاتب الذى يصفها ، إنما يصفك أنت فهل أنت التى كانت تسكن القصر المهيب ، وعدت إلينا الآن لتأسرى القلوب وتديرى الرؤوس ، وبالمناسبة غير مسموح لك أن تأسرى أى قلب إلا قلبى ، ولا تديرى أى رأس إلا رأسى.

قال الكاتب ، لقد أراد الوزير نور الدين أن تشعر وهى بين أهلها تسكن القصر العالى أنها نالت التقدير اللائق بجمالها وأدبها ، ولما سكنته قضت الشهور وهى تتأمل كل قطعة فيه ، فقد كان تحفة معمارية.

أرأيت ياعذراء الربيع ، كيف ألجأه الحب إلى الفن .. عندما أراد أن يعبر لها عن تقديره ، كان يمكن أن يرمى الذهب تحت قدميها ، لكن ذلك تعبير فج ، وقد فعل ما يفعل العاشق عندما يتعلم الشعر خصيصا ليكتبه للحبيبة ، لأن الكلام العادى سيكون عاماً وليس خاصا ، هو يريده وردة مثقلة بالحب والجمال وعلى وريقاتها تنهيدة بثتها أعماق المحب.

أرأيت مايتعرض له الجمال والفن والتاريخ على يد الدهماء والجهلاء التعساء بينما رجال الحكومة ينتشرون فى كل مكان ويجوسون فى كل الطرق . ألا تدمى القلوب رؤية هذا المنظر؟!

إننى - يافتاتى - اجتهد فى البحث والاطلاع للعثور على مزيد من المعلومات عن هذا القصر ، حتى أسلمها مكتملة لهيئة الآثار لكى تنقذه من الإهانة والوحشية ، وسوف يكون انتصارى فى هذه المعركة تحية بسيطة أعبر بها عن بعض ما يملأ جوانحى من شعور نحوك أيتها الجميلة الغالية.

وعذرا لأنى لا أستطيع أن أتذكر اسم ذلك الشاعر الذى أحس بحالى قبل ألف عام وقال :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى

و للحب ما قد ذاب منى وما بقى

وما أنا ممن يدخل العشق قلبه

ولكن من يبصر جفونك يعشق

(١٩)

في محل موافى العجلاتى افتتح حافظ شارودة الجلسة بعدة نكات - أعقبه شبراوى الديب بحفنة أخبار ، وعزف رضوان الذى انضم حديثا بعض الألحان المشهورة . وانسجم عشاق السهر والسمر فى حضن الليل .. ورحب الجميع بيحيى وقد تعودوا أن ينادوه بعد زواجه من نرجس بالباشا ، لأنه ناسب الباشوات .. ارتفع نسبيا إيقاع الجلسة واحتدم النقاش . كلمة من هنا وكلمة من هناك ، تشكلت على ألسنتهم بعض ملامح الواقع الجارى فى الحى.

نط شبراوى فجأة وهو يبعد فم الشيشة عن شفتيه ويقول :

- هل علمتم ما جرى؟

- ماذا جرى؟

- شبل اللبودى وّكل محام كبير ليدافع عن ابنه ضابط الشرطة.

- هشام رئيس المباحث مقبوض عليه؟!

- عذب ثلاثة من سياس السيارات . مزق أجسامهم بالسوط.

قال جمعة : ما هذا الكلام ؟.. أنت أكيد شارب.

ضحك الجميع .. لكن الشبراوى مضى يحكى عن سرقة المرسيدس التى انتشرت فى المهندسين والعجوزة ، وفشل هشام فى وقف نزيف المرسيدس .. أعلنها صريحة : إن التحرى لا فائدة منه .

قام بإحضار السياس .. واحداً بعد واحد ، ونزل عليهم بالكرابيج .. المساكين لم يعرفوا اللصوص .. أقسموا على ذلك ، وظل ابن اللبودى يضرب فيهم ثلاثة أيام هو ورجاله ، حتى بلغ الخبر أحد الصحفيين . كتب عن الحادث وأثار الرأى العام .. فتأكدت الواقعة وأحالوه للتحقيق .

قال جمعة : وعم شبل .

رد الشبراوى : عم شبل كان دائماً ضد ابنه وغير راض عن تصرفاته.

قال موافى : لكن ابنه .

وسأل حافظ : والسياس.

قال الشبراوى : فى المستشفى فاقدين النطق وبين الحياة والموت ، ولما سألوا هشام قال : الوزير كان مستعجلاً لأنها سيارات ناس مهمة .. ولا وقت للتحرى والحكاية لاتستأهل قضية .. مجرد جروح بسيطة . هذا كلامه .

قال حافظ : استر علينا يارب من بلاوى الشرطة .. غيروا ياجماعة .. سمعنا ياجمعة .. خلينا ننسى .. غير ياابنى الحجر .

بدأ دور الغناء ونجمه الأوحد جمعة يصاحبه رضوان بعوده الشجى . فى عز عز الانسجام ، والشيشة تلف وتصادق بين الرؤوس والأمزجة .. تتعالى الأنفاس، والأدخنة تلون المكان وتوحده وتسقفه .. مال حافظ ودس لسانه في أذن جمعه وأغرقه فى طوفان دخانه وقال:

– بيتى محتاج هنية ياعم جمعة . سرير وطبلية والخير موجود .

أمسك جمعة فم الشيشة الذى كان يوشك أن يضعه فى فمه ، وتوقف لحظة فقد تكلم حافظ فى موضوعات خارج الاتفاق .

– نبيل هو المشكلة .

ظن جمعة أن حافظاً سيسكت إذا علم أن الجميع يعمل ألف حساب لنبيل ، مع أنه عاطل ، لكن حافظاً قال بعد أن مسح شاربه الرفيع جداً ، وعوج فمه حتى ينصب الكلام فى أذن جمعة ولا يتبعثر هنا وهناك:

– لاتشغل بالك . خليه على.

دهش جمعة . حسب أن الموضوع انتهى وسد فم حافظ لشهور قادمة.

– لم أفهم .

– نبيل . حله عندى.

– كيف ؟

– جهز العروسة والباقى على.

بعد أيام كان حافظ يقود أتوبيس مدرسة النديم ولمح نبيل يسير فى شارع بديعة . ناداه . دخل فى الموضوع مباشرة.

- تحب تسافر ؟.. فيه تأشيرات للسعودية .

فوجىء نبيل واحتار ، أنه بالفعل يريد السفر ، يكاد السفر أن يكون الحل الوحيد لمشكلته ، وفى الوقت ذاته لايرتاح إلى كل من يعرفهم أخوه ، ومع ذلك قال له بنصف تعال وهو يتأهب للذهاب :

- أفكر .

قال حافظ :

- إذا فكرت مر عليّ فى المدرسة بالنهار وعند موافى العجلاتى بالليل.

لم يكن نبيل محتاجا للحظة واحدة للتفكير ، وكيف يفكر وهو جائع ، وأمامه دجاجة ولو مسلوقة ، وكيف يفكر أن يرفض حتى لو كانت الدجاجة مجرد عرض.

فى صباح اليوم التالى ارتدى نبيل أفضل ملابسه ونزل درجات السلم .

- ياأستاذ فتحى يادمنهورى .

كان ساعى البريد ينادى ساكن الدور الأول ويدق بابه ، قال نبيل :

- لا يوجد بالشقة أحد منذ عدة أيام .

جواب لوالدته . تستلمه ؟

- استلمه .

كان الراسل ابنها الدكتور رمزى الدمنهورى، مستشار الرئيس الأمريكى بوش لشئون التعليم . تذكر أن فتحى طرد أمه منذ شهور ، وذهبت إلى ابنتها فى المنيل وبقيت عندها أسبوعين وعادت إلى فتحى فطردها من جديد ، ذهبت إلى ابنتها الثانية فى شبرا الخيمة . بقيت شهرا ثم عادت إلى فتحى فطردها من جديد .. اختفت شهرا ، لا أحد يعلم أين كانت، إلى أن ظهرت منذ أيام فى «الخرابة».

قرأ المكتوب على المظروف :

إلى أخى الغالى الأستاذ فتحى الدمنهورى ، ومنه إلى أمنا الحبيبة .

- أمنا الحبيبة فى الخرابة .

ذهب إليها . وجدها فى ركن تحت شجرة ، تحك ظهرها فى جذعها وتقلب فى جلباب قديم .

دنا منها وسلمها الخطاب ، سألته عن الراسل . أخبرها أنه من طرف ولدها د. رمزى. سالت من منابعها دموع ساخنة .. لحظات ونبيل يربت على كتفها إلى أن سالت دموعه . طلبت إليه أن يقرأ لها الخطاب . تذكر موعده مع حافظ . رأى من الأفضل أن يقرأ الخطاب .. نظر حواليه بحثا عن شيء يجلس عليه . وجد دلوا قلبه وقعد فوقه برفق وحذر . تحمله الدلو البلاستيك .. شرع يقرأ .

أمى الغالية.

منبع الحنان والحب .. الأرض التى لاغنى عنها ..الوطن الأول .. أبدأ خطابى بتقبيل يديك الطاهرتين وقدميك ورأسك الشريف ، وأطلب عفوك لتأخرى فى الكتابة إليك ، فالمشاغل كثيرة وقد أرسلت عدة خطابات لفتحى فلم يرد .. لعل المانع خير . هذه هى ثانى مرة أكتب لك مباشرة ، أملى أن تكونى بخير .. إنك النور الذى أمشى على هداه ويسبقنى على الطريق .. أنا لا أنسى حماسك وكلماتك المشجعة لنا جميعاً وتفاؤلك بنا ، وقولك أننى فخورة بكم ، وأثق أن الله سيرضينى فيكم ويسعدنى بكم . يانور عيونى . ما أحلى كلامك المحفور فى قلبى .. كثيرا ما أحكى لزملائى ويسعدنى فى الجامعة ، عنك وعن كلامك فيدهشوا حين يعلموا أنك لا تعرفين القراءة حتى الرئيس بوش حدثته عنك فطلب منى أن أذكره بعيد ميلادك ليبعث إليك مع السفير باقة ورد .

هل أعجبتك صورى وأنا أتسلم جائزة الأمم المتحدة . لقد أرسلتها لك فى الرسالة السابقة . لابد أنك فرحت . وهل رأيت صورتى مع الملكة اليزابيث . لقد دعتنى لزيارتها فى العام الماضى وكذلك الامبراطور أوكهيتو دعانى لإلقاء محاضرتين فى اليابان ومثله الرئيس الصينى دنج زياوبنج .. تمنياتى لك بكل سعادة وصحة ، أما عنى فكل الأمور بخير . وقد وصلتنى عدة دعوات من مصر. من وزارة التعليم ومن رؤساء عدد من الجامعات والهيئات والصحف .. سوف أرتب مواعيدى لأحضر إلى مصر ، .. هدفى الأول رؤيتك ..دمت لولدك المحب.

حاول نبيل أن يقرأ بسرعة ، لكنها كانت تطلب إليه التمهل والإعادة وتفسير بعض الكلمات .. السحالى تمر ، والشمس ترتفع وتصب نارها على ظهره الذى لم يكن تحت الشجرة، والذباب تجمع كله فوقه ، والروائح القذرة لاتسمح له أن يأخذ شهيقا أبداً، وبعد أن أوشك على الوقوع مغشياً عليه ، استأذن من السيدة أنصاف أم رمزى كى يذهب واعداً إياها بأن يعود لزيارتها .. لم تلتفت إلى كلماته الأخيرة وإشفاقه على نفسه وعليها ، فقد انهمكت فى تقبيل الخطاب ولثم كل كلمة فيه وريها بالدموع ، بدت كأنها تلحس الحلوى التى كانت على الورق.

توجه إلى حافظ . وجده عند شكورة أمام المدرسة يأكل الفول المدمس بالزيت الحار والبصل والخبز المحمص الذى يقرقش فى أسنانه .

رحب به حافظ ودعاه للفطور . رفض نبيل بتأفف من جمع الواقفين المنهمكين فى الأكل .. عشرة أفراد يتكدسون حول العربة الخشبية بينهم صاحبها ، يعمل بمنتهى المهارة فى تجهيز الأطباق وتموينها وتقديمها لطالبيها حسب مزاج كل منهم الذى يعرفه ، منهم من يحب السلطة على الفول ، ومنهم لايحبه إلا غارقا فى الشطة ، ومنهم من يريده بالطحينة، ومنهم من يريده بالسمن ، ومنهم من يريده بالزيت العادى والليمون ، ومنهم من يأكله فى السندوتشات.. كل الأفواه تعمل والأيدى تسبقها وتجهز اللقم وتتناولها الأسنان .. الضروس تعمل والعيون لا تنظر إلا إلى الأطباق ، ومن ينتهى من طعامه يتراجع عن الصدارة ليدخل غيره ، وهكذا من السادسة صباحاً حتى العاشرة .. يتوالى عشرات الراغبين فى فطور ثقيل يعينهم على أعمالهم حتى الثالثة عصراً . وكل هذا يجرى فى الشارع وتراه كل العيون العابرة.

ذهب نبيل مع حافظ إلى أخيه سلطان فى الحمام الذى يملكه ويديره فى الجمالية والشهير بحمام سلطان . اتصل من مكتبه بشخص اسمه أمين شطارة . أخبره أن أحب أصدقائه سيكون عنده بعد ساعة اسمه نبيل الفار دارس عالى ويريد السفر ، ولابد أن يكون فى أول الكشف .

كتب سلطان عنوان شطارة وأعطاه لنبيل . رحب به شطارة وقال:

– سلطان رجل وخيره على . الشخص الذى يرسل التأشيرات يطلب خمسة آلاف للتأشيرة، يكفى من أجل عيون سلطان أن تدفع ثلاثة ونصف ثمن التذكرة والمصروفات الإدارية .

فى هذا اليوم كانت هنية قد قررت أن تلبس وتتزين وتنزل إلى الشارع تتمشى. تخلص نفسها من الحبسة التى تمسك برقبتها وتقبض على روحها . كانت تفكر فى الرجال الأنذال الذين لم يعد فى عيونهم نظر ولا فى عروقهم دم ولا فى رؤوسهم عقول ، ثم عادت وقالت :إنها بين أربعة جدران لا ترى أحدا ولا يراها أحد، كيف يتسنى لهم أن يعرفوها ويحكموا ويتقدموا!!.. إذن عليها أن تأخذ زمام المبادرة .. سوف تخرج على الأقل مرتين فى الأسبوع حتى لا تكون لهم حجة ، وبينها وبين نفسها كانت لديها الأدلة على أن بنات كثيرات تزوجن وهن لاينظرن حتى من الشبابيك .

فى هذا اليوم الذى خرجت فيه ولم تحظ حتى بالمعاكسات المجانية ولو من عيال حفاة متشردين .. فى هذا اليوم عاد إليها نبيل عند الظهيرة وقال لها:

– حافظ شارودة يطلبك . ما رأيك؟

قالت على الفور :

– المهم رأيك .

قال نبيل وهو يدخل غرفته مختبئا :

– حافظ فيما يبدو ابن حلال .

خضعت هنية طوال أسبوع لعمليات تدليك فى الحمام ، وتدليك فى البيت ، وقبل يوم الخطوبة قامت أمها بالواجب فعملت فيها عدة ساعات ، دققت كما لم تدقق من قبل فى امرأة ، حتى اشتكى جسمها نفسه . كل من لا يعرف أهمية أصحاب هذه المهن وحتمية وجودهم فى الحياة ، لابد عرفوا بعد أن رأوا هنية بعد التعديل . عروسة حقا ، بدت ملامحها جميلة وبيضاء وناعمة ، ومن رآها لأول مرة مثل خالة حافظ ذات التأثير، وبعض المدعوين تأكدوا أنها جميلة من الأصل وأن

حالتها ليست كلها من إنتاج فنيين ، والفضل ليس كله للتسريحة أو الألوان ، فلن تستطيع الماشطة أن تخلق كل الجمال .. لكنها فعلت والبعض لا يعرف ، وقد كان هناك بعض الفضل للكوافير خاصة بالنسبة للشعر .

كانت السعادة تشمل جميع أهل الدار حتى اللحظات قبل الأخيرة ، عندما وصل الخبر إليه بأن أخاه سلطان قبض عليه ، وهو متلبس باستلام شحنة مخدر من نوع ريهبانول المشهور باسم «أبو صليبة».

جرى حافظ على فتحى المحامى ابن الشيخ إبراهيم ..المشهور بقدرته على أن يخرج الجمل من ثقب الإبرة.

تشاءم حافظ لكنه كان على قناعة أنها صدفة ، وأن هنية كانت أجمل مما تصورها ورآها مرتين .. عليه ألا يفكر الآن إلا فى أخيه الذى سيساعده فى تجهيز الشقة.

(٢٠)

لقد عثرت بك على وجودى الذى لم يكن له وجود .. كنت شيئاً موزعا هنا وهناك .. أمضى فى اللا مكان .. لم أكن أرانى ، والآن أرى وجهى أمامى بلا مرآة ودون أن أتطلع إلى صفحة المياه.

أنت لم تشهدى من قبل تلك الصحراوات التى تمتد داخل أعماقى لأنك عندما نظرت إلىّ، تراجعت فجأة تلك السحراوات وتلاشت تدريجيا تحت نقرات الاخضرار البديع الذى تسقط عليه لأول مرة أشعة شمس الحياة .

تعالى والمسى بهمس روحك الناعمة تلك القطيفة المورقة فى وديان قلبى ، أنصتى لجلال أغنياتها التى تنشدها لروعة الخلق والخالق . جرى جرى على الأرض ثوبك الطويل المضمخ بالحب ، ودعيه يزرع قفر القلوب حنانا وجمالا وحبا نقيا خالصا من أدران الامتلاك ، مترفعا عن الأفكار المتعفنة السقيمة .

تستطيع الإنسانية أن تنعم بالهدوء والسلام وهى تتمشى بين زهور الحب فلن ترعى الأفاعى فى مثل هذه المراعى ، وسوف تتسلل الطمأنينة إلى الأفئدة التى طالما ساورها القلق لأنها كانت تسكن فى سفوح الكون الصخرية . تحيط بها أنياب الكراهية وتزمجر حولها ذئاب الأنانية والجشع .

عندما تبتسم زهور المحبة ويطير عبقها هفهافا شفافا فرحا يرقص فوق الرؤوس ويمسح الجباه ، تختفى كل وساوس الرعب والخوف من المجهول والمعلوم. المحبة كفيلة أن تكنس أدران العالم جميعها من داخل الأرواح ومن الطرقات والأركان والدروب المحبطة.

ومع ذلك فأنا لا آمن على حبنا غدر من يتربصون بالجمال فى كل مكان، ومن الحماقة ألا أفكر فى حمايته بروحى روحك ..

فخذى من قلبى وقلبك لتبنى عشا لحبنا .

خذى من أملى وعمرى ونور عيونى

خذى من روحى ونفسى وأحلامى

لتبنى عش حبنا
إذا لم ننسج قشه من أرواحنا ودمانا
سيكون خرافة ، ويكون وهما، ويكون
فى متناول أحجار الحاقدين
فخذى من وهج عيونك وأمواج شعرك
واقبسى من نار خديك
لتدفئى عش حبنا ، الذى يجمع خلاصة شخصين
هما فى الأصل كانا واحداً،
فمنذ بدء الخليقة ولدنا معا .. أنا وأنت

لقد ألقيت حلقات قلبى على أقمار البنات كى تصيد قمرا ، فلم تستطع أن تلتقط واحداً منها، وظلت روحى تتسكع فى الزمن المجفف.

والآن .. ها هو قمرى قادم إليك .. سيتوحد بك .. سوف يقطع آلاف السنين القادمة فى دقائق .. إن زمنى مختلف . استعدى واضبطى إيقاع قلبك ، فعالم جديد خاص بنا، سنخلقه خلقا ، يضمنى ويضمك ينغلق علينا ويكون باتساع العالم ، نشعل زمانه ونستدفىء إذا الشتاء جاء .. لا تصدقى أحدا إذا قال – ونحن معا – أن الشتاء جاء . صدقى فقط سيد درويش وهو يقول : أنا هويت وانتهيت، فإنه يقصدنى.

اكتب هذه الكلمات وأنا فى الإسكندرية . قدمت فى مهمة وسوف أعود بعد غد .. دائماً طيفك معى .. وقد رافقنى إلى شرفة الفندق المطل على شارع عمودى على البحر متفرع من الكورنيش .. كنت أود أن تكونى معى ، لكن ذلك بالتأكيد سيتحقق يوماً وما أحوجنا اليه .

حبيبتى ..اطمئنى فطفل حبك يتراقص فى قلبى وأمام عينى .. أقربه إلىّ وأعانقه بقوة وحنان ..الطفل طرى وحى ونابض ومثلك غال جداً .. جداً .. تشع من وجهه بسمة مشرقة .. أداعبه .. أدغدغه .. يضحك الرضيع ويقهقه.

رنت ضحكته وتهادت إلىّ بهجة وهناء .. أداعبه وأدغدغه .. يضحك الرضيع ويقهقه .. تتصاعد وتتمدد أصداء ضحكته فى كل اتجاه .. الضحكة حملتنى فى معراج طويل وكبير من الأرض إلى السماء العاشرة .. مررت وأنا طالع على كل من سبقونى فى سكة العاشقين .. جميل وقيس وعنترة وانطونيو وروميو .. كل عتاة الحب الجبارين ، قالوا لى : لايهمك .. تمسك بحبك مهما جرى . الحب إحساس مجنون ورائع ، لكنه صنع إلهى مائة فى المائة ..

(٢١)

التقينا بعد غياب فرضته امتحانات الفصل الأول .. جلسنا على شاطىء النيل أمام قصر المانسترلى .. بادرتنى : كنت قد وعدتنى أن تحدثنى عن بعض أحداث التاريخ المهمة .. أرجو أن تفى بالوعد .

– مارأيك . أحكى لك عن رحلة العائلة المقدسة إلى مصر .. ربما لا تكون عندك فكرة عنها .

– أنا أعرف أن المسيح والسيدة العذراء جاءا إلى مصر ، لكنى لا أعرف التفاصيل.

– كل واحد يعيش فى مصر ، مسلم أو مسيحى لابد أن يعرف شيئاً عن زيارة السيدة العذراء وولدها وخاصة من كانوا مثلنا نعيش فى مصر القديمة – وهى من أكثر الأماكن ارتباطاً بالرحلة وأكثرها امتلاءً بآثارها .

– وسيدنا إبراهيم جاء أيضاً إلى مصر .

– مصر كانت قبلة معظم الأنبياء ، كما كانت نقطة تحول فى سيرتهم الشخصية والدينية بدءاً بإبراهيم ، ومروراً باسحاق ويعقوب وأسباط بنى إسرائيل وطبعاً موسى وإرمياً إلى المسيح عيسى، ومن الأنبياء من جاءها ميتاً ، فيقال: إن بها جسد يوحنا المعمدان إليسع.

– ولا تنس الصالحين.

– الصالحون الذين زاروا مصر لا حصر لعددهم.

– جاءت أم النور إلى مصر هربا من هيرودس.

– كانت مجموعة المجوس وهم علماء فارس المشتغلين بالفلك قد رأوا نجماً غير عادى يتألق فى السماء، لفت أنظارهم فتتبعوه وعرفوا أنه يشير إلى طفل ولد فى بيت لحم ، سيكون ملكاً على فلسطين ويصبح فى الدنيا ذا شأن عظيم، علم هيرودس ملك فلسطين بالخبر وسأل عن الطفل فلم يدله أحد عليه ، ولذلك أمر بقتل كل الأطفال دون السنتين، واحتارت السيدة العذراء ماذا تفعل ؟ وكيف

تحمى طفلها المقدس الذى تثق ثقة لاشك فيها أنه من تحدث عنه علماء فارس، وإذا بيوسف يرى ملاكاً فى الحلم يطلب إليه أن يأخذ الصبى وأمه ويهرب إلى مصر .

– يوسف هذا ليس النبى يوسف طبعاً.

– لا .. هذا يوسف النجار خطيب العذراء.

– خطيبها ؟

– نعم أصل الحكاية ياستى إن والديها بقيا واحداً وثلاثين سنة دون إنجاب وظلا يطلبان إلى الله أن يمن عليهما بولد أو بنت ، فلما وهبهما الله البنت ، قررا أن تكون من نصيب الرب وقدماها فعلا وهى فى الثالثة إلى بيت الرب لتخدم فيه، جاء فى القرآن الكريم (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً) ، وكانت فى بيت الرب فى رعاية زكريا .. يقول القرآن (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب).. وهى فى السادسة توفى أبوها وفى سن الثامنة، توفيت أمها، وعندما بلغت الثانية عشرة وهى سن البلوغ للبنات ، كان لابد أن تغادر بيت الرب ، لكنها كانت يتيمة ، لا أهل لها ، لذلك رأى الكهنة أن تكون فى حماية رجل.

– فخطبها يوسف .

– أصبرى .. قبل ذلك سعى الكهنة إلى تسريب خبر فى كل المدينة بأن مريم بلغت سن البلوغ وليتقدم إلى البيت من يريد خطبتها من الرجال .. لماذا تبتسمين؟!

– أبداً .. لم يسبق أن استمعت إلى هذه القصة الطريفة .. مالك ياعلى .. هيا أكمل .

– تقدم عدد من الرجال يطلبونها للزواج . احتار الكهنة وأخذوا يفكرون فى الحل المناسب، حتى رأى رئيسهم حلما هداه إلى الحل ، كتب اسم كل طالب على قطعة صغيرة من غصن شجرة قديم مما يستخدم فى الوقود . وفى الكتابة أيضاً بعد تسويته وبريه ، وتركوا هذه الأخشاب فى الهيكل حتى الصباح

ليتعرفوا على اختيار الإله ، يقول الله فى القرآن الكريم : «وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون» وبهذه المناسبة هناك سورة كبيرة باسم آل عمران ، هى الثالثة بعد الفاتحة والبقرة مباشرة ، وهناك سورة لمريم.

فى الصباح دخل الكهنة الهيكل فوجدوا أن العصا الخشبية المكتوب عليها اسم يوسف النجار قد ازهرت ونبتت فيها البراعم ، وأصبح يوسف من هذه اللحظة هو خطيبها والمتكفل بكل شئونها .

- رافق يوسف السيدة العذراء وابنها إلى مصر .

- وتذكر بعض الروايات أن سالومى العجوز كانت معهم .

- سالومى التى حرضت ابنتها الراقصة الجميلة على طلب رأس يوحنا المعمدان من هيرودس.

- يقال : إنها هى ، وقد شعرت بالذنب الفادح الذى تورطت فيه فأرادت أن تشارك فى حماية الطفل المقدس ، ويوحنا كما أظنك تعرفين الذى ذبحه هيرودس هو ابن زكريا العجوز الذى كان يرعى مريم.

- وهكذا خرجت العائلة المقدسة من مصر .

- كانت السيدة العذراء تحمل على ذراعيها المسيح وتركب حماراً يمسك بمقوده يوسف ، وكان طبيعياً أن تسير العائلة فى طرق مهجورة وغير معبدة، بعيداً عن الطرق المعروفة تجنباً لملاحقة رجال هيرودس ، فكانت الرحلة شاقة لأنهم صعدوا الهضاب وخاضوا فى البرارى وعبروا الصحارى وقاسوا حرارة الشمس فى النهار وشدة البرد فى الليل مع قلة الطعام والماء، لكن عناية الله دائما كانت معهم .

- لم تنته الصحراء إلا مع وصولهم أول مدينة وهى فيما أظن العريش .

- كانت أول مدينة هى العريش وكانت تسمى الفرما ، واستمرت الرحلة على رمال الصحارى حتى مدينة بسطا القريبة من الزقازيق .. واستراحت عدة أيام وأكملت حتى مسطرد وبعدها اتجهت شمالاً إلى بلبيس ، وواصلت الاتجاه شمالاً

حتى وصلت إلى مدينة سمنود ثم عبرت النيل إلى سمنود ، وبعد الإقامة عدة أيام مضت العائلة إلى سخا التابعة لكفر الشيخ ، وبعدها عبرت نهر النيل (فرع رشيد) وتحركت جنوباً إلى وادى النطرون ثم ارتحلت جنوباً إلى القاهرة حيث أمضت وقتاً فى المطرية وعين شمس قبل أن تأتى إلى هنا فى مصر عتيقة، وبعد أن مرت بمنطقة الزيتون وحارة زويلة .

– هايل ياعلى .. أنت تحكى الرحلة كأنك كنت معهم .

– هناك تفاصيل أخرى عند كل محطة لم أتوقف عندها حتى لا أطيل وحتى لاتظنين أنى أستعرض معلوماتى ..

– يهمنى أعرف أين سكنت العائلة المقدسة فى مصر عتيقة .. أو مصر القديمة.

– مصـــر القديمة .. كانت من أهم المحطات التى استقرت بها العائلة المقدسة ، ويقال : إنها سكنت مغارة تقع الآن تحت كنيسة أبو سرجة وسط حصن بابليون ، ونظراً لأهمية مصر القديمة فى رحلة العائلة المقدسة وبقائها فترة زمنية أطول من غيرها فقد أقيمت كنائس كثيرة وأديرة بالإضافة إلى المتحف القبطى.

– وبعد مصر القديمة .

– اتجهت العائلة جنوباً عن طريق المعادى إلى البدرشين بمحافظة الجيزة ثم البهنسا وسمالوط واستراحت على قمة جبل الطير شرق سمالوط ثم عبرت النيل إلى الغرب نحو الأشمونين وبعدها ديروط الشريف إلى مير، وبعدها جبل تسقام حيث يوجد الآن الدير المحرق ،ويقع غرب بلدة القوصية التابعة لمحافظة أسيوط وكان هذا الموقع هو آخر محطة للرحلة جنوباً وبعد إقامتها فترة ظهر لمريم ملاك يأمرها بالعودة .

– فهل عادت من نفس الطريق ومرت بنفس البلاد؟

– لم أعثر على مايفيد ذلك ، كل ماأعرفه أنها مرت عند رجوعها على جبل درنكه الواقع على طريق أسـيـوط الغنايم .. وأنا أرجح أنهـا لم ترجع من نفس

الطريق ، وأظن وبعض الظن ليس إثما .. رجعت بشكل أسرع ومستقيم إلى حد كبير لأن أخبارا مطمئنة قد وصلتها .

– على ، أجبنى بالصدق أو أرفض الإجابة .. هل تحب المسيحيين؟

– أنا أحب البشر وأقدر كل من يفعل الخير حتى لو كان ملحداً، لكنى لا أصاحبه.

– ملحداً .. أعوذ بالله .

– الملحد يجب أن ندعو له بالهداية ، أقصد أن فعل الخير عندى هو الأساس ، فالمسلم الذى لا يفعل الخير ، أتجنبه لأنه خطر وكذلك المسيحى واليهودى .. البشر فى حاجة إلى التعاون والمحبة وبدونها تفشل الحياة .

– لا أريد أن يمضى الوقت أبداً ، حتى لا أضطر لفراقك.

– لن يمر الوقت أبداً .. ها هى الساعة .. هيا أعيديها إلى الوراء عدة ساعات.

تضحك وهى تمد يدها وتسلم .

أمسك بالكائن الطرى الجميل وأحط عينى فى عينيها لأروى روحى قبل الودا ع..

اتذكر بن جونسون فله قصيدة مطلعها : بادلينى نخب عينيك

أعود إلى البيت ليس كمثلى أحد ..استعيد صوتها عذب النبرات ، تتردد بأعماقى وحوالى كلماتها كزقزقة العصافير .. موقعة .. أجمعها فى خيالى وأبنيها فراشا ، أشكله كما أهوى . أصعد إليه وأتمدد .. احتضن الفراش الصوتى الخالص، أندس فيه بقوة حتى اختفى فى نسيج الصوت الماجدى الناعم . يتداخل النسيج ويتداخل . يتضاءل حتى يصبح نقطة ، تطلق عبيرها وتختفى وتسبح الحجرة كلها فى الشذى.

(٢٢)

شغلته الفكرة . شغلته تماماً ، ملأت نهاره . حاصرت ليله . تمشت فى خاطره وأحلامه .. تربت فى خياله . كبرت وكبرت حتى غدا يظهر لنفسه على المسرح نجما متألقا، تحيطه الأضواء ويلتف حوله آلاف المعجبين ، ترتمى البنات الأرستقراطيات تحت قدميه. ينثرن عليه الورود ويحاولن لمسه ، كثيرون يطلبون التوقيع ، وهو لايعرف كيف يوقع، منذ طفولته وهو فى الورشة ، لم يغادرها يوما.

فى الصبا .. أفاق من الغفلة الأولى وتسلل إليه الوعى ، فوجد نفسه متسخاً بالزيوت .. يتلقى الصفعات على قفاه «والشلاليت» فى مؤخرته ، ولما كبر قليلا توقفت الصفعات وحلت محلها أقذع الشتائم وأقبح السباب الذى لايرحم أما أو أبا ، فأمه من «الشراميط» وأبوه من الأوساخ «اللمامة» .. والآن هو أسطى قد الدنيا يعرف عيب السيارة وهى قادمة من بعد ..، انتهى عهد الاستقبال وبدأ عهد البث ، فهو الآن يكيل كل ماتجمع فى ذاكرته من شتائم لآباء وأمهات المساعدين ، أما الصبية فعليهم أن يتسلموا كل ما ناله بدنه من الركلات ، وقفاه من الصفعات .

بعد كل هذا التاريخ الذى لم يظهر فيه إلا ملوثا بالشحم والزيت ، ورائحته التى تسبقه خليط من البنزين والسولار ، ها هو يرى نفسه بعين الخيال والأمانى فى الصورة التى يشتهيها ولا يكف عنه تصورها ورسمها ، وإضافة اللمسات الجمالية التى ترضيه وتجعله مختلفا عن أقرانه وسابقيه ، يرى بعينه الجماهير المعجبة بصوته الساحر لا تستقر على مقاعدها ، تقوم وتقعد يميناً ويساراً ، تلفها جاذبية المغنى البارع والصوت الشجى والأداء الآخاذ، تستولى على العقول عبقرية الفتى الموهوب .. تطويهم دائرتها فيرتبطون بصاحبها ويتخلون تماماً عن كل ماعداه ، يحملون صوره فى أطر ذهبية معلقة بسلاسل تتدلى من رقابهم جميعاً ، وكثيرون منهم يضعون صوره الفوتوغرافية تحت الوسائد وفى الكتب وعلى الجدران، وهو يبتسم وقبضة يده تحت ذقنه ، بينما نظراته الساحرة الغامضة

تدقهم إلى الأرض إذا حاولوا النظر إليه ،وصوته الخلاب الجديد الآسر فى أجهزة الكاسيت بالبيوت والسيارات ومع العمال فى المصانع وفى كل الإذاعات .. فى الشوارع .. يضعه الشباب على آذانهم ، ويتراقصون معه دون أن يحسوا بما حولهم ، وينزلون إلى نهر الشارع المزدحم ، ويصرخ أصحاب السيارات غضبا ، لكنهم عندما يعلمون أنهم يستمعون إلى جمعة ، يعتذرون لهم لأنهم معذورون ، فصوته استولى عليهم وأنساهم أنفسهم وما حولهم.

فى الصحراء تتدلى أجهزة الترانزيستور من سقوف الخيام ، وفى المزارع تتعلق الأجهزة التى تبث أغانى جمعة من الأشجار وفوق ظهور البهائم، والفلاحون مقبلون بشهية على الحرث والعزق والرى ، لايشعرون بالتعب ولا بالحاجة إلى طعام أو شراب ، الغذاء يقدمه لهم جمعة حيثما كانوا .

أغانى جمعة فى كل مكان . فى المستشفيات . فى الميادين ومع الأولاد فى المدارس والجامعات ومع الجنود فى السلم والحرب ، فوق الأرض وتحت الأرض وفى الطائرات والقطارات والسفن ، صوره فى الشارع على كل الجدران ، حتى أن رئيس الوزراء سأل عن حكايته وزير الإعلام ،وبعده وزيرا الداخلية والتربية والتعليم إلا أن وزير الثقافة صرح بأن الكرة فى ملعب وزيرى الشئون الاجتماعية والبيئة، وكلاهما اعتذر لعدم الاختصاص، فالمسألة على الأرجح تتبع السياحة والصحة والنقل والمواصلات ، وانتهى الأمر بالاتصال بوزير الدفاع الذى ارتأى أنها مسألة محلية يمكن التعامل بخصوصها مع المحافظين .. لكن المحافظين اعتذروا لأن الموضوع خرج من أيديهم ولم يعد بمقدورهم السيطرة على هذه الظاهرة الجديدة الغريبة التى وصلت إلى بيوتهم .. فبنات الوزراء لايردن الزواج إلا بحضور جمعة . لابد من ظهوره حتى لو لم يغن ، يكفى أن يراه المدعوون ويعرفون أنه حضر فرحهن ، ويقول أولاد الوزراء لآبائهم فى صوت واحد:

- أنتم دقة قديمة .. خذوا عيوننا ، واستعيروا آذاننا لتروا جمعة على حقيقته وتستمعوا لصوته . إنه معجزة . «فلته».

مضى جمعة يدور فى فلك أحلامه وأسر أمنياته حتى لم يعد ينام ولم يرحمه أصحابه، ولم يحاولوا التخفيف من تضخم أمانيه .. فإذا غنى هاجوا وصرخوا وأعلنوا بكل قوة وحماس :

– والمصحف ولا عبد الحليم ..

يبتسم فى تواضع ثم يغنى ، فيصيحون إعجابا .. لا أحد يعرف السر وراء هذا الإعجاب . كان جمعة نفسه يشك فى البداية ، لكنه بمرور الوقت وخاصة بعد أن غنى فى الحمام وتردد صوته بين الجدران فى الحيز المخنوق ، وردته الجدران إليه، لم ينزعج ، وجده فعلا كما قال عنه أصحابه :

– جميل .. جميل جداً .

راجع نفسه متشككا فيهم .. هل هو مجرد نفاق ، أو بسبب المحبة والصداقة لم يجد مبررا لذلك .. لايطعمهم ولا ينفق عليهم ولا يحقق لهم أية مصالح، وليس بينه وبينهم إلا الكلمة الطيبة والمودة ، فلماذا لم يمتدحوا صوت غيره؟!

قالوا له :

– لابد من شريط كاسيت يوزع فى الأسواق ، ودع الحكم للناس .

عندما امتلأ البالون بالهواء حتى كاد ينفجر ، ذهب جمعة إلي إحدى شركات إنتاج الأشرطة . كشف لهم سر حضوره وهو أنه ذو صوت جميل . يحوز إعجاب كل من يسمعه. طلب أن يتفقوا مع مؤلف كلمات وملحن وفرقة موسيقية لتسجيل أغانيه تمهيداً لطبع شريط .

فوجىء بمسئول الشركة بعد أن سمع صوته يقول له :

– إن الشركة لاتستطيع أن تساهم فى هذه المغامرة المحكوم عليها بالفشل الذريع، ويمكن أن ندلك على بعض المؤلفين والملحنين، وعليك أنت الاتفاق معهم وتسجيل الأغانى، والشركة مستعدة لطبع الشريط على حسابك ، والخدمة التى يمكن أن نقدمها لك هى توزيع الشريط فقط مقابل نسبة ٤٠٪ من الثمن المباع.

قبل أن ييأس شجعه أصحابه على المضى فى الطريق مهما كان الثمن ..توجه إلى أحد الملحنين الذى اصطحبه إلى أحد المؤلفين . عرض عليه المؤلف الأغانيِ الجاهزة ليختار منها ما يشاء . اختار مع الملحن خمس أغانى . دفع جمعة مقدم أتعاب والباقى بعد طبع الشريط.

أقسم الملحن بعد ذلك أنه أوشك فى عدة مرات وهو يدربه على اللحن أن يكسر العود، وأقسم أنه قرر من أجل جمعة أن يهجر هذا المجال تماماً، واكتفى بأن كان يدعو عشرات المرات بخراب بيت الذى علمه الموسيقى.

(٢٣)

لست أذكر الآن من الذى قال :

مثل غزال نظرة ولفتة	من ذا رآه مقبلا ولا افتتن
أعذب خلق الله لفظا وفما	إن لم يكن قد تاه بالحسن فمن ؟

فى مكان ما .. بين السما والأرض جلسنا .. تتمشى حولنا أشجار رشيقة الجذوع ، أوراقها شديدة الخضرة .. تتهامس فيما بينها وتتبادل المواقع وتجرجر خلفها جذورها التى تكاد تبدو لنا تحت أرض شفيفة ، كأنها مغروسة فى الماء .. يتناهى إلينا أوركسترا العصافير السابحة فى بحر السماء الوسيع .. أصواتها البريئة العذبة تبدو كأنها تنسج عشا مخمليا غير مرئى .. تواصل العمل فيه بدأب .. عشاً لا تراه الريح ولا يلحقه الفناء .

قالت : شارد أنت دائما .. فيم تفكر ؟

قلت : فيك

قالت : أنا أرى تفكيرك ، وقليلا ما تنطق غير الصدق

ابتسمت .. فابتسمت

قالت : اعترف

قلت : أتصور الأرض هى الأم والسماء هى الأب ، ونحن الأبناء . السماء من بعيد ترنو إلى الأرض وتهفو لها ، تتمنى أن تنحسر المسافة ، ولما يؤرقها الشوق ترسل دفئها وماءها ، رسولا المحبة .. ترتوى الأرض وتثمر الأبناء ، تطعمهم وتحنو عليهم .. ترعاهم وتتمسك بهم .. إنها تشعر أن ضخامتها لا قيمة لها بدون وجودهم ، وأن دبيبهم عليها حياة لها .

قالت : إذن هى علاقة من طرف واحد .. السماء أرسلت والأرض أنجبت

قلت : تشتاق الأرض الى حنين السماء ، فتبعث ببخار بحارها .. يتلقاه زوجها السماء بابتسامة ، ويستبقيه عنده طبقة فوق طبقة حتى يتكدس فى سحب ، ثم يبعثه ماء ، تعبيرا عن أشواقه ورغبته فى لقاء الأرض التى تغمض عينيها وتشرب ، وتنتشى ، وتورق وتعانق البشر وتجدد الوعود .

سألت : هل قرأت هذه الفكرة فى كتاب أم أنها من بنات تأملاتك ؟

قلت : الحقيقة أنها من بناتى ، لكنى فوجئت أن شيئا مشابها ورد فى القرآن الكريم يؤكدها ، وسببت دهشتى وقتا طويلا ، ودفعتنى إلى إعادة قراءة القرآن مرة ومرة .. يقول الله فى سورة الأنبياء (٣٠) «أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون» .

سألت : ما معنى رتقا ؟

قلت : أى شيئا واحدا .. أو شيئين مضمومين ملتحمين .. عاشق ومعشوق

تأملتنى لحظة ثم قالت : مثلنا

رقص قلبى .. ها هى بدأت تبوح .. وقد كانت حريصة جدا فى التعبير عما يخالجها من مشاعر .

قلت : تماما

قالت : السماء عينها على الأرض دائما ، وأنت لا ترانى إلا بصعوبة

قلت : أينما أستدير لا أرى سواك . عيناى دائما عليك وعيناك تحاصرانى ، وتصب فى روحى نظراتها الفاتنة ، وتنتشر فى دنياى خصلات شعرك ، وتورق فيها غابات الربيع ، أما شفتاك الورديتان فتحملان لى همس قلبك فينبت الوعد الجميل فى أعمق أعماقى ، وأنتشى مبتهجا بحلاوة الحب الذى لا أحسه نحوك فقط ، ولكن نحو كل المخلوقات .

قالت : يريد أبى أن نذهب إلى الصعيد ونبقى هناك .

قلت : سوف يتبعك حبى أينما كنت .. انه لا يعرف قلبا غير قلبك يسعى إليه ، وسوف يقتفى أثرك حتى لو دفنوه لمدة ألف عام وحملوك بعيدا إلى آخر الدنيا ، لا الزمان إذا انطوى ولا المكان إذا ابتعد ليحولا بينى وبينك فنحن فوقهما ولا تنطبق علينا قوانينهما .. ولقد برمجت الأقدار قلبى بحيث لا يدق إلا بسر جمالك ، وخلطت بدمائه خلاصة السحر فى كينونتك المميزة .. لذلك .. لا تقلقى على .. لن تقتلنى رصاصة ، ولن يغرقنى بحر ، ولن تحرقنى نيران الجحيم ، ولن تصعقنى كهرباء الدنيا ، لكن ذلك يمكن ان يحدث فى يسر ، وفى لحظات إذا أنت أغلقت دونى أبواب قلبك

قالت : هل ترانى حقا جميلة ؟

قلت : جمالك جمالين .. جمال الشكل وجمال الروح .. ملامحك فيها تواضع وجبروت .. فيها حياء وغواية .. هدوء وثورة .. كائن بديع وساحر .. أنت أصبحت أسطورة فى نظرى خلال شهور قليلة .. والبدايات كانت لا بأس بها لكنها الآن مختلفة تماما .

قالت : هذا كلام المحب

ضحكت وقلت : ربما

ضحكت وقالت : إذن جمالى وهم

قلت : لا تغيرى الموضوع

قالت : لا أغيره ، لكن لماذا لا تعتقد أن الحب هو الذى فجر الجمال ؟

قلت : الجمال هو الطريق إلى الحب

قالت : وبعد الحب

قلت : جمال

سألتنى : يعنى أنت أحببتنى لأنى جميلة ؟!

قلت : نعم وأنت

قالت : أنا أيضا أعجبنى شكلك ورسمك وطريقة كلامك ثم مظهرك وتأكد الحب لما لمست حنانك .. أهم ما فى الرجل الحنان .

قلت : لكن شكل الرجل ليس مهما

قالت : أول ما تراه عين المرأة الجمال .

قلت : تحب المرأة البيضاء أحيانا رجلا أسود .

قالت : الأسود ليس دميما ، ولكنه مجرد لون ومع هذا فهى حالات استثنائية تفرضها ظروف ، فقد يكون الوحيد القريب منها أو له موقف يتسم بالمروءة النادرة فى مأزق تمر به .

قلت : وما رأيك فى العلم والمال كأسلحة للرجل ؟

قالت : يمكن أن تؤدى إلى زواج غير مضمون ، لكنها لا تفضى إلى الحب الحب له أسباب أخرى

قلت : أحيانا أشعر أن المرأة فيلسوفة بالفطرة .

قالت : ليست فلسفة ، لكنها الغريزة والإحساس العميق بالحياة .. قدرات بثها الله فيها فى مقابل أخرى منحها للرجل ، حقوق شرعية تجعل له الوصاية والولاية.

قلت : دعينى احك لك حلما .. حلمته .

قاطعتنى : ذكرتنى .. لقد حلمت بالأمس أننا أنا وأنت أصبحنا فجأة آدم وحواء .. نسكن كوخا بنيناه معا من الخوص والغاب وأغصان الشجر ، هذا الكوخ كان جنتى ،.. وأنت تأتى لى حاملا غزالة ، فى ظهرها سهم وهى تنظر لى بعين مطفأة فيها بقايا أمل فى الحياة ، تدعونى أن أخلع عنها يد الموت التى توشك أن تعصف بروحها الرقيقة ، لكنى طهوت الغزالة وذقنا معا لقيمات ، وتمددنا .. وضعت رأسى على ساقك وأنت أمسكت بالقيثارة تعزف عليها لحنا شاردا بينما شفتاك تتمتم بأبيات من الشعر الحالم .. كانت كلماتها خمرية اللون تتسرب إلى روحى فتحملنى فى حنان ، وتغمرنى فى حوض الزهور حيث الفل والياسمين وسائد وملاءات .

قلت : أحلامك مثلك .. دعينى احك لك حلمى .

قالت مقاطعة وهى تلم أطرافها : الوقت

قلت : اهدئى .. أى وقت ؟ .. نحن لنا وقتنا .. وللناس وقتهم .. كيف ينطبق علينا نفس الوقت الذى يستخدمه الناس فى حركاتهم ونومهم وثرثرتهم المملة .

سحبتها نحوى وضممتها إلى صدرى .. فأغمضت عينيها واستقرت بهدوء

قلت : - سوف نخلق وقتنا ونخلق طعومنا ، وطبيعة نومنا وشكل جلوسنا ، وطريقة كلامنا ونخلق قاموس ألفاظنا ولغتنا ومعانيها .. كما نحدد لون أيامنا وطول أنفاسنا ونعيد صياغة أشواقنا ، حتى أجسادنا سوف نقطعها عضوا عضوا ونقرأ عليها تعاويذ حبنا ، فتذوب وتتحلل . ندمجها ونعجنها عجينة واحدة ونعيد خلقها كما نشتهى ، وهكذا نفعل بكل الأعضاء حتى تصبح كائنا متفردا وجميلا ومنسجما ، إذا رآنا إنسان حقيقى قال وهو يتنهد : هذا هو الحب .

ضمتنى إليها بقوة وضممتها وظلت مغمضة العيون ، مسدلة الرموش وظللت سادرا فى ملكوتى الذى غزله دفء حنانها وروحها الشاعرة

– أما إذا قدر لنا أن نموت ، فسوف نموت شخصا واحدا .. مرة واحدة ويخسر العالم سر أسراره وأجمل مخلوقاته ، وعندما يمثل الجميع يوم الحساب أمام الملائكة .. سوف يحارون فى طبيعة هذا المخلوق الجميل الذاهل عن كل ما حوله ، الواثق بنفسه . الهادىء . غير مشتت الذهن ولا مؤرق الخاطر ، لا يجرى هنا وهناك ، كالجميع الذين تضطرب قلوبهم بين ضلوعهم من ثقل الذنوب .. نحن سنكون قبل الجميع فى الطريق إلى الجنة .. ولن يكون لنا غيرها .. اطمئنى .. كونى كما أنت .. ضعى رأسك على واحة قلبى ولا تسمحى للمسة هم أن تستقر على جبينك أو تمرق فى عيونك .. نامى .. نامى .

بعد لحظات من لحظاتنا التى لا نعرف طولها ومداها .. قررنا أن نترك الجنة التى ضمتنا شرنقتها ، ونزلنا إلى هدير المدينة ، واكتشفنا أن الأرض يخيم عليها الظلام بعد أن هبط المساء .. لكن الأضواء الصناعية الباردة كانت تلطم الحيطان والشوارع بنورها الفظ .

(٢٤)

فى نفس اليوم الذى تم فيه توقيع طبع شريط أغانى جمعة الفار ، سمع أهل حارة شق التعبان وعدد من الحارات المجاورة صوت جندية الحيانى ، ينطلق بصورة مفاجئة لا يسبقه تمهيد نيرانى بالسباب أو الشجار أو الحوار الصارخ ، وإنما كانت سهاما صوتية متوالية تصعد من شقة الفار إلى السماء وإلى كل الأرجاء .

توالى بعد الصوات العالى فتح النوافذ وخبط أخشاب الشيش فى حيطان البيوت .. أطلت رؤوس كثيرة من الشبابيك والبلكونات ، ارتفعت وجوه كان أصحابها يسيرون فى الحارة أو يقفون أمام دكاكينها .. خرج الذى يحلق فى دكانة سيد والفوطة على صدره وذقنه مطلية برغاوى الصابون الأبيض الناصع .. كما خرج زبائن دكانة الفول والطعمية والمقهى والفرن وظهرت رؤوس كثيرة من فوق الأسطح توجه من عشرات العيون نظرات مستطلعة متلهفة علي الفضيحة . مشتاقة للفرجة .. متمنية أن يكون هناك ما يثير فى دراما الحياة ومصائر الناس .. تدلت رقاب وامتدت آذان تبحث عن أصل المشكلة وسبب الصراخ وتبارت الأنوف فى فرز روائح المصيبة .

كانت أم هنية قد رجعت من السوق مشحونة بفكرة ساخنة وقوية ، قابلة للنمو بسرعة والتضخم فى القلب المسكين الذى لم ير عزا أبدا ولا راحة ، ولم يعرف شيئا اسمه الرفاهية التى تبدأ عادة بالامتلاك .. امتلاك أى شيء .. طعم الامتلاك فى نظرها عزيز جدا ولذيذ جدا ، والعمر يمضى ولا أمل فيه ، حتى الأرض ميراث زوجها يس أخذها الغراب وطار ، نام عليها أخوه وانتهى الأمر ، والأمل فى المحاكم مثل الأمل فى الحدأة عندما تخطف الكتكوت .. قالت لها أم ضباشة الدلالة .

– هناك قطعة أرض مائة متر .. سرها لا يعرفه غيرى .. صاحبها محتاج ، وبالأمس فقط فكر أن يبيعها ويكفيه خمسة آلاف جنيه والباقى لمأ تفرج .. تصرفى يا جندية . ربنا أرسلنى إليك .. أوقعك فى من أجل خيرك .

- بجد يا أم ضباشة ؟!

- عيب .. أنت أختى فى الرضاعة .. بسرعة .. اعملى لك همة

لم تشتر أم هنية شيئا مما خرجت من أجله .. وعادت بسرعة إلى قاع الدولاب تبحث فيه عن ثمن الأرض .. وجدت الفراغ .. أعادت النظر .. رفعت كل شىء .. لعنت اليوم الأسود ،، وواصلت البحث فى دواليب العيال . تحت المراتب ، بداخلها ، فى ملابسهم جميعا .. فوق الدواليب ، حتى الأحذية بين صفحات الكتب وفساتين هنية وحقائب يدها الصغيرة ، فتحت الزجاجات السوداء التى تملأ قاع دولاب هنية .. صبت الماء الذى فى القلل وهزتها فى المطبخ ، فى السندرة .. الإيقاع يتزايد .. الأنفاس تتسارع .. تلهث .. تلعن كل شىء .. تنفخ .. تتحشرج أنفاسها .. قلبها يواصل الدق .. تمنع نفسها من الفضيحة .. وأخيرا أطلقت عقيرتها صائحة مولولة .

ظلت أم هنية تلطم وتندب حظها الهباب ، وتلعن ذلك الشخص الذى تجرأ وسرق كل مالها ، كردان أمها الذهب عيار ٢٤ الذى يصل وزنه إلى ربع كيلو .

دام الصوت وقتا يتناسب وحجم الفجيعة التى استشعرتها . كل من فى البيت أقسم أنه لم يمسه ، بل أجمعوا أنهم لا يعرفون بالضبط أين تحتفظ به .

هبت أم هنية فجأة وضربت صدر يس بكلتا كفيها ، تزلزل الرجل فلم يكد يسمع ما قالته زوجته :

- أنت الذى أخذته يا شايب يا عايب للسنكوحة التى تلوف عليها هذه الأيام ، هل تحسبنى نائمة على أذنى ، هل تحسبنى غافلة عما تفعله من ورائى .. أخبارك عندى يوم بيوم وساعة بساعة .. نهبت مالى ورحت تصرفه على أم العراقيب .

ترفع صوتها عاليا وهى تقول : يا وسخ .. تسرقنى وتهادى بنت السكرى يا كحيان

من غيبوبة أفاق الرجل المرتعد وتماسك لحظات ليقول لها ، محاولا أن يكون رادعا :

- أكيد جننت .. أنت عائشة فى الأوهام .. لا بنت هناك ولا ولد .. ابحثى جيدا قبل الاتهام .

– أخبـارك عندى يوم بيوم يا روح أمك .. بص فى المرآة وهى تقـول لك يا أبو قُصة

.قـاوم قـدر استطاعـتـه ، ولما أحس أنـه لن يتـمكن من المواصـلة وأنه يوشك على الانهيار ترك لها الشقة وخرج سب ويلعن الساعة التى رآها فيها .

جلست ومضت تولول بوهن وقد تسلل إليها إحساس مبهم ، بأنه فعلا يجرى من خيبته وراء البنت الصغيرة كما حدثتها الأخبار ، لكنه يبدو صادقا ولا يجرؤ على لمس ذهبها .

جاءها صارخا نهيق حمار حنفى العربجى متواصلا وواصلا لأطراف الحى .

انتقلت عدسات عقلها وظنونها إلى شخص ما ، هبت من جديد بعافية جديدة قائلة : ليس غيره العبيط الذى يريد أن يكون مغنيا .. الله .. الله .. يريد أن يغنى بصوته الحميرى بفلوسى .. بمالى .

أطلت من البلكونة وصرخت فى عيل كان سائرا فى الحارة ، أن يسرع بدعوة جمعة ، حاولت أن تؤكد لنفسها أنها بحثت فى كل مكان وكل ركن .. نفضت البيت كله .. لم تعثر على أثر .. جاء جمعة .. أدهشه أن يراها مجنونة الشع .ر محمرة البشرة . زائغة العيون .

– مالك يا أمه ..

– مالى أخذت مالى يا جمعة .. تسرق أمك يا جمعة كى تغنى ؟ .

– لم يحدث والله

– لما تحلف لى على الماء يجمد .. لم يأخذ الكردان غيرك

– يا امه عيب .. صدقينى.

– بل أخذته .. لا أحد غيرك .. غنى يا سيدى من غير مالى .. غنى وانبسط وأنا فى ستين داهية .

أقسم لها أنه لم يأخذ منها شيئا وأن أصحابه هم الذين يتولون كل شىء ، وسوف يسدد لهم من ثمن البيع .

انحطت على الأرض ومضت تولول فى فتور وقد خامرها شعور أنه صادق ، واسترجعت بسرعة تاريخه معها ، فلم تجد منه إلا كل عون وحنان ، ومن المستبعد

أن يكون هو .. جمعة طول عمره هو الذى ينفق أكثر من والده ، وهو الذى يحاول تلبية طلباتهم .. لا .. لا .. ليس هو .

- إذن ليس غيرك أنت يا هنية . نعم .. هى أنت .. فمن أين لك هذه الزيوت والعطور والأحمر والأزرق والبودرة التى تشتريها كل يوم ، والفستان الجديد وموتور الشعر الذى يعمل بالكهرباء .. من أين كل هذا .. ربما من مرتب أبيك الذى يحصل عليه من الديوان الملكى ياضنايا ..

طلعت فيها هنية طلعة ثقيلة . كتمتها تماما .. لم تأخذ فى يدها «غلوة» .. تذكرت أمها أن ابنتها نسخة منها ، لو تمكنت منها حالة الغضب تقدر على هدم الدنيا .. لمت نفسها وسكتت وهى تصدق هواجس الفأر الذى يلعب فى عبها ، ويصر على أن التى سرقت الكردان هى هنية .. تلبية «لزن» الفأر قالت لها :

- أنا سكت ، لكن ليس غيرك فعلها

بمنتهى الثقة ، قالت هنية :

- بطلى يا وليه يا خلل

اندفع جمعة صارخا فى أخته .

- يا بنت الشرموطة لا تقولى لأمك يا خلل

لطمت أم هنية خديها وشدت شعرها وهاجت من جديد وهى تقول :

- آه يانا سرقونى وشتمونى .. يا ميلة بختك يا جندية .. سرقونى وشتمونى .

اكتشف جمعة خطأه . فاضطرب وحار ماذا يفعل .. أسرع بالانصراف وهو يقول :

- عالم أولاد كلب «ملاحيس»

هدأت قليلا ثم سألت نفسها من قبيل الاحتياط .

- هل يكون الولد ميشو ؟ ..

قلبته على أسياخ ظنونها .. فلم ترجح اتهامه . إنه لا يعرف قيمة الكردان ولا ماذا سيفعل به .. هو لا يكاد يفكر فى شىء من هذا .. عادت تقول :

- لم يبق إلا نبيل .. فهو عاطل .. ولابد فى حاجة إلى نقود ، والمصروف الذى أعطيه له مؤكد لا يكفيه .. لكن نبيل مؤدب ولم يسرق أبدا .. والأهم أن البنات هى

التى تأكل نقود الشباب ، وقد غارت بنت سرحان . لا .. كله إلا نبيل .. نبيل متعلم ولا يفعلها .

لكنها ظلت تبكي وتسب الزمن والظروف والقلوب التى لا ترحم ، وتلعن حظها وميلة بختها .. لا تأخذ منهم لا أبيض ولا أحمر ويسرقونها ، الآن أصبح ظهرها للحائط ، لا يوجد ما تعتمد عليه : غدا سأكون مثل أم رمزي الخياطة .. طردها ابنها فتحى من بيتها .. عيال آخر زمن .. و هى يا حبة عينى عمالة تلف من بيت لبيت .. يرموها لبعض .. وكانت ست الستات ، بقيت مثلك يا أنصاف .

ظلت تبكى . بكاء أقرب إلى الأنين ، بدون دموع ، لكنه «سرسوب» من الأسى يتساقط من قلب قلبها ، ويخفف من وهج الألم المشتعل فى بدنها كله ، ويتكثف فى حشاشة الروح .

جاء نبيل وعرف الموضوع .. مال عليها وقال لها بهدوء :

- متأسف يا أمى .. أنا الذى أخذت الكردان

- أنت يا نبيل ! .. تسرق أمك !

- لم يكن هناك حل آخر

- حل ؟!

- نعم .. دفعت ثمنه للحصول على تأشيرة سفر .. وللأسف

- أسف

- راحت الفلوس .. وطلعت شركة نصابين

انحنى على يديها .. يحاول أن يقبلها

- أنا غلطان . سامحينى .. ماذا أفعل حتى أصحح خطأى ؟

مسحت عينيها فجأة وهبت نشيطة ، وكأنها لم تفقد شيئا عزيزا .. انحنت عليه وقبلته فى رأسه ، وقالت بحنان تدفق بغزارة :

- فداك يا حبيبى . ولا يهمك .. عليه العوض ومنه العوض .. قم لتأكل ، أنت أكيد من الصباح على لحم بطنك .. لا تحزن .. تبات نار تصبح رماد .. أنا قلبى حاسس إن فرجه قريب .

- ربنا يخليكى لنا يا أمى .

وبينما كانت فى المطبخ تعد الطعام ، كانت دموعها بهدوء شديد غير معتاد تتسلل إلى خديها وتلمع وتغرق صدرها ، وهى ترى قطعة الأرض تنضج فى الوعاء مع الفاصوليا .. الأرض حمراء تنبت فيها فقاقيع .. تنهدت بعد أن ذاقت طعمها بطرف لسانها .. لم تجد لها طعما .. حطت الغطاء فى موضعه وتأكدت أن البخار لن يخرج ، وأن كل شىء قد انتهى بسلام ، وبقى الحال على ما هو عليه . محلك سر .

(٢٥)

طال غيابها فى الصعيد .. هل يكون عم ملاك قد فهم شيئا أو أدرك أى سر .. فأرسلها إلى هناك .. كم أتعسنى سفرها وكم يضايقنى غيابها .. مرت أسابيع ثلاثة ، ومن الظلم الفادح أن أحرم منها كل هذه المدة .. أى قلب بشرى يملك أن تغيب عنه الحياة أياما وهو يتشبث بأذيالها ، وإلى متى ؟ وأنا أتصبب شوقا لنظرة منها .. للمسة .. لهمسة .. بل حتى لإشارة من يدها ، لم أعد أستنكر إذا حكى لى أحد عن عاشق سجين حطم الجدران من أجل أن يرتوى قلبه بنور الحبيب ، أو متيم سار على قدميه آلاف الكيلو مترات يجتاز الصحارى والقفار ويعبر الأنهار .. لا يقر له قرار قبل أن يلقى من بيده أمر قلبه .. وأمر نومه ويقظته .. رضاه وغضبه ، أمله ويأسه ، بل حياته وموته ..

وأنا ماذا فعلت إلا أن أقبع هنا وبين يدى الكتب أبثها همى .. ماذا لو كانت المدة ستطول ، العام الدراسى سيبدأ بعد أيام .. غير مستبعد أن يكون عم ملاك قد نقلها إلى جامعة أسيوط .. ماذا تفعل يا من تحسب أنك عاشق مدله ؟

ماذا ستفعل ؟ انطق .. حان وقت العمل .. اكشف عن قدرات قلبك .. عن عزيمة حبك وقوة غرامك .. هيا .. افصح .. واجه المصير المنتظر ..

نعم .. إذا لم تحضر بعد غد على الأكثر فتكون الأمور قد اتضحت وعم ملاك نقلها ، أو يكون قد أخبر أهلها فى الصعيد .. يا نهار أسود هل تكون المسألة وصلت إلى القتل ؟!

لا .. لا .. لن أنتظر .. غدا سأكون فى القطار .. بل الآن وليس الغد .. نعم الآن .. ولكنى احتاج بعض المعلومات .. على أولا أن أذهب إلى عم ملاك لاستدراجه .. الوقت يقترب الآن من منتصف الليل .. غدا إذن معلومات ، وبعدها السفر مباشرة ، ولماذا ملاك ، أنا أعرف أنهم من بلدة تابعة لأسيوط .. أظن القوصية .. نعم ، هى القوصية.. ولكن اسم عائلة أمها .. هل أسأل فى الجامعة .. لا .. لابد من ملاك أولا ..

ما الحكاية يا كوكب الشرق ؟ .. بل ما حكاية القائمين على برامج الإذاعة .. أفى هذا الوقت بالذات يبث الراديو هذه الأغنية ؟! .. شكرا فما أحوجنى إليها ..

أغدا ألقاك .. أنت يا جنة حبى واشتياقى وجنونى .

أنت ياقبلة روحى وانطلاقى وشجونى

أغدا تشرق أضواؤك فى ليل عيونى

يا رجائى .. أنا كم عذبنى طول الرجاء

كم أناديك وفى لحنى حنين ودعاء

أنا لولا أنت .. أنت لم أحفل بمن راح وجاء

أنا أحيا فى غدى الآن بأحلام اللقاء

فأتى أو لا تأتى ، أو فافعل بقلبى ما تشاء

(٢٦)

فى الصباح حضر صبى إلى بيت الفار وقال لنبيل :

- الحاج يحيى يريدك

- من الحاج يحيى ؟

- الحاج يحيى صقر .

- آه .. قل له من يريدنا عليه أن يحضر إلينا .

لم يحضر إليه أحد ، وعند الظهر كان عم يس يمر فى الشارع ، سمع من يناديه .. توجه ناحية مصدر الصوت .. كان يحيى صقر يجلس على مكتب فخم فى صدر محل كبير ، تعلوه لافتة ضخمة ، «صقر لقطع الغيار» ، لم يعرفه فى البداية .. قال يحيى مباشرة بلهجة واثقة : إذا أحب نبيل أن يعمل معى ، هذا محله ، سيحصل على مرتب كبير وكذلك ميشو ، لم يصدق يس أذنيه ، غير مساره المتجه إلى ناهد واتجه إلى البيت . سأل عن نبيل . لم يجده . ذهب إلى جودة فى بيته لم يجده ، ووجدهما عند ملاك . كان ملاك يقول: عيسى ابن الله .

على يقول هذا هو الاختلاف الوحيد بين المسلمين والمسيحيين . المسيح نفسه عليه السلام يقول فى الإنجيل : أنا ابن الإنسان .. الله لا ينجب ولكنه يخلق ، وقد خلق الله عيسى بكلمة منه ، فهو يقول للشيء كن فيكون ، وعيسى مثل آدم ولا فرق إلا أن عيسى له أم .. وقولكم إنه ابن الله - سامحنى نحن نتحدث ومن حقك أن تصر على رأيك - له معنيان سلبيان ضد سمو التفكير وصحيح الرؤية الدينية .. أولا أنكم غير متقبلين لفكرة أن عيسى فى الأصل كلمة تحولت إلى روح وتصرون على أنه مولود له أب وله أم .. والأب هو الله .. وهذا الاعتقاد فيه شبهة الفهم المادى، حاشا للدين المسيحى أن يقع فيها ، والأمر الثانى أن هذا الفهم نفسه يتناقض مع كون السيدة مريم عذراء .. فهى عذراء بالفعل لأن لا أحد ولا حتى اترب مسها ، ليس لها زوج .. إنها مباركة وطاهرة .. ولم تنجب عيسى كما ينجب البشر ، ولكنها تلقت كلمة .. وكلمة الله تخلق بقدرته وأمره ..

لم يتحمس يس للحديث ، مال على نبيل وهمس فى أذنه برغبة يحيى .. هب نبيل واقفا.. مضى مباشرة إلى يحيى ، فوجىء بفخامة المحل وكميات قطع الغيار ، ومنظر يحيى وهندامه . البدلة الكحلى الفاخرة والقميص الأزرق ورابطة العنق الحمراء.. تتناثر عليها نجوم سماوية ، ومنديل أصفر تطل أغصانه من جيب صغير فوق القلب .. علبة سجائر أجنبية وولاعة ذهبية وسيجارة يدخنها عبر مبسم أسود .

يجلس على مكتب زان أبانوسى مزين بالأويما، وفى أركانه وجوه لأسود تكشر عن أنيابها وعليه لوح سميك من البللور .. الأرضية السيراميك تلمع وتسمح لحذائك أن ينقر عليها نقرا برجوازيا مشعا .

عرض عليه ثلاثمائة جنيه كراتب شهرى .. وافق نبيل دون كلمة . طلب من العامل الذى كان يلبس بدلة رمادية وله وجه كشر ، أن يعرف الأستاذ نبيل قطع الغيار الموجودة وأقسامها وأنواعها وأسعارها ، واختتم أوامره قائلا :

– سوف أسأله بعد يومين عن أصغر قطعة .. الأستاذ نبيل هنا هو المدير .

زام بلبل ذو الوجه الكشر وقال بصعوبة :

– طيب

وقف وتحول إلى نبيل قائلا :

– أستاذ نبيل . اجلس على المكتب . افتح أدراجه . اقرأ كل الفواتير والملفات وخطابات البنك وحسابات العملاء وكشوف أسعار القطع .. كل حرف هنا أريده أن ينتقل إلى رأسك ، سيساعدك بلبل وميشو عندما يحضر .. هذا المحل لقطع الغيار الجديدة وهناك فى الشارع الخلفى مخزن كبير للمستعملة ، أنت خريج تجارة . أريد أن أرى همتك .

سلمه مائة وعشرين جنيها تحت الحساب . مائة له ولميشو عشرون.. انطلق بسيارته المرسيدس الزيتونى .

جلس نبيل على المكتب . كان يجب أن يجلس عليه بعدما رآه .. وتساءل عما جرى ..

– يبدو أن نرجس أخيرا فتحت الحنفية على الآخر .. لكن .. الفلوس تأتى

بالدكان والبضاعة والسيارة .. فكيف وفرت له زيادة فى الجسم واحمرارا فى الوجه .. غريبة .. وكل هذا فى شهور ، بعد سنوات الضنك .. على بابا بعد الضنا لابس حرير فى حرير .. والست مرجانة ..

تملكت نبيل كريزة ضحك .. ثم عاد إلى الذهول والأسئلة قبل أن يبدأ العمل .. وقف ودار فى المحل قليلا والأسئلة الحائرة بلا إجابات لا تفارقه . تطل على الدكان مع كل نظرة من عينيه ، وترتد إليه بمزيد من الأسئلة .. طالعته صورة يحيى .. كبيرة ملونة فوق رأس الجالس على المكتب .. الوجه سمين كأنه اعتاد العز .. شارب مبروم ضخم .. صورة باشا أصيل .. أليس كذلك يا من تعلمت فى الجامعة؟!

تنهد وجلس على المقعد الدوار . لف به عدة لفات .. بسط يديه على المكتب الكبير ، تسللت إليه برودة الزجاج .. عاد يرفع رأسه وتأمل مكونات المحل ، فكل ما فيه وغيره ملك للرجل الذى رفضه زوجا لأخته العانس .

بدأ يفتح الأدراج .. ويطالع الأوراق .. ورقة ورقة .. سطرا سطرا

– ما الذى يحدث فى الدنيا بالضبط .. جاء علينا وقت قلنا فيه : لم تعد هناك مفاجآت ، والآن نقول إن كل ما يحدث حولنا .. مفاجآت .

فى اليوم التالى ، كانت الأرض الفضاء المجاورة لمكتبة ملاك يحفرها البلدوزر وتكدس فيها أطنان الرمل والزلط والأسمنت ، وعلقت عليها لافتة كبيرة ترى من بعد كيلو .. «مؤسسة صقر الخيرية» .

خلال مدة وجيزة ارتفع البناء أربعة أدوار ، الأول مسجد والثانى عيادة نرجس لعلاج جميع الأمراض مجانا ، والثالث مضيفة للعزاء ومقر لمحو الأمية وتحفيظ القرآن ، والرابع مقر جمعية صقر التى تستقبل كافة المحتاجين لصرف الإعانات الشهرية ويتولى الإشراف على الثالث والرابع بركات السكرى ..

انتشرت فى أنحاء المنطقة لافتات ومطبوعات دعائية ، وميكروفونات تحملها السيارات تلف وتدور فى كل الشوارع والحوارى تعلن بدء نشاط المؤسسة الخيرية..

- هلموا إلى دار صقر .. كل من يحتاج علاج .. إعانة .. حل لمشكلة ، يتوجه إلى دار صقر .

مع أول يوم للمشروع دعا مساعديه للاجتماع ، وحرص فيه على أن يوضح لهم الأمور التى يجب أن يكونوا على علم بها :

- أنا مجرد منفذ لمشروعات السيدة حرمنا .. هى صاحبة المال والفكرة وكل شىء .. أنا ساع فقط فى الخير .. وقد أصرت أن تكون المؤسسة باسمى .. وبالكاد قبلت أن تسمى العيادة باسمها ..

تدحرجت حبات المسبحة بين أصابعه وهو يقول لهم : أى سؤال .. أى استفسار .. لكنهم لم يتساءلوا عن شىء ولم يستفسروا ، وشكروه وامتدحوه وهتفوا بحياته .. فى البيت سألته نرجس عن المؤسسة الخيرية التى يتحدث عنها الناس فى كل مكان ، وكانت قد خرجت إلى الخياطة ، وانهال عليها الناس بالشكر وكالوا لها المديح ، وانهمرت الأدعية لها بالصحة والولد والهناء مع زوجها رجل البر والإحسان ..

- فهمت منك ان هذه المؤسسة ملك رجال أعمال وليست ملكك ، فلماذا سميت باسمك ؟

- وهل هذا يغضبك ؟

- لايغضبنى ، لكنى أتساءل لماذا لم تكن بدون اسم شخص محدد ، أو تكون باسم أحدهم ، ولماذا اسمى أنا أيضا على العيادة ؟ أسئلة كثيرة ، هناك أمور مجهولة تماما بالنسبة لى ..

هل كان يعرف أنها ستسأله ؟ . ليس ساذجا إلى درجة ألا يستعد بالإجابة .. لكن الاستعداد شىء والمواجهة شىء آخر .. فنظرات عينيها لابد أن تدخل فى الحساب ..

ابتسم لابنته التى لم تكمل عاما بعد .. وتقدم منها .. داعبها ، ثم حملها بيديه من تحت إبطيها ورفعها عاليا .. فتحت فاها رعبا ، لكنها كانت قد تعودت على مداعبته الوحيدة .. هبط بها ثم قذفها إلى أن لامس ظهرها السقف ، والطفلة

الجميلة التى تشبه أمها بوجهها المستدير الأبيض تتغير على ملامحها المشاعر بين الفرحة والرعب ، بينما عيناها عليه إلى أن تسقط وتستقر فى أحضانه ، ويعاود قذفها ..

– لم تجبنى .

– من يترك هذه الجميلة ويرد على أسئلة أجاب عنها من قبل ؟

– لم تجبنى يا يحيى .

– أجبتك يا نرجس .

– لابأس .. أجبنى مرة أخرى .

– يا سيدتى .. قلت لك من قبل وأنت لا تريدين أن تقتنعى ، مصرة على ما فى رأسك .. لا تتصورى أن هناك ناسا تحب الخير وتنكر أسماءها .

أخذت منه البنت ووضعتها فى المشاية .. وحطت فى فمها اللهاية ، كى يتفرغ لها ..

قالت :

– أعرف أن هناك من ينكرون أسماءهم من أجل مشروع عام ، من أجل مسجد ، من أجل مستشفى ، من أجل أى خير للناس جميعا ..

– هذه المؤسسة للناس جميعا .

– أعلم ، ولكنها مؤسسة صقر وعيادة نرجس .

– أمرى إلى الله .. كنت أحب أن يبقى الموضوع سرا .

– شفت إنك تخفى عنى أشياء .

– المسألة أنها لا تستأهل .

– تستأهل أولا تستأهل ، من حقك تعرف عنى كل شىء ، وأنا من حقى أعرف عنك كل شىء ، ومن يخفى شيئا لا يكون إلا خائنا .

– يا نرجس تيك إت إيزى .. خليكى إنجليزى ..

– المهم .. خش فى الموضوع ، ما هذا السر الذى أخفيته عنى

– يا سيدتى .. تعرفت على عدد من رجال الأعمال الذين يتاجرون فى السيارات وفى غيرها ، وفى جلسة من الجلسات وكانت فى فيلا واحد منهم

اقترحوا علينا نساعد مرضى معهد الأورام ، واقترح آخر أن نساعد فى تأسيس جمعية لكفالة اليتيم .. شعرت يومها بأنى ضعيف وعاجز عن مجاراتهم ، وتمنيت لو كان عندى أى مبلغ كنت أشارك معهم .. ولحنى الحاج مبارك وسألنى .. صارحته بإحساسى .. وتحدثنا كثيرا فى هذا الموضوع ، وخرجت وأنا نفسى جدا وأملى أكون من المشاركين بقوة فى أعمال الخير .. لن تصدقى يا نرجس ..

– أصدقك ..

– فى اليوم التالى .. كان يوم أحد ، لا .. يوم اثنين .. والاثنين مهم عند ربنا ، جاءنى رجل من ديرب نجم بلدنا وقال لى خالتك ماتت . سافرت ودفنت ، وفوجئت بالعمدة يقول لى على جنب : مستعد اشترى الثلاث فدادين وربع بأى سعر ، إنت عارف ، أرض خالتك جنب أرضى .

– أى أرض ؟

– خالتى ماتت دون أن تنجب وأنا الوارث الوحيد .

– .... !!

ضربت كفا على كف من حكمة ربنا .. نويت على الخير ، وقبل أن تمر ٤٨ ساعة انصب فى حجرى .. قلت لا يدخل جيبى منه مليم ، هو لله ولعباد الله ، ورحت للجماعة واتفقنا .. مضت نرجس تنظر إليه .. تحاول أن تفك خيوط اللغز ، لم تستطع .. قالت له : ولماذا لم تحدثنى بهذا من قبل ؟

★★★

مرت الأيام والناس تعودت أن تسأل ، وعمدة الأسئلة هو :

– لماذا كل هذه الخيرات ؟

قال أحد كبار السن :

– لعل نرجس تحاول أن تخفف من آثام أهلها ، فكم مصوا دماء المستأجرين فى الأرض الزراعية ، والعمال فى المصنعين اللذين استولت عليهما الثورة بعد التأميم .. خاصة أن أخاها كان مغرورا ولم يعترف أبدا بهذا ، وكان ساخطا على الثورة ورجالها وعلى الناس أيضا ..

لم يعد هناك بيت لا يتحدث عن جمعية صقر الخيرية وأعمالها ، أقبل الناس بالآلاف للحصول على المساعدة ، والعلاج ، وصرفت إعانات ثابتة للطلبة والمحتاجين واليتامى ، وأقيمت موائد الرحمن لإفطار الصائمين فى رمضان .. فى الثلاثة طوابق تصف الموائد ، ويعد الطهاة طعام الإفطار ، وكل يوم يذبح رجال صقر عجلا سمينا يأكل منه نحو ألف صائم ..

الجديد هو مجلس الحكماء ويرأسه الشيخ ابراهيم الذى يختص بحل أى نزاع من أى نوع ، بدلا من المعارك والعنف وبدلا من الشكوى للشرطة أو رفع الدعاوى .. كل مشكلة بين طرفين تعرض على الرجال العقلاء ..

خير يتدفق بقوة ويسع الناس جميعا ، والأموال تنفق بلا حساب ولا بأس من قبول تبرعات الأغنياء ..

لم يعد فى الحى واحد لا يتحدث عن يحيى صقر .. حتى الأطفال يعرفون من هو وماذا يقدم ، لأن صوره مع لافتاته فى كل مكان وهو داخلها يبتسم ويلوح للناس بيده قائلا :

تعالوا ..

كان ضمن رجاله محسن اللبودى مدرس التربية الرياضية ويوسف المحامى ابن الشيخ ابراهيم الذى كان يقول لوالده :

– كله خير ما عدا مجلس الحكماء الذى ترأسه .. عطل علينا كثيرا ، وكان أبوه فى الغالب لا يرد عليه ، لأنه غير راض عن منهج ابنه كمحام .. أما على جودة فقد أرسل إليه يحيى كى يعمل معه ورفض على بحجة أنه مشغول ، ولما التقى بيحيى مباشرة ، قال له يحيى ساخرا :

– وقتك يتبدد مع ملاك ..

اضطر على أن يقول :

– الدقيقة مع ملاك تساوى ساعات مع غيره .

كان على متشككا فى يحيى و مصادره وأهدافه ، أفضى بشكوكه لصديق عمره نبيل ، قال له : إن شكوكه فى غير محلها .. كل شىء أصبح واضحا ، بعد أن عرفنا أنها أموال زوجته مع التبرعات وتسهيلات الحكومة .

تحدث يحيى بنفسه فى عدد من الجلسات مع الناس حول مشروعه الخيرى وذكر بعض أسماء المتبرعين من رجال الأعمال وطالب بالمزيد من التبرعات ليتواصل نهر الخير .

(٢٧)

ارتبط بهـا ارتباطا شديدا وملأ بها روحه ، أصبحت صورتها أنيسته ليل نهار ، وغدا فى حالة شرود دائم ، هائما وراء طيفها .. أسيرا لخيالها ، إذا تحدث إليه أحد يحسبه هى التى تتحدث بصوته .. وكيف لا يكون كذلك وصوتها الرقيق فى أذنيه ، وفى عينيه دائما وجهها وابتسامتها الوديعة تضىء ملامحها الدقيقة وعيناها العسليتان اللامعتان ..

يجلس يس فى البيت ساكنا ، وفى المقهى ساكنا ، وفى الشارع يسير بوداعة لافتة للنظر ، كأنه ينتظر من رسولها الروحى .. وهاتفها النورانى أن يجيئه فى أية لحظة ، فلابد أن يكون مستعدا بالتركيز والدعة والانصات .. يسأله عابر :

- مالك يا عم يس ؟
- أبدا
- كويس ؟
- الحمد لله
- تأمرنى بأية خدمة
- شكرا .

يمضى فى طريقه تاركا قدميه تهمسان على خدود الأرض بآثار لا تبين .. أحيانا يتساءل هو نفسه .. أليس غريبا أن يكون فى الستين ويغمره هذا الحب حتى لينشغل به عن كل شىء إلا عن صاحبته . البنت الصغيرة المهذبة .. لقد أراد أن يدنو منها فأصبح هادئا مثلها .. يسير فى حاله ، لا يلتفت كما كان يفعل من قبل ، ولم يعد يدفعه الفضول ليطل فى الدكاكين ليتعرف أخبار الناس ، ولم يعد يتطلع إلى البلكونات ليرى الغسيل ، ويلوح لمن يطل منها إذا كان يعرفه ، ولم يعد يحيى كل من يمر به وإذا حياه أحد اكتفى بالرد عليه باقتضاب .. هذا إذا سمعه . فى الأغلب لم يعد يسمع ما يجرى خارج روحه ، هو فقط يسمع ما يأتى من الداخل .. وينظر إلى الداخل فيرى عالما جديدا يتشكل .. مدينة كبيرة

مسحورة يبنيها البناءون من أبناء كيوبيد .. مخلوقات صغيرة جميلة .. صبيان وبنات عرايا لا يزيد أكبرهم عن الخامسة .. ملحمين «وملظلظين» . لهم أجنحة صغيرة ، يمشون إذا شاءوا ويطيرون أيضا .. لا يحملون سهاما وأقواسا ، لكنهم يعملون باهتمام وإخلاص في بناء مدينة الحب الجديدة على أنقاض مدينة قديمة في قلب يس الفار .. كانت مدينته قبل زلزال ناهد عبارة عن أطلال وخرائب . جدران مائلة وطلاء متهرىء وأشجار محروقة دمرت الكثير منها مدفعية جندية .. أم هنية ، وبالمدينة أيضا ترع بها مياه خضراء آسنة ، تسقط عليها بقايا الأشجار فتتعفن ، ويتصاعد الدخان من هنا وهناك كأنها شهدت معارك حامية ، انتهت منذ قليل ولا يزال غضبها يتنفس .

سعيد هو لأن السكرى لاحظ شبابه وصحته وإهابه الجديد ، واقتنع بأنه سيصبح غنيا ، وناهد فى عينيها الرضا والقبول ، ولا يبقى إلا أن يتحول الكلام إلى فعل ، والتلميح إلى تصريح والنقر على الباب إلى دخول ..

- عندما كنت إلى جوارها فى حديقة ناصر ، ولمست يدها الناعمة أحسست ببدنى ينتفض وأعصابى تتوتر وتنتشر فى كل خرائط الجسد ، هذا الجسد الذى اعتقدت يوما أنه مات . ها هو ينهض ويصهل كحصان يتأهب للركض فى سباق كبير . بصراحة وبدون خجل فرحت فرحا كبيرا ، وإن كان غامضا فى البداية ، وسرعان ما أصبح زهوا ، إننى إذن حى .. حى .. وقد مضى زمان جندية أم العيال ، المرأة القديمة المسيطرة التى أخمدت حواسى وخنقت شهوتى ، ودفنت كل مواهبى، أما عندما لمست يد ناهد التى سآلفها فى حرير ، وجدت نفسى أهب من مرقدى .. أنا حى يا أولاد .. أنا حى .. والحى كله سيرى من أنا ..

* * *

(٢٨)

كانت الطيور البيضاء المحلقة فى سماء مصر القديمة وبالذات فى مناطق مبارك وعزبة غراب تغرد للصباح الجميل الذى توحى ملامحه واندفاعات ناس الحى أنه سوف يشهد لحظات ابتهاج مخطوفة خطفا من الأيام المبللة بالملل .

كانت البداية قرار حافظ أن يتزوج هنية فى اليوم التالى لخروج أخيه من السجن الاحتياطى ، ولما تحدد يوم خروجه طلب حافظ من هنية وأهلها الاستعداد لعقد القران والزفاف وإقامة حفل كبير بالمناسبتين معا ..

عزم جمعة أن يغنى لأول مرة أمام الجماهير فى هذه الليلة ، وفى الاتجاه الآخر عزم أبوه أن يتقدم بشكل رسمى إلى بركات السكرى يطلب يد ابنته ناهد ، فقد فتح شهيته المحامى الذى تجاوز السبعين ويتولى القضية منذ عشرين عاما عندما قال : القاضى على وشك النطق بالحكم ، ربما فى الجلسة القادمة بعد ثلاثة أسابيع .. الأموال فى الطريق فما الذى يمنع من تحقيق الآمال ..

* * *

فى يوم فرحها استولى عليها فجأة إحساس بأنها ترمى نفسها للذى لا يلائمها ، وأنها فرارا من العنوسة رضيت بشخصية متواضعة جدا فى السلم الاجتماعى ، كانت قد تعودت أن يقوم نبيل بالتفكير والمقاومة بدلا عنها ، لكنه هذه المرة وافق ، ولم يعلق بكلمة ، ولم تتح لها الفرصة كى تدهش ، فقد علمت أن حافظا كان يجرى للحصول على تأشيرة سفر لنبيل .. سعى هو للتأشيرة ودفع أخته ثمنا لها وليته حصل عليها ، لكنه لم يكن قادرا على سحب كلمته بعد ضياع التأشيرة والكردان معا .

– وعندما علم أن أخاه تاجر مخدرات وسيدخل السجن لا محالة ، لم يعلق بكلمة .. ماذا جرى لك يا نبيل ؟! لما كنت عاطلا لا تحتكم على مليم كان لك رأى قوى ورأس مرفوع ، ولما ذقت طعم النقود ضعفت وانكمشت وانحنيت ، هل يا

ترى تحنى النقود الرقبة ، وتخلع من القلب استعداده للمقاومة والتضحية ، أم لأنك تعمل عند يحيى صديق حافظ .. رد .. انطق .. أين أنت الآن يا نبيل لكى ترد علي وترد عنى .. لم أعد أجدك .. لم أعد أجد أحداً ولا حتى أبى الذى أصبح شخصاً آخر ، دائما ساكتاً ، شارداً وأمى فرحانة .. تحس أنها القوة الوحيدة .. هى الأب والأم ، ولا يوجد فى البيت شخص آخر غيرها .. هذا هو النظام الأسرى الجديد .. آه ، بيتنا لم يعرف الفرح من خمس سنين .. من يوم فرح راوية .. مجرد ليلة .. حصتنا فى الفرح ليلة واحدة كل خمس سنين ، هناك من يفرحون كل يوم .. قلبى مقبوض . هل يمكن أن أرفض أم فات الميعاد ؟ .. ومن الذى سيوافق على رفضى ؟ لن أجد أحدا .. الكل يريد ذهابى بأى صورة ، وأنا نفسى أريد ذلك ولو من قبيل التغيير .. الحياة تمضى ولا تهتم بأمثالى .. علىّ أن أركز فى أحوالى .. يمكن أن تكون هناك حياة أفضل عند حافظ .. حالة جديدة تخرجنى من الملل والتكرار ..

جاءها من راديو الجيران صوت فايزة أحمد .

– أنا قلبى إليك ميال .. ومفيش غيرك على البال .. أنت وبس اللى حبيبى .. أنت وبس اللى حبيبى .. مهما يقولوا العزال .

حاولت أن ترتدى فستان الأغنية ..أحست أنه على غير مقاسها .. مضت إلى حجرتها وفتحت دولابها وهى تعيد تذكير نفسها بأن حافظاً قال إنه اتفق مع الكوافير على استقبالها الساعة الرابعة عصرا ، وأنه سيمر عليها هو وأصحابه بالسيارة المزينة والموتوسيكلات الساعة السابعة ليصحبها إلى محل التصوير ، وبعدها يتحرك الفوج كله إلى قاعة الأفراح بالنادى الرياضى المجاور لاسطبل عنتر ..

كان موعد خروج سلطان الساعة العاشرة والنصف .. قام حافظ بتوصيل الأولاد إلى المدرسة فى السابعة والنصف .. وراح يتناول فطوره .. الفول المعتاد بالزيت الحار عند شكورة .

بعد الفطور كان لابد من الشاى وحجرى الشيشة . أصبح الآن جاهزا للذهاب إلى محكمة وسط القاهرة .. اصطحب أخاه إلى بيته .. أكد يوسف ابراهيم

المحامى أنها مؤامرة وسوف يخرج منها سلطان كالشعرة من العجين ، انصرف حافظ ليعود إلى مدرسة النديم .. يأخذ الأولاد إلى بيوتهم ويستعد للفرح .. لم ينس أن يؤكد أن الفرح ليس من أجل الزواج ولكن من أجل سلطان ... والفرح الكبير يوم البراءة وإغلاق ملف القضية تماما ..

باقى على خروج التلاميذ عشر دقائق .. فتح لهم باب الأتوبيس واتجه إلى المقهى ليشرب حجرين ..

من المحتمل أن يكونا آخر حجرين هذا النهار .. وربما يمر موافى العجلاتى بتعميرة .. تذكر شكل البدلة الكحلى التى اشتراها .. ها هو يرى التطريز الفضى على الصدر والكمين ..

– سوف تكون قنبلة الفرح .

أرسل نظرة إلى الأتوبيس .. سوف تكون التوصيلة الأخيرة وبعدها يغيب عن المدرسة أسبوعا كاملا ، لا عمل فيه على الإطلاق .. إلا الأكل والنوم ويذوق فى الحلال طعم النساء .

أمسك بخرطوم الشيشة ودس طرفه فى فمه وامتص بقوة وتلذذ .. ملأ فمه وشدقيه بالدخان ، كتمه طويلا واستشعر تأثيره على أعصابه وأعماقه .. إحساس غامض لا يستطيع تفسيره ، لكنه يشمله إذا دخن الشيشة . شعاع من الضوء يسرى فى بدنه وينير سراديبه ، قبلها يكون الجسد كتلة مصمتة من اللحم ، ثقيلة ومعتمة ، يطلع هذا الإحساس إلى رأسه ، فيوشك أن يتوقف عن العمل ويمتنع عن التحدث إلى الناس ، وإذا تحدث ثار لأتفه الأسباب ، هو الآن يخف ويخف وتنهض من كهفها أعصابه ، تتفتح جميع الخلايا ، كأنه كان بالونة منكمشة ومطفأة ، ولما اندفع فيها الهواء الذى هو روحها وحياتها ، تمددت وانتشرت وخفت ورقت . شرعت تتهادى يمينا وشمالا مع النسمات ، وهى راضية راغبة ، ومع أول هبة لريح حنون تطير وتتمايل ، وتكاد تعانق كل من تلقاه ..

يسحب الدخان . يفتح عينيه إلى أقصاهما ويشد عروق وجهه وأعصابه مع أعصاب وعضلات فمه الذى يتولى المهمة المقدسة ، يبدو كأنه يريد أن يمتص

العابرين والدكاكين والسيارات التى تمرق أمامه ، نهم مجنون لاحتواء العالم وابتلاعه وكأن سحب وشفط أكبر كمية من الدخان ، ربما تنفخه فيكبر ويتضخم وينال ما يتمنى ويقدر على ما لا يقدر عليه الآخرون ..

وهو يفتح عينيه إلى أقصاهما رأى المنظر ، لكنه لم يصدق ، لأنه لا يفتح عينيه ليرى بهما ، يفتحهما ليشارك دون أن يدرى فى سحب الدخان وابتلاع العالم ، ولما نفذ المشهد داخل عيونه وفرض نفسه على عقله الشارد ، وضغط عليه ، رأى ... ولما رأى لم يفهم . ولما فهم لم يتحرك .. ولما تحرك تعثر .. ثم نهض واندفع ، وقد تحول الدخان فى جسده إلى بركان .. شق الطريق فجأة بجسده الأعمى.. كادت السيارات تدهسه ..توالى خروج الكلمات المحمومة :

– يا نهار أسود ، مصيبة .. مصيبة كبيرة وحطت ..

كان أتوبيس المدرسة الذى تركه بعض الوقت حتى يحين ميعاد خروج الأولاد يتحرك وحده حاملا بعض الأولاد ، وكان عشرات الأولاد يتجمعون أمامه .

فى البداية أوقع الأتوبيس السكرتيرة ناهد السكرى التى كانت تعطيه ظهرها .. ركب فوقها ثم تقدم نحو الأولاد . أخذ يطويهم تحته واحدا بعد واحد .. البعيدون عدة أمتار يرونه فيذهلون .. يتخبطون .. يقعون .. الأتوبيس يمشى فوق اللحم هادئا واثقا ... ومصمما .. العجلات تهرس الأجسام الصغيرة والحقائب .. تهشم الرءوس فى هدوء .. تنزع الأرواح وتعجن الضحايا .. تسيل الدماء وتحطم العظام وتكتم الأنفاس ببطء .. ببطء شديد .. ذهول ملفوف بلحظات صمت ناتجة من تجمد الحياة وتوقفها ، هل هكذا الحياة عندما ترى الموت ؟ .. أخيرا انكسر حاجز الفزع والدهشة وانفجر الغضب .. ولولت النساء وصرخ الرجال . أسرع بعضهم يقفون فى طريقه ويدفعونه بأيديهم حتى تتوقف مناجل الموت عن حصد الأرواح الصغيرة الرقيقة البريئة .. كان الجميع يتقافزون بأصواتهم وهرجهم فى مقلاة المصيبة ..

ذاب حافظ وسط الذين انطرحوا على الأرض .. يزحفون تحت الأتوبيس .. يسحبون بعض العيال أو بقاياهم ، ويرصونهم إلى جوار الحائط إلى أن تحضر

الإسعاف .. منهم من كان سليما لكنه انهار تحت سيطرة الصدمة الثقيلة ، ولما جاءوا بالماء ورشوه عليه أفاق ، وهب واقفا مذعورا ، أما من كان تحت العجل فلم ينطق بحرف ..

التم الناس .. توقف الطريق . زادت النار اشتعالا بحضور أهالى التلاميذ .. دب الصوات محاولا تحرير اللوعة .. وانطلقت الآهات من القلوب المكلومة .. سألت إحداهن عن السائق وهجمت عليه ، شاركها زوجها وأهلها وكل من يعرفونهم وأنقذه قبل النهاية آخرون ..الدماء تسيل والأجسام الصغيرة تفرفر بداخلها الأرواح المهددة بالموت ، وقد تعلقت بها بقايا حياة .. الأهل يقلبون فيها وهى على جانب الطريق مركونة ، وهم يبكون وينادون الله فى توسل وتضرع أن يلطف بهم ويبقى لهم فلذات أكبادهم ..

أخيرا جاءت الاسعاف وحملت من الأولاد خمسة عشر ومعهم ناهد ..

مأساة عاشها الحى كله .. كان بينهم حافظ فاقدا النطق ، بعد أن كف عن الولولة . سكت وظل مكوما على الرصيف ، أعماقه ثائرة حائرة مذهولة ، لا يعترف حتى بينه وبين نفسه أن ما رآه يمكن أن يكون قد حدث فعلا .. على ثقة أنه كابوس .

– يمكن العيال فكوا فرامل اليد . الأرض فيها ميل

وقد حدث للحظات أن أفاق من غيبوبة الصدمة فرأى هنية بعيون الأسف والإحساس العميق بالضياع ، باحثا عن سبب .. تحدث إلى نفسه :

– ليلتها شؤم بنت القديمة .. يوم الخطوبة قبضوا على أخى ، ومؤكد من طلبوها قبلى إما ماتوا أو نقلوا إلى المستشفيات ، وربما دخلوا السجن ، ولعلهم نجوا من هذا كله ، لكن النحس أصابهم وتغلغل فى عروقهم ليصيب الأبناء والأحفاد .. أعوذ بالله . علىّ الطلاق بالثلاثة ما تكون زوجتى أبدا طالما كنت حيا ..

لم يفكر حافظ فى مجرد النظر إلى يس والد عروسته وهو يقلب فى بدن ناهد يسألها الحياة ، كانت جثة هامدة .. نظر إليه بجمود ورآه وهو يبكى ويكاد يختنق بدموعه ولوعته ، من فرط الذهول وصدمة الفجيعة المباغتة التى أطاحت بأحلامه فى ذات اليوم الذى عزم فيه على أن تكون خطيبته .

بقى حافظ غارقا فى صمته المضمخ بالأسى وعيونه الحمراء تحدق خارجة من كل نقطة فى جسده المرتعد ، إلى أن جاء الشرطيان وسحباه إلى القسم .

أما يس الفار فقد تشجع وقرر أن يغادر ساحة المأساة المفاجئة ، وعزم على أن يسير حتى ينتهى العالم . خطا عدة خطوات مهتزة ، لكنه واصل دون أن يعرف على وجه الدقة إلى أين يمضى .

أحس بعد قليل أنه يتناقص .. يتفكك قطعة قطعة .

سقطت عدة أصابع وتلتها الأنف . انسلخ قدم وساق وتلتهما ذراع كاملة . لم يحس بسقوط أذنيه معا ، ولكنه أحس بذراعه الثانية وهى تنخلع وتتدلى إلى جانبه، ثم تنفك تماما وتسقط .. ولابد أنه أحس بصوت ارتطام واضح جدا ، كما لابد أنه أحس بما يشبه العرى عندما سقطت مؤخرته ، وبرغم ذلك ظل يسير ، دون اتزان كامل ، لأنه ظل يستشعر تلك الكينونة المفككة ، وتتسلل إلى أعماقه رغما عنه رجرجة السماء واهتزاز الشمس المتسارع ، وانشطار عدد من الكواكب وتهاوى الشهب ، ومضى مخلصا يحاول الخروج من دائرة مصر القديمة .. دائرة العيون التى تعرفه وتنفذ فى خلايا جسده الباقى .. كان يود لو تبقت له بعض الأعضاء كى تحزن على ناهد وتأسى لفراقها .

رغم ما خسر حمد الله أن أبقى له عينيه حتى إذا أراد أن يبكى قدمتا له المساعدة .. وحتى إذا ما أراد أن يرى طيف الراحلة أعانتاه على ذلك ، وقد كان يخاف دوما الشعور بأنه لا يراها ولا يرى طيفها بعينيه ، لكنه مع ذلك كان طامعا أن يطالع بهما طيفها الجميل وهو متلفع بغلالة شفيفة ، وعيناها السوداوان الواسعتان ، تمتدان بعرض الدنيا كلها ، ودائما على الشفاه بسمة مشجعة .

(٢٩)

قبل أن أسافر إلى أسيوط . مررت على أمى وأختى لأكذب عليهما قائلا إنى أسافر فى مهمة .. علمت من آية أنها وصلت .

نقرت نقرتين على بابها .

وتركت لها قصاصة تحت عقب الباب :

«هاأنذا أراك يا حبيبتى مقبلة تتهادين كنسمة الربيع .. بقوامك الذى يشبه النخلة الرفيعة .. مرفوعة الرأس يداعب الريح ضفائرك ، وتزين الثمار الحمراء خدودك وجيدك .

تكاد قدماك لا تلمسان الأرض وأنت تخطين كراقصات المعبد ، وتتماوج ذراعاك ويداك فى دلال كأمواج البحر .. صوتك يحمله إلىّ النسيم من بعيد كرنين قيثارة الحب ..

هاأنذا أراك يا حبيبتى مقبلة ، فيبتهج قلبى وأمد ذراعى لأضمك إلى صدرى ، ويهتز قلبى فرحا وأنت تهمسين : حبيبى لا تبتعد عنى ..

عزيزتى : هذا ما قاله سنوحى لحبيبته الأميرة الجميلة تيكاهيث ..

أرجو أن ألقاك صباح غد الجمعة عند الباب الخلفى لمدرسة المعوقين .

* * *

مضت بنا الأقدام من شارع بيوت العرب متجهة شمالا .. صعدنا الكوبرى الجديد ودرجاته العريضة ، سرنا فوقه مطلين على الطريق الذى تحته .. طريق منطلق بسياراته قادما من كورنيش النيل إلى شارع صلاح سالم مرورا بكوبرى الخارطة .. تسبقنى فى شارع الحجارة إلى أن تصل إلى شارع العبيط .. تنتظرنى ونمشى معا .. الشارع كبير والناس أقل وكل واحد مشغول بأحواله . نصل إلى شارع مارى جرجس ومحطة مترو الأنفاق .. ومجمع الكنائس ، شارع هادىء جدا تظلله الأشجار وتخف فيه الحركة إلا القليل من المارة القادمين من شارع حسن الأكبر ، حيث جامع عمرو والورش والمحلات المجاورة ..

كنيسة العذراء على يميننا وبقايا حصن بابليون ، بعده على نفس الصف ، كنيسة ودير مارجرجس .. نهبط درجات السلم .. نرسم خطواتنا على المربعات الحجرية التى تحت أقدامنا ، تمضى بنا فى حارة ضيقة وهادئة .. استشعر كأنها جزء من معبد ، وكأننى أمشى بين عباد لا بين جدران وأسوار لأديرة .. بعد أمتار دير مارى جرجس للراهبات .. تطلب صديقتى أن تلتقى بالأب فرج .. الأب فى خلوة يرجو ألا يطرق أحد بابه اليوم بطوله .. باب الدير يزيد ارتفاعه على ستة أمتار .. عال جدا ومهيب ، ورغم مرور القرون ، فمازال قويا وأحد العناصر الأثرية فى الدير .. جلسنا فى حديقة الدير بعض الوقت ، نرقب الداخلين للزيارة ونوال البركة .. بالمثول أمام آثار الشهيد والسير على طريق سبق أن داسه ويتنفسون هواء سبق أن تنفسه ..

سألتنى الجميلة وهى تقدم كلمة وتؤخر كلمات .

– هل أنتم تؤمنون بالمسيح ؟

ابتسمت ، فسألتنى عن سر بسمتى .. قلت لها سألتنى نفس السؤال من قبل وأقول لك :

– نؤمن به طبعاً كما نؤمن بموسى وكل الأنبياء والرسل .. هكذا أمرنا الله فى قرآنه ووصانا الرسول به . ففى سورة المائدة من القرآن الكريم يقول سبحانه وتعالى : «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» ، وفى سورة البقرة : «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله» .. الكل لدينا سواء ، لكن عيسى على وجه الخصوص له مكانة خاصة ، لأن له قدسية الميلاد ومعاناته مع المتربصين به وظروف وفاته ، شابا لم يتجاوز الثالثة والثلاثين ، فى حين أن عددا كبيرا منهم يعمرون ، وسيدنا محمد توفاه الله فى الثالثة والستين ، والأهم من هذا جميعه أنه نبى النصارى الذين قال الله فيهم فى سورة المائدة :

«ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون» .

أنا شخصيا أحب المسيح بصرف النظر عن هالات التقديس الزائدة التى تحاط بها سيرته ..

تعجبنى فيه بشريته . إنسانيته . ليست المعجزات هى وسام المجد ، لأنها من عند الله ، ولكن سلوكه الجميل مع الناس ودعوته للقساة بعذوبة ، هى التى تحبب الجميع فيه .. مسيحيين كانوا أو مسلمين ، وكما تعلمين فإن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليست لديه معجزات إلا القرآن وهو من عند الله ، لكنه الإنسان الذى يحاول أن يضع نظاما لسلام البشر ومحبتهم ، ومنهجاً قوياً يضمنون به فلاحهم فى الحياة ، وفوزهم برضا الخالق سبحانه ، وهذا هو مجده وإسهامه الذى يستحق به حب البشر واتباعهم له .

قالت الحبيبة وقد علت خديها حمرة :

- أحفظ سورة العصر ..

- حقاً !

- وسور أخرى مثل الكوثر والإخلاص والنصر .. وسورة ليلة القدر

- رائع ..

- أتحب أن تتعرف على درجة حفظى

- ليس امتحاناً ولكن مصدراً من مصادر الفرح .. لأننى أفرح كما تعلمين بكل ما هو ثقافة .

- والعصر إن الإنسان لفىَ خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

- جميل .

- عندما حفظتها فهمتها على الفور ، ما عدا كلمة وتواصوا - سألت عنها حتى فهمتها .

- ومعناها

- أظن أن معناها أن الذين سينقذون من الخسارة ، هم الذين يذكرون بعضهم بكل ما هو حق وصواب وينصحون بالصبر و ..

- ممتاز .. أنت مسلمة أكثر منى ..

ضحكت وقالت : والآن .. هل يوجد من المسلمين من يقرأ الإنجيل ؟

- نعم يوجد ولكنهم قلة .. لأن عندنا مشكلة .. الكتب الدينية التى تتناول الإسلام والعبادات والفقه والشريعة والأحكام والآداب السلوكية كثيرة جداً .. جداً لا يستطيع إلا القليل منا مطالعتها .. وكثرتها لا تعطى فرصة للاطلاع على غيرها .. وعلى أية حال لا تشغلى بالك بهذه المسألة .. هذا لنا وهذا لكم .. أنتم تفعلون كذا فى حين أننا نفعل كيت .. المهم أن يكون الإنسان مهتما بدينه ، أيا كان .. صحيح أن الإسلام هو الدين الخاتم .. أى الأخير والنهائى ، وكان من المفروض أن يترك الجميع دينهم ، ويتبعوا الإسلام ، لا لأن المسيحية غير الإسلام ولكن لأن الأخير جاء مفصلاً وكاملاً ، يشمل كل الأديان ويشمل كل المذاهب ، وفيه كل الشرائع والنصائح التى يريد الله أن يهتدى بها البشر فى حياتهم ، المسيحية ليست ملك أصحابها ، إنها ملك لله ، والإسلام ليس ملكاً لأصحابه .. الإسلام لله .. لأن الدين لله والوطن للجميع ..

الأديان تشبه القرارات التى يصدرها الحاكم مع الفارق .. فالقرار الأول ينفذه الناس ، ولما يصدر الحاكم قراراً أشمل من الأول وأحدث منه ، ينفذون الجديد ، فإذا أصدر ثالثاً فعليهم أن يتبعوا الأخير ، لأنه جاء بعد تجارب وبعد القرارات السابقة التى ظهرت لها ثغرات عند التطبيق .

يذكرنى هذا بالخمر ..

- هل تشربها يا على ؟

- شربتها مرة ، ولم ترق لى ، ولم أعد إليها أبدا .. ذكرتنى بما جرى بشأنها فى بداية ظهور الإسلام .. قال الله فى سورة البقرة وهى أول سورة ، كما أظنك تعرفين .

- أعرف.

- «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس» ... لاحظى قوله : فيهما إثم ومنافع ، كان العرب جميعهم تقريباً يشربون الخمر وهى

أنيستهم فى أغلب المجالس وكل الليالى ، لذلك فلم ينزل أمر الله بمنعها وأبان فقط أنها يمكن أن تضر .

وبعد أن امتنع البعض عنها وظل البعض عليها ، وتزايد عدد المسلمين وأراد الله أن يضع الشرائع التى تضمن استقرار البيوت وسلامتها ، قال فى سورة المائدة :

– «إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون» ..

– فهمت قصدك .. لكن ..

– لكن لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى .

– يعنى ..

– يعنى يكفى ما قلناه .. هيا بنا نمشى ونتحدث عن أنفسنا .. حدثينى عن الكلية والمحاضرات ..

عبرنا خط المترو ، وبلغنا النيل ، أخذت كفها فى كفى وأدنيت كتفها من كتفى وأسعدنى النسيم إذ لطمنى لطمات رقيقة من خصلات شعرها البنى الناعم .

قالت : كل شىء على ما يرام .. لكن ما يشغلنى حقا أننى كثيرا ما أسأل نفسى كيف يفكر على فىّ .. ما شكل صورتى فى خياله .. هل يستدعينى ويكلمنى، أم أننى أمر على باله بالصدفة .. وهل أنا بالنسبة له كما هو بالنسبة لى ..

– تسألييننى هل ..

قاطعتنى باسمة :

– اسأل نفسى ..

– أنا نفسك .. فاسمحى لى أن أجيب ..

– اسمح لك ..

– لا تصدقينى إذا قلت لك : إنى جننت بحبك وإنى فقدت قدرتى على التفكير فى غيرك ؛ ولم تعد سيرتك إلا فراشى بالليل وصورتك إلا رفيقى بالنهار .. لكن

صدقينى إذا قلت إنى أحبك حب العاقلين ، إذا جاز أن يحب العاقلون ، أو يكون لهم حب خاص .

أقول لك فقط إن حياتى كانت فارغة وجئت أنت فملأتها ، وكان نومى كنوم الميتين فأطلت صورتك فى الأحلام ، تضىء الليالى الحالكة ، وأجدنى معك نسير ونسافر ونتعانق ، ونأكل معا ونضحك .. وفى آخر الأحلام رأيتنى أركب مرجيحة وأنت إلى جانبى تركبين مرجيحة .. نتسابق ونعلو ونقترب ، عيونك على وعيونى عليك ، لكن مرجيحتك تبطىء قليلا فأصعد أنا وتهبطين وتصعدين وأهبط .

أهم محطة فى حياة كل إنسان هى بداية الشباب لأنها نقطة الانطلاق لبقية عمره ، فمن يسعده الله فى هذه المرحلة بالعثور على نصفه التائه بين أبناء وطنه ، بل أحيانا يتوه بين أبناء الإنسانية جمعاء .. ويكون هذا النصف محققا للتفاهم والانسجام ، مفجرا للسعادة والأمل .. تصبح الحياة جديرة أن نحياها .. وقد حدث ، فأنت نصفى الذى لا نصف غيره .. لذلك فأنت بالقرب منى دائما ، قد لا أفكر فيك أحيانا كثيرة ، لكنك دائما فى عقلى .. فى نفسى .. فى روحى .. فى إدراكى .. فى قلبى .. فى سمائى .. فى أرضى .. فى الشوارع .. فى الطعام والشراب .. فى الفراش وعلى المكتب ، وفى كل مكان ، قريبة من عيونى وأنفى وآذانى وأنفاسى وأطراف أصابعى ونبضى ..

كلما تناولت طعاما شهيا تمنيت أن تسرى حلاوته فى شفتيك ، وكلما شربت شرابا لذيذاً تمنيت أن يرويك قبلى ، وكلما قرأت كتابا ممتعا وددت لو كنا نقرأه معا سطرا سطرا ، وينتقل إلى عقلك ما انتقل إلى ..

فجأة قلت لها : يارب الدنيا تمطر ، قالت فزعة : لماذا ؟!

- هل تذكرين عندما هطل المطر فى أحد الأيام منذ شهر تقريبا .. وكنا معا قد سرنا من بركة الحبش أقصد اسطبل عنتر حتى مجرى العيون . هل تذكرين ؟

- اذكر أنك قلت بيتين من الشعر عن بركة الحبش .. شعر جميل ، نسيته طبعا كعادتى .

- آه .. شعر أبو الصلت أمية الذى قال فيه :

لله يومى ببركة الحبش ونحن بين الضياء والغبش

والنيل تحت الرياح مضطرب كصارم فى يمين مرتعش

- وأذكر أنك حدثتنى عن مجرى العيون التى بناها صلاح الدين لتروى القلعة وجددها قلاوون ، ثم هطل المطر .

- رائع

- من عاشر القوم .

- وأخذنا نركض وحدنا تحت الماء .. حتى وصلنا إلى ميدان فم الخليج .. وقف كل منا قبالة الآخر لحظات ثم بدأنا الرقص .. كنا وحدنا والناس جميعا يجرون ويختفون فى مداخل البيوت .

أضاء وجهها وهى تقول : أذكر .

- وأخيرا توقف المطر وتسللت أشعة شمس واهنة من بين السحاب الرمادى المختنق .. ساعتها أخذتك فى أحضانى وخبأتك فيها .. ضممتك بقوة .. ضممتك بقوة ، وشربت المطر الذى كان لا يزال يتقطر على وجهك ، شربته من جبينك ومن عينيك ومن فوق خديك ومن أنفك ، ومن شفتيك وذقنك ورقبتك .. وعدت أضمك بقوة ، أغمضت عينيك وأغمضت عينى وذبنا معا .. تماما واختفى الزمان .. لم أعد أحس به .. واختفى المكان لم أعد أعرف أين أنا ، وبعد دقائق أو ساعة ، أو ربما شهر .. تذكرت أن أتنفس من أعماقى ، وأسرف فى شهيقى ، لعلك تدخلين مع الهواء إلى عمق أعماقى وتسكنين فيه إلى الأبد ..

ضغطت الحبيبة على يدى وتطلعت إلى وكانت عيناها بحيرتين من دمع أحمر .. ولما فزعت أسدلت رموشها فانفطر الدمع وسال على الخدود .. سحبتها برقة وراء شجرة ومسحت دمعها .. ضممتها إلى صدرى الذى كان كالطبل من وقع طرقات القلب عليه .

تنفست وهى مخبأة فى صدرى ، وسمعت شهيقها العالى وهى تغرف من رئتى أنفاسها وتشرب من روحى هدوءها .. اعتدلت وأطلت فى عيونى وقالت بثبات :

- ماذا بعد هذا الحب يا على ؟

أخرجتنى من وجدى وإشفاقى عليها ، غالبتنى مسحة من الدهشة للسؤال المفاجىء .

قلت :

- بعد الحب .. حب .. مزيد من الحب .

- وبعد المزيد من الحب .

- أشعر أن حالتنا ستكون كحالة فيكتور هوجو وحبيبته جولييت دورييه وهى ليست أم أبنائه ، وليس هو أب أبنائها .. أحبته وأحبها ..

- ما حكاية جولييت .

كانت راهبة فى حبه تعيش له وتسعد به وبكتاباته ، تعد له أشهى وجبات الطعام وتنظم منزلها حتى يكون لائقا به .. تهتم بأناقته وهندامه ، وتغسل ملابسه بنفسها وتحرص على نظافتها . وقد كتبت إليه يوما : أرجوك .. مزق ثيابك حتى استمتع بلذة رتقها ، وكانت تنظم أوراقه وترتب مقالاته وتنسخ رواياته ، ولا تسمح لأحد من أبنائه أن يفعل شيئا له ، وبقيت كذلك خمسين عاما ، أطال الحب عمرها ، وقد وهبت هذا العمر كله للحب ..

- هذا ليس حبا ، هذه عبادة ..

- ولماذا لا يكون الحب عبادة ؟ المهم أن يدفعنا الحب إلى الجمال ، ولو لم يفعل فهو جريمة .

- الغد يا على .

- لا تفكرى فيه ، إنه ملك الله .

- سوف تمر الأيام ..

- تمر .. الحب لا يكبر ولا يشيخ .. الحب دائما طفل وليد ولا داعى للتفكير فى تقييده .. دعيه يجرى كالطفل فى الحديقة .. حرا بريئا طاهرا ..

- لن يدع المجتمع ذلك الطفل يلهو كما يشاء ..

- تسلحى بالإيمان .. الإيمان بالله وبالحب وبالحبيب .

- الإيمان لن يحمينا ونحن نتلقى سخط الساخطين ..

- كيف لا يحميك الإيمان بالله ، الأمركله ، واحدة من اثنتين .. إما الإيمان أو الجنون ..

- أظن الثانية .

- لا أذكر اسم الفيلسوف الذى قال : إن المحبة حين تكون صادقة مخلصة فإنها تنطوى فى ذاتها على قيمة قاطعة تبرر وحدها شتى انحرافات الحب ، والمسيح عليه السلام هو الذى قال لم آت لدعوة أبرار ، بل خطاة إلى التوبة ، ونحن بالحب نتوب ..

- على ..

- عيون على ..

- هيا بنا .. لقد تأخرت .

لن تذهبى قبيل أن تسمعى هذه الطرفة :

مر الأصمعى بجدار كتب عليه أحد الفتيان :

أيا معشر العشاق بالله خبروا .. إذا حل عشق بالفتى ماذا يصنع ..

فأجابه الأصمعى على نفس الجدار :

يدارى هواه ثم يكتم سره .. ويصبر فى كل الأمور ويخضع ..

فكتب الفتى :وكيف يدارى والهوى قاتل الفتى .. وفى كل يوم قلبه يتقطع .

فأجابه الأصمعى :

فإن لم يجد صبرا لكتمان سره .. فليس له عندى سوى الموت ينفع ..

وفى اليوم التالى مر الأصمعى بالمكان فوجد الفتى ميتا وقد كتب :

سمعنا ، أطعنا ثم متنا فبلغوا سلامى إلى من كان للوصل يمنع ..

ضحكت من قلبها وأشرق وجهها بنور الجمال وقالت :

- هذا شهيد الحب .

فرحت لفرحها وقلت :

- اللهم هذا حالنا لا يخفى عليك .

- يبدو أن مصيرنا المحتوم نفس مصير الفتى .

- صبرنا يا ماجدة وكتمنا .

وفجأة انسحبت البسمة وقالت بهدوء :

- حتى الصبر والكتمان لن ينفعانا

- لا تحملى هما .

نكست رأسها ومضت ، وأنا أتابعها بنفس قلقة لا تستطيع أن تتجاهل السحاب الذى يتدافع نحو السماء الصافية .

(٣٠)

أراد الله أن يعمر الكون بالبشر الذين يحبهم ، لأنهم أفضل خلقه ، فزرع فيهم شهوة الجنس ، وبهذا جذبهم لتعمير الأرض من ألذ الأبواب وأقواها ، هذا ما قاله ملاك ، لكنه فوجىء بتلميذه النجيب يقول له : التعمير الحقيقى لم يأت من الجنس ، وإنما جاء من شهوة أخرى هى حب المجد والشهرة .. تناقشا طويلا . لكن ملاك كان مستعدا للتسليم . وسرعان ما أطلت الأحداث من طاقة الأيام ، ووقفت أمام سبورة ملاك ..

وافقت اللجنة الدستورية العليا على أسماء أحد عشر متقدما للترشيح لمجلس الشعب .. بين عشرات الذين تقدموا له بطلبات ، يحدوهم الأمل فى العضوية عن دائرة مصر القديمة .. أبرز الأسماء د . شاهر لطفى أستاذ الاقتصاد . نبيهة ريحان محررة صحفية ، مراد بخيت وكيل وزارة التموين ، راغب راغب رئيس نقابة عمال المناجم والمحاجر ، جابر وهيب مستشار مجلس الدولة ، ومن رجال الأعمال ، منير زخارى ويحيى صقر ، كما كان هناك ثلاثة من العمال المغمورين .

قام كل مرشح باختيار خبير فى الحملات الانتخابية ، وشاركه فى وضع الخطة الدعائية .. اتسمت معظم الخطط بالتشابه الشديد بينها وبين الخطط الحربية .. قيادات الحملة .. مواقعها .. أساليبها .. أسرار الخصوم .. نقاط الضعف .. نقاط القوة .. الاستشاريون .. مصادر التمويل .. أوجه الصرف .. العقبات .. الإعلام .. المندوبون .. المطبوعات . السيارات . الإكراميات والرشاوى . الخرائط الكاملة للدائرة بأحيائها وشوارعها وحاراتها ، أسماء العائلات الكبرى ، أسماء الشخصيات المهمة . أعضاء المجلس المحلى . أعضاء النقابات . المدارس . المستشفيات . المواقع ذات التجمعات الكبيرة ..

انطلق الرجال والشباب والنساء ينفذون الخطط . انتشروا على أرض الدائرة بجدية ، وعزيمة لا تعرف الكلل .. لا تفكير فى طعام أو شراب .. لا تفكير فى راحة أو نوم .. خصص لهم المرشحون مرتبات وحوافز مغرية ، ربما أضعاف ما

يحصلون عليه من جهاتهم الأصلية . معظمهم أخذ اجازات من أعمالهم .. ومنهم من أغلق أبواب متجره بعد أن حسبها جيدا ، آخذا فى الاعتبار مكاسبها العاجلة قبل النتيجة ، ومكاسبها الآجلة بعدها ، فقد ينجح مرشحه وعندئذ لن يتوقف نهر الخير .

لم يترك رجال المرشحين مربعا صغيرا أو كبيرا فى الفضاء إلا وشدوا عليه أقمشة الدعاية ، وأقيمت السرادقات الكبيرة ليتحدث فيها المرشحون إلى الشعب عن برامجهم ، وماذا أعدوا من أفكار لتطوير الحى وتلبية الحاجات وتوفير الضروريات ، ونقل الدائرة كلها من حالها البائس إلى حال الرخاء والرفاهية ، وتنعدم تماما كل أسباب الشكوى ، ويأمل الجميع فى المستقبل الذى يحمل إليهم رجالا مخلصين .

اختار صقر لحملته يوسف ابراهيم المحامى يساعده محسن اللبودى ونبيل الفار وفتحى الدمنهورى ابن خالة صقر ..اختار يوسف شعارا للحملة أرضى يحيى جدا وأثار إعجاب مؤيديه وحسد منافسيه ..

الشعار هو (نحن لا نتكلم . نحن نفعل فقط) ، ومن هذا الشعار كتبت العديد من العبارات التى تستلهمه وتنبعث منه (آن أوان الفعل .. كفاية خطب) (أطلب تجد) (نعتذر عن الكلام ، لا نعرف إلا الأعمال) (انقضى تماما زمن الثرثرة) (لا تستمعوا إلى وعود) (زرعتم ويحيى صقر يدعوكم لجنى الثمار) ..

لكن الشعارات الجميلة البليغة لم تنزع تماما من العقول والذاكرة حقيقة راسخة هى أن يحيى صقر مجرد سائق غير متعلم ، وهو بالطبع غير قادر على أن يمثل الدائرة فى البرلمان . الأحق بذلك رجال يملكون اللسان والتعليم والثقافة والخبرة مثل د . شاهر لطفى ونبيهة ريحان والمستشار جابر وهيب ..

تسلل القلق إلى قلب صقر بقوة لأن مسألة ماضيه المتواضع ، وإثارة الشك حول مصادر أمواله المفاجئة امتدت وانتشرت وسمعها رجاله فى كل مكان . أثارت البلبلة وسممت ضده الأفكار . وعبثت بقناعات البسطاء .

لم يكن ينام غير ساعتين فى النهار ، لقد خطط جيدا كما نصحه مستشاروه ، أولهم الصول عواد النمس .. وطوال شهور أنفق بسخاء . حقق صيتا بلا حدود ، نفذ إلى البيوت . حفرت صورته فى الذاكرة وتردد اسمه على كل الألسنة . أصبح حديث الناس فى كل ميدان وكل زقاق ، لكن هذه البقعة فى سيرته تركض بسرعة وتنتقل فى لهفة ، كما تمرق النار بين أكياس القطن أو الكتان .. مسألة مثيرة لشديد القلق ، بل الفزع لأن المشروع كله بداية من زواج نرجس يوشك على الانهيار بصورة مدوية ..

ألم يجهز القاعدة كما يقولون : رفع المعاناة عن المئات وأطعم الآلاف وكساهم وعالجهم .. جاد بالملايين غير ناقم ولا نادم ، حتى قيل عنه إنه يصرف بغشم ، لكنه راض وسعيد لأنه يسمع الدعوات ، وللدعوات من أفواه المساكين وهج ولذة وسحر .. أليس هذا هو الرصيد الكبير فى بنك الشعب ؟! وأهم من هذا أنه طلب رضا ودعم شخصية مهمة فى الحكومة حسب نصائح كل الناس ، فذهب عدة مرات بالهدايا إلى كمال الدهبى ذى الكرش الكبير والأسنان الذهبية ، فى ثالث مرة قال له : اطمئن يا صقر .. خلاص . لكنه اكتشف - وهو فى غاية الدهشة - أن الناس تحب وتقدر منير زخارى مثله ولا تكاد تميزه عنه ، رجل أعمال مثقف ومتعلم . لديه عدد من الشركات الناجحة .. يطالع الناس وجهه فى التليفزيون .. ويستمعون أحيانا إليه فى الإذاعة . وله وجه سينمائى وفى حديثه لباقة ووعى ، لكنه لا ينفق على المشروعات إلا القليل ، وكان ذلك سببا فى حيرة صقر .. كان يتصور أنه بما أنفقه يفوق زخارى ..

على أية حال المشكلة ليست فى زخارى . المشكلة أن الناس تقريبا تجمع على أن الأفضل هو د . شاهر لطفى ، أستاذ الاقتصاد بكلية التجارة ، الكثيرون يعرفونه ويتحدثون عنه باحترام ، وكان عضوا فى المجلس من قبل ، ويذكر له الناس قوة حججه وجرأة استجوابه ، ومازال الوزراء المسئولون يخشون لسانه ودراساته الدقيقة ومقالاته المستفزة فى الصحف ، ولم يكن ممن يهرولون إلى الوزراء طالبين الحصول على المزايا لهم ولأبناء الدائرة .

لكن يحيى صقر لم يتصور أبدا أن تكون نبيهة ريحان المحررة بجريدة الأسبوع ضمن الوجوه البارزة وتتمتع بهذه الشعبية وهو لم يسمع عنها مطلقا .. قيل إن عائلتها كبيرة فهى بنت سالم ريحان الذى كان وكيلا أو ل لوزارة الخارجية فى الستينيات ، وجدها ريحان باشا مستشار الملك وعمها رجل الأعمال الشهير حشمت ريحان المقرب من رئيس الجمهورية .. خالتها كانت عضوا فى مجلس الأمة قبل عشرين عاما ، كان يمكن لو استمرت بعافيتها أن تصبح رئيسة وزارة لولا أن تهشمت عظامها بعد الحادث المروع الذى راح ضحيته ابنها وسائقها ، ولا تزال حية ودماغها سليمة بنسبة ألف فى المائة .. تحطمت جميعها إلا عقلها .. ونبيهة تزورها صباح كل يوم ، تطرح أمامها حصيلة حملتها وتتلقى النصائح الجديدة . ثم تلتقى برجالها فى المساء لتقدم لهم ما فكرت فيه ، وما تراه من تطوير ومهام جديدة ..

يشعر بالغرق .. بالضياع ، ويؤكد له رجاله أن شعاراته وأعماله سلاح قوى فعليه ألا ييتئس ، لكنه يشعر فى قرارة نفسه أن المشروع كله خطأ .. لأول مرة ينظر فى مرآة نفسه ويتأمل أيامه الماضية ، منذ تركه أبوه وتزوج .. لقد حاول أن يصعد بعيدا عن المستنقع .. تذكر أشياء كثيرة خطأ وارتجال وتهور وكذب .. ما بنى على خطأ مصيره معروف .. قصور الرمال سوف تتهاوى كلها فوقه ، وستمسح بكرامته الشوارع .

- «تروح فين يا صعلوك بين الملوك» .. أستاذ جامعى يحاضر فى جامعات أمريكية وأوروبية ، ونبيهة هانم التى حضر الملك زواج خالتها عام ١٩٥١ ولم يتمكن من حضور زواج أمها لأنه كان قد طرد إلى إيطاليا ، وزخارى الذى ترك له أبوه مصنعين وأضاف هو إليهما مصانع جديدة ومشروعات أشكال وألوان ويجيد عدة لغات ، ويفهم فى القوانين مثل أصحابها .. من أنا حتى أتحدث لدقائق مع المستشار وهيب الذى رشح عدة مرات لوزارة العدل ورأس العديد من المحاكم ، وكان عضوا باللجنة الدستورية وصاحب اقتراح محكمة القيم ومنصب المدعى الاشتراكى ، وكان رجل السادات الأول .. قال يوسف ابراهيم نقلا عن شخصية

كبيرة موثوق بها ، كان يوسف واحداً من هيئة الدفاع عنه بسبب اتهامه بالحصول على مائة مليون جنيه قروضا من عدة بنوك بدون ضمانات .. رغم شخصية السادات القوية وإحساسه العالى بنفسه ، إلا أنه كان حريصا على أن يلتقى وحده بالمستشار وهيب مساء كل يوم ثلاثاء فى تمام العاشرة والنصف ولم يختل الموعد إلا مرتين ، مرة بسبب وجود نيكسون بالقاهرة ، ومرة لوجود السادات فى الإسماعيلية مع بيجين وكارتر .

أكوام من الأسرار والأخبار توضع مساء كل يوم على مكتب صقر .. فيصيبه الذهول ، ويأسف بينه وبين نفسه لأنه هو الوحيد الذى لا يجد نقاط ضعف فى خصومه .

- هل كتب علىّ أن أحارب عشرة ، كل واحد منهم خرتيت فى مجاله .. لا أمل إلا إذا خرج البعض من السباق .. لازم العملية تخف والوزن يقل .

كلما تسلل إليه اليأس وأوشك على الانهيار شدوا حيله وآزروه ، ووضعوا تحت إبطيه السقالات الخشبية وأوقفوه وجددوا أمله ، فيتنفس من أعماقه ويستعد ليوم جديد ، لعله يحمل مزيدا من ثقة الناس فيه ، واستعدادهم لأن يقبلوه ممثلا لهم .

أخيرا اعترف يوسف رئيس الحملة الانتخابية أن نبيل ليس مخلصا كما تحدث عنه صقر ، وأوضح للمرشح أن نبيل لا يجتهد فى أداء ما يوكل إليه من أعمال ، ودعاه صقر إليه وأنبأه بما قاله يوسف فأبدى دهشته ، وتحدث باستفاضة عن إنجازاته وتجنيد عشرات الشباب من أصدقائه للعمل معهم، وطلب شهادة فتحى الدمنهورى .

انتهى الموقف بتعهد نبيل أن يزيد عطاءه وجهده ويبتكر الأفكار ويعمق الصلات مع العائلات الكبرى .. وكان نبيل قد تصور أن يوسف شقيق زوج أخته راوية لن ينقل أى تقصير إلى صقر .. فالحقيقة هى بالضبط كما وصفها يوسف .. نبيل كان متعاطفاً مع أستاذه شاهر لطفى ، وهو أحب أستاذ لديه ، شكلا وعلما ومنطقا وفكرا ومنهجا فى الحياة ، وكان يتصور أنه قادر على أن يحنو حنوه ، ويتخذه

قدوة ومثلا أعلى ، لكنه عندما نجح بتقدير مقبول ، هبطت روحه وتراجعت آماله ..
وظل المثل كما هو فى عليائه ، وربما زاد علوا .. يتتبع أخباره ، ويحييه إذا التقاه
فى سيارته ويسلم عليه كلما رآه وهو على باب الفيلا ينتظر أن يخرج السائق
بالسيارة من الجراج .. الفيلا المجاورة لفيلا البارودى التى يحتلها الآن
خصمه يحيى .

شاهر يعرف تلميذه من أيام الكلية ، ولا يزال يحفظ اسمه وشكله ويرى فيه
شابا نجيبا ، فقد كان يشارك بحيوية فى المحاضرات ويحرص على حضورها
بانتظام ، يسأل ويجيب ويقوم بنشاط رياضى واجتماعى .. طالب معروف وليس
من النماذج النكرة أو الخاملة ، لكن علاقته برباب كانت قديمة وعميقة ويبدو أنها
أثرت على تحصيله . وقد دهش الدكتور عندما علم بتقدير نبيل . لكنه لم يعرف
بأن قلب نبيل بدأ يتجه نحو ابنته بعد انحسار موجات الحب القديم .

نبيل أثناء الحملة كان حريصا على أن يظل متواريا مجهولا ولا يتباهى كما
يفعل الجميع بأنهم يمثلون يحيى صقر .. كان يعمل بغير حماس لأن يحيى كلفه
بذلك ، وكيف لا يعمل له وهو مدير محلاته لقطع الغيار ، لكنه يتمنى أن يعمل مع
الدكتور شاهر الذى يثق فى أنه سيسحق الجميع ، كما أنه صديق ولده طارق ..
وتحظى نهال بإعجابه ، ومن يدرى .. لعل ..

* * *

علم صقر أن نبيهة ريحان ستلقى كلمة فى الجماهير المحتشدة فى سرادق
خاص بها . اضطر أن يغير ملامحه ويتخذ عدة المصور الفوتوغرافى ومضى
لمشاهدتها .

نبيهة فى الخامسة والثلاثين .. آية فى الجمال . سبحان من صور ، زوجها
عميد جيش ، وكان مديرا لمكتب وزير الدفاع قبل أن يكلف بالعمل ملحقا عسكريا
فى دولة كبرى وأعيد بعد تقرير يصمه بالحصول على عمولات أسلحة بعد أن تم
تصويره عدة مرات مع عدنان خاشقجى ، ويقال إن القضية حفظت لأن الأدلة غير
كافية وغير دامغة .. لكن الأقوال كلها انتهت إلى أن الحكومة تسترت على أخطائه
كما تعودت مع رجالها .

نبيهة سيدة تفيض حيوية ، تتحرك بدقة وثقة ، تتحدث فى قوة ، تركب سيارة أحدث موديل ، هانم بكل معنى الكلمة .. تحدث إليه رجاله عنها بمنتهى الإعجاب... وعندما قال صقر ليوسف :

- ما رأيك لو تنازلت ؟ آه .. أتنازل أشرف ..

اندفع يوسف قائلا :

- إذا كان ولابد ، تنازل لنبيهة .. الواحد يتنازل لها عن عمره وليس عن البرلمان .. أين تاهت عنها السينما .. هذه واحدة من عجائب بلادنا ..

- ربما عرضوا عليها ورفضت

- عندك حق .. فاتتنى ..

لما صعدت إلى المنصة .. سكت الجميع فجأة ، كانوا فيما يبدو يعرفون طبعها .. لم ينطق مخلوق بحرف .. ظلت ساكنة لحظات ، وهم لا يكادون يتنفسون ، ثم تكلمت ، فأعجب بها أحد الحاضرين وفكر أن يقف ليهتف بحياتها أو يحييها ، لكنها - قبل أن يفتح فمه - أشارت إليه بأصبعها كى يجلس ..

دنا منها صقر ودنا ، حتى أصبح تقريبا تحت قدميها وهو يحمل آلة التصوير ، تأملها وصورها ، ثم عاد يتأملها ويصورها ، ثم خرج وهو يقول :

- لو لم تكن متزوجة ، صدق يوسف .. النمر ، هى أهم من المجلس والوزارة أيضا ، إذا تزوجها الإنسان ماذا يريد من الدنيا بعد ذلك ..

وضحك وهو يتيح الفرصة للتعليق الطريف المتفجر ..

- بسيطة .. نطلب من زوجها تأجيرها عشر سنين .

(٣١)

بعد ما جرى لحافظ أحست هنية أنها مقصودة ، تترصدها نفس مريضة وقلب حاقد وعين لا ترضى أن تراها بخير، لكنها كانت تسأل نفسها:

«على إيه يا حسرة»

لا العربة ذات الخيول أمام الباب، ولا الفيلا التى تسكنها واسعة جدا عليها، ولا الكلاب الولف الكبيرة تمنع أحدا من الاقتراب من ثمار الشجر المتدلى على الأسوار .. ولا العرسان طوابير، منهم الضابط الذى على أكتافه النسور والنجوم.. ومنهم رجل الأعمال الذى ترك سيارته الستة متر تلمع وتسد الحارة، والعيال يلتفون حولها ليشاهدوا وجوههم فيها، وتمر أصابعهم بحنان على سطحها المصقول، ولا.. ولا.. «على إيه يا حسرة»...

ومع ذلك ظلت تقول فى نفسها ويقول لها بعض الأحباب الذين لا غرض لهم إلا التخفيف عنها، ودفع الشعور العميق بالمأساة :إنها لابد عين بدليل ما جرى لحافظ شارودة..

اضطرت أخيرا إلى قطع العرق وتسييل الدم.. والانتقال من حالة الشك إلى اليقين مضت من فورها إلى الشيخ حمزة النشوقاتى لكى يشوف لها حل، ويفك عقدتها ويبعد عن طريقها «العكوسات» التى أحاطت بها من كل جانب.. وخاصة لاعتقادها الراسخ إلى درجة اليقين أن نفوس الناس غير خالصة لا لنفسها ولا لله، فما بالك بالجيران والأقارب والأغراب .. مضت إلى الشيخ دون علم أمها وتمنت ألا ترى هناك أحدا يعرفها..

الشيخ حمزة سره باتع، ما قصده أحد ورجع خائبا، ولا كتب لأحد وصفة إلا وأصابت الهدف ، وعدلت المائل وأرجعت الغائب وقربت البعيد، ومرات يصارح صاحب الشأن بأنه لا يتعب نفسه.. الباب مقفول وإرادة الله لا راد لها ولا محاولة لتحويلها أو تبديلها.. ريح نفسك وارضى..

فى آخر شارع فى عزبة مبارك بعد مدرسة المعوقين.. تقع مضيفة الشيخ حمزة.. هناك فى المضيفة الكبيرة قبل الممر المفضى إلى حجرة ما قبل قاعة الشيخ.. جلست نساء كثيرات وهى المضيفة التى تكون على اليد اليمنى بعد الدخول من الباب الكبير بخطوات ثلاث، وهى معروفة ببابها البنى المشقق.. معلقة به كف كبيرة من نحاس، ومقبض حديدى كبير وصدئ.. الحجرة الصغيرة للرجال وهى إلى اليسار وبابها مقابل باب مضيفة الحريم.. الصغيرة للرجال مناسبة فهى بهم أبدا لا تمتلئ ، وقد تمتلئ الكبيرة بالنساء..

يتوالى دخولهن، واحدة بعد أخرى، وفى الأغلب يرتدين السواد، والسواد ألوان. ليس دائما معتما وحزينا، منهن من ترتدى السواد المزركش والملون والسواد المطرز، ومن ترتدى سوادا يكشف ما تحته، أو سوادا يبدى من ضيق تصميمه مفاتن البدن الجسور، ومن ترتدى سوادا غالى القيمة، وسوادا يبرق كعين الشيطان، وهناك سواد فقير أجرب وكالح، لكن الجميع حضرن لافتقاد السعادة والراحة والأمل، ويطمعن فى التغيير .. وثقتهن كبيرة فى الفرج بعد الشدة..

عندما دخلت هنية لمحت سيدة ذات وجه صبوح تجذب من يدخل إليها.. بياض وجهها شاهق ، وجمال ملامحها آسر.. لم تستطع هنية المقاومة فمضت نحوها مباشرة، ولم يكن أحد بجوارها، كان الجميع فى مقابلها، كأنهن أردن ألا يجاورنها إشفاقا على أنفسهن من قسوة المقارنة، ولكى يستطعن النظر والتمتع بنعمة الخالق وفضله على عباده..

هنية تساءلت فى نفسها:

– غريبة .. كيف من كان فى جمالك تكون له مشكلة أو يحتاج «مشايخ»؟ المشاكل والقهر خلقوا لأجلنا..

هنية جلست.. خلصت رأسها من الملاية. وشرعت تفكر فى البداية .. بداية وصل الخيوط.. فجأة قالت للسيدة الجميلة، التى ترتدى تاييرا أسود مطرزا وتظهر من تحته قصبتان من الرخام الأبيض المرسوم رسمة ربانى رائعة..

- هل مر وقت طويل عليك وأنت هنا؟
- ساعتان
- دائما المضيفة عامرة.
- الشيخ النشوقاتى يأتون إليه من آخر الدنيا.
- أول مرة؟
- نعم أول مرة.
- ربنا يشفى - مما تشكين يا أختى؟
- ابنتى.
- ما بها كفى الله الشر؟
- بلوى بعيد عنك.
- ربنا يشفيها.. أكيد عين..
- يا أختى ربنا ما يوريك .. ابنتى منتخبة ملكة جمال مصر.
- طالعة لك.
- مرسى .. تقدم لها ستين شاب من أحلى وأغنى شباب البلد.
- طبعا مادام جميلة ومؤكد أنهم زملاء والدها.
- أبناء زملائنا فى الجامعة ، ورجال أعمال.
- حضرتك مازلت تدرسين فى الجامعة..
- أنا وأبوها أساتذة .. أنا دكتورة وهو أيضا.
- حصل لنا الشرف..
- ترفض كل هؤلاء وتدخل علينا بواحد مثل الفأر.. قصير وقمئ وأقرع ، وتقول لنا: لن أتزوج غيره...

ضربت هنية على صدرها بقسوة

- يا حبيبتى ياختى.. وضع بطال خالص..
- فضيحة .. مصيبة .. كارثة .. لا أحد منا ينام الليل، وأخيرا حكى لنا واحد من جيراننا عن الشيخ حمزة..

- المهم يكون معك أى أثر من آثارها ما دمت لم تحضريها معك..
- رفضت .. قالت عليه .. دجال ولص.. وأنا سليمة وواعية مائة فى المائة.
- ربنا هو الشافى .. إن شاء الله ستفرحين بها وهى مع من يستحقها.

ظهرت وجيدة العتر على الباب الجوانى فسدته.. جثة مارد من أيام خادم المصباح .. أو مثل الجلادين العظام.. نادت بصوتها الجهورى الخشن:

- د. علياء زهدى

قامت الدكتورة ، ودعت لها هنية بالتوفيق والفرج .. اكتشفت أن بنتا إلى جوارها ومعها أمها والكنبة كلها مسكونة بعد أن كانت مشغولة بالدكتورة وهنية فقط..

عادت تقول:

- كل الناس مصابة بعلل.. والعلل علاجها غير موجود فى الأجزخانات ولاعند الأطباء ، حتى الأطباء أتوا إليك يا شيخ حمزة..

اعتدلت فى جلستها مع مواجهة قليلة نحو البنت وأمها، وبحثت عن البداية.. تعثرت البداية قليلا ، إلى أن قالت الأم لهنية:

- الناس يا أختى كثيرة .. يبدو أننا سنتأخر..

قالت هنية:

- مهما تأخرنا لابد يقابل الجميع..
- أخاف ألا نجد مواصلات..
- أنتم من بعيد؟
- من بنى سويف..
- إن شاء الله تخلصوا على طول وإذا تأخرتم بيتى مفتوح لك إنت والصبية.. ماذا بها؟
- تهيؤات..

اعتدلت هنية: تهيؤات.. أول مرة أسمع هذه الكلمة..

قالت الأم : قولى لها يا صابرين..

زعقت البنت فى أمها بصوت منخفض مبحوح: لن أقول شيئا.. أبعدى عنى يامه.. هو أنا ناقصة كلام وحديث..

قررت هنية أن تسأل عن حال هذه البنت التى فيما يبدو تركبها العفاريت وروحها فى مناخيرها، واشتاقت أن تعرف حالتها، لابد أن تسأل حتى لا تسأل، فهى مؤكد تعانى من مشكلة غير كل هؤلاء النسوة، وهى ليست مشكلة بمعنى أنها صعبة تتعذر على الحل ، لكنها تتعذر على الحكى، سألت أم البنت الحرون:

– العيل لما يكون مريض، أهله هم المساكين.. قولى ياختى وفضفضى..

– صابرين ابنتى ذكية وشاطره ، وتشتغل فى البيت شغل لا أحد منا أنا واخوتها يقدر عليه..

– ومن سمعك..

– لكنها تحب تسهر قدام التليفزيون.. وبالنهار أيضا إذا فرغت من طلبات البيت ..

– خليها تتفرج.. لا أحد سيأخذ منها شيئا إلا الانبساط..

– ابن العمدة شافها حب يخطبها، رفضت .. ابن عمها رفضته.. زميل أخيها فى الجامعة رفضته.. ابن الجابرى بك عنده أرض بلا آخر .. رفضته..

– لابد فيه واحد شاغل بالها..

– صحيح .. لكنه غير موجود فى الدنيا بالمرة..

– لا أفهم.

– كل ليلة تحلم بشاب جميل وكلامه جميل وفارس.. يحملها ويطير بها فوق البلد وفوق المركز وبنى سويف، وتوصف فى منظرها وشعرها الطويل يهفهف ويتفرد ، وشعرها بطولها، وتفضل على هذا الحال طول الليل، والصبح نسمعها وهى تنادى عليه وتقول : يا فارس .. يا فارس.

فجأة صرخت فيها البنت قائلة:

– ارتحت .. قلت كل ما فى نفسك. ممكن تسكتى ولا أقوم أمشى من هنا ..

أسرعت هنية..

- لا يا حبيبتى .. ولا تزعلى .. خلاص نسكت.. ربنا يشفيك إن شاء الله..

خرجت وجيدة العتر فسدت الباب ونادت بصوتها الصاعقة على ناعسة عمران، واصطحبتها ودخلت ، تاركة هنية وهى تكاد تضرب كفا بكف وتتساءل فى حسرة: الخطاب كلهم ذهبوا إلى ابنة الدكتورة وإلى صابرين.. والغريب أن البنات لا تريدهم .. على الله الشيخ حمزة يدلهم على طريقى..

★★★

(٣٢)

كانت مفاجأة.. مفاجأة..

فكلما سأل أحد عن شريط أغنياته.. لم يجده، وقيل: نفد.. الجميع يسمعونه فى كل مكان.. الدكاكين والأكشاك والميكروباصات .. الشباب يضعونه على آذانهم ويمشون فى الشوارع يتراقصون.. صوره فى التليفزيون والصحف .. قال له صاحب شركة الصوتيات: لايهم إذا كان الصوت جميلا صافيا.. قويا أم نحيلا كما صوت العرسة.. المهم الإعلانات.. الناس «هبل» تشترى أى شئ يعرضه التليفزيون، وتسرى العدوى إلى كل من لايراه .

اتفقا معا على أن يتحمل جمعة كل شئ ويقوم صاحب الشركة بالتوزيع مقابل ٢٠٪ من الأرباح، وبعد أن رأى الرجل بعينى رأسه إقبال الناس على جمعة فى الأفراح، وعد أن يساعده فى طبع الشريط الجديد ، وتنفيذ حملة إعلانية ضخمة إذا دفع عشرين ألف جنيه، على أن توزع الأرباح مناصفة ، أى أنه مستعد للمشاركة فى المخاطرة..

اقترض جمعة المبلغ من صقر على أن يرده بعد ستة أشهر، كانت الدعاية قوية ومكثفة، اللافتات كثيرة ، والتليفزيون لايكف عن الإشارة إلى الشريط.. وكذلك محطات المترو..

تم توزيع الخمسين ألف شريط التى تم طبعها بالكامل خلال شهر .. حققت دخلا يتجاوز ثلث مليون جنيه.. استأجر جمعة شقة جميلة وواسعة على النيل فى مواجهة قصر المانسترلى بالروضة.. وأعيد طبع الشريط.. مائة ألف نسخة، وزعت خلال شهر ونصف.

مكسبها مذهل.. فرحة بلا حدود .. شعبية طاغية.. جمعة قارب على الجنون .. لم يتصور أن يشترى الشريط غير أصحابه وهم قلة قليلة، كان على جودة أكثر المندهشين وقد عانى كثيرا ليصدق ولم يصدق، عم ملاك مثله، لكنه لم يقل شيئا ، أما على فقال لجمعة:

- حاذر يا جمعة أن يأخذك الغرور.. إنت صوتك لا مثيل له فى طبقة نبراته الخشنة.. ليس فيه أى جمال..

وكان جمعة يضحك ويقول مهونا:

- اعتبره يا سيدى رزق الهبل..

الشريط يبيع ويبيع، والناس تبارك لجمعة ولكل أهله.. والده لم يهتم.. هنية خرجت بنجاح الشريط من أزمتها.. نبيل فرحان، لكنه مهزوز ، وحائر، وأصبح غير سعيد لأنه لا يجد لنفسه شكلا محددا.. يرى أنه مجرد ريشة فى الهواء يطوحها حيث يشاء ولا يمسك بشئ.. وظل يتساءل فى اكتئاب عما هو بالضبط طريق النجاح.

بعض الناس سمى الشريط .. شريط علاء الدين، على نسق مصباح علاء الدين، وسماه البعض شريط الهنا.. شريط السعد، أما الشيخ ابراهيم فقال:

- قال الله فى كتابه الكريم: «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب» ، وهذا ما حدث مع جمعة، ولكن جمعة لم يتق الله.. اللهم لا اعتراض .. مازالت لديك يارب من الأسرار ما نعجز عن فهمه.. سبحانك.

ذهب جمعة منتشيا إلى صقر ليسدد ما عليه .. قال له صقر:

- لا أريده نقدا.. أريده غناء..

- غناء!

- نعم.. أريد أن تدعم حملتى بغنائك..

- كيف؟

- هذه مهمتك..

- لكن

- لا توجد لكن.. مع احترامى لك ولأهلك، وطبعا نحن أصدقاء .. والورق بيننا مكشوف.. لو لم تكن أموالى ما طلع الشريط ولا نلت هذا النجاح..

- أنا لا أنكر فضلك .. المهم نحاسب على الكلام..

- تاهت ولقيناها.. مالى أريده غناء، وإذا تعللت بأى سبب للتراجع ، فلا أريد المال ولا أريد أن أعرفك..

ابتسم جمعة وانتقل للدعابة مستهجنا كلام يحيى وسرعة غضبه.. ووعده أن يسهم فى بعض اللقاءات بالغناء ذاكرا اسمه وأمجاده.. وتعهد يحيى أن يدفع أى تكاليف للمؤلف وأى موسيقى يشارك فى العزف.. وقال:

أريد أغانى يرددها حتى الأولاد فى الشوارع.. وبسرعة .. لم يعد هناك وقت.

– الأسبوع القادم تكون جاهزة.

– الانتخابات يا .. علاء الدين الأسبوع القادم، أريدها بعد غد على الأكثر..

ركب جمعة سيارته الألفاروميو ذات الصوت العالى والسرعة الفائقة .. مضى نحو الحارة على مهل ليزور أمه وأباه وهنية.. لم يمنع نفسه من أن يقول للمرة المائة..

– رؤوسهم ناشفة.. ما الذى يعجبهم فى البيت القديم المسنود بالبيوت المجاورة؟ ما الذى يعجبهم فى حى لا يصلح إلا ليكون سوقا للحمير والخردة.. كل حاجة أصبحت خردة حتى البنى آدمين..

بتأفف أخذ طريقه فوق النفايات وبقع المياه التى يخيم عليها الذباب.. فلم تستطع أن تحمله سيارته إلى باب البيت..

كان قد عرض على أمه وأبيه وهنية بإلحاح أن يغادروا «خرابتهم» وينتقلوا معه إلى النيل «على وش الدنيا» ، لكنهم كما قال : وقعوا عقدا إلى نهاية العمر مع الفقر ، وربما كتب الهداية لنبيل وميشو فلحقا به .. وكانت هنية فى البداية قد وافقت، لكنها عادت ورفضت أن تترك والديها وحدهما..

بعد أيام فوجئ نبيل وميشو بأصحاب جمعة القدامى والجدد يملأون الشقة ويحضرون كل يوم، والسهرة التى كانت تتم مساء كل ليلة عند موافى العجلاتى، أصبح مقرها الجديد فى الشقة.. يطول السهر وتتعدد المشروبات ، وتتسخ الشقة وتتكدس القمامة والفضلات حتى استاء نبيل من منظرها، لكنه لم يجد الشجاعة ليصنع شيئا، ولم تسمح له كرامته أن ينظف، فمهما فعل بوصفها شقتهم ، فهى تمتلئ بالأغراب..

عاد يوما أحد الأصحاب من سكان الشقة ومعه سيدة لتنظيفها.. سيدة عفية.. طلبت من الموجودين المغادرة، وشمرت عن ساعديها وفخذيها، وكل مايعوق

حركتها وأعملت فى البلاط والجدران التنظيف.. قلبت الشقة ظهرا لبطن.. غسلت كل شئ .. كبيرا أو صغيرا حتى ملابسهم جميعا .. أعادت ترتيب الأثاث كله قطعة.. قطعة .. عاد الرجال مع المساء .. لم يتعرفوا على الشقة النظيفة الهادئة التى تفوح منها رائحة معطرة...

بعد أسبوع رجعت الشقة كما كانت.. أعادوا جلب السيدة التى تعمل فى صمت.. بادرت على الفور بالعمل بعد أن شمرت عن ساعديها وفخذيها وكل ما يعوقها.. وخلال ساعات كانت الشقة، شقة أخرى جديدة تماما وجميلة.. نظيفة معطرة، ولكن سكان الشقة اكتشفوا بعد لحظات اختفاء بعض الأجهزة والمشغولات الذهبية الخاصة بجمعة ، وتساءلوا جميعا : هل كان ذلك جزءا من عملية التنظيف ؟!

لم يتمكن من أحضرها أن يصل إليها مرة ثانية، وقرر جمعة حزنا على المسروقات أن يسهر والأصحاب سهرة صباحي..

وبعد يومين فقط أصبحت الشقة فى حالة لم تعشها من قبل على الإطلاق تبرع أحد سكانها بإحضار فتاة ، طيبة وهادئة وبطيئة ، حاول عدد منهم الاعتداء عليها وأنقذها أحدهم فى آخر لحظة..

لاحظ نبيل أن أخاه يسرف فى السهر والسكر.. دعاه إلى الإقلاع حتى لاتصبح عادة ، خاصة أنه يستعد للشريط الجديد.. تجاوب جمعة بفتور ، وسرعان ما عاد للسهر بلا حساب أو حذر..

قرر نبيل ترك الشقة والعودة مع ميشو إلى «شق الثعبان».



(٣٣)

الانتخابات بعد أيام.. نبيل مطمئن - من استطلاعه للآراء - أن الدكتور شاهر سيكتسح، وأن الدائرة تكاد تكون قد أصبحت فى قبضة يده، وتضاءلت الفرص أمام الجميع ، لكن نبيهة كانت دائما تقول لرجالها:

- لا تتأثروا بالإشاعات، هذه حرب نفسية يجيدها الدكتور لأنه عضو محترف، لاتزال الكرة فى الملعب ومازال هناك وقت ، فابذلوا المزيد من الجهد، إلا إذا لم تكونوا أنتم أنفسكم مقتنعين بنبيهة ريحان..

الجميع يقاطعها فى لهفة وحماس:

- ست الكل يا هانم.. ولا دكتور ولا مستشار ولا فلوس الدنيا تساوى قيمتك أو تكافئ مكانتك.

تشير إليهم كى يكتفوا بهذا القدر من المديح..

- اطرقوا الأبواب.. تحدثوا إلى الناس بلباقة، قولوا لهم، من هى نبيهة .. اطبعوا كميات إضافية من البرنامج ليقرأه من يجيد القراءة.. باقى أيام، وهى أهم الأيام.. كل جهودنا ستذهب سدى ، إذا لم نتحرك فى كل الاتجاهات. إنها آخر فرصة لنا جميعا..

المعركة حامية متنوعة الأسلحة ، ومتعددة القوى ، تعتمد على رجال أشداء أغلبهم بلا ضمائر، على الأقل مؤقتا لحساب المرشح الذى يدفع ، والذى أخذ عليهم القسم أن يخدموه ولايعرفوا شخصا فى الدنيا إلا هو.. جيوشهم لاحصر لها.. ولديهم صلاحيات بلا حدود لإغراء الناس وجذب المؤيدين، لذلك تتوالى من الجميع وعود أسطورية ، وتصريحات ملونة، وأحضان إنسانية، وقبلات مفعمة بالشوق.. آمال عريضة وأمنيات أكبر من حجم المستقبل نفسه، وأشواق الجماهير تتناثر وتجرى فى السماء وتحلق فى الفضاء وتلف حولهم، فتدور رؤوسهم وتعمل الفانتازيا عملها، ويتخيل الناس منظر الحى بعد نجاح المرشحين..



في يوم الانتخابات .. كان الفضاء كله مسرحا عجيبا لأصداء الميكروفونات الراجلة والراكبة والثابتة، تزعق بعلو الحس مطالبة الناس بالتوجه إلى الصناديق وكتابة اسم المرشح فلان، وآخرون يذكرون اسم المرشح فلان ، وغيرهم .. وغيرهم..

تخصص بعض رجال المرشحين في الوقوف على مقار الصناديق والهمس في آذان الناخبين الواقفين صفا طويلا يتثنى كالثعبان ليدخل المبنى الذى بداخله الاختيار . وتخصص آخرون في المرور على الناس في التجمعات والمحلات ومواقف السيارات يدفعونهم لترك ما بأيديهم للإدلاء بأصواتهم أولا..

كان الجو محموما والحماس ملتهبا.. جنود المرشحين يركضون في كل مكان ويتصادمون ويتعاركون من أجل الزبائن وزيادة عدد الأصوات لمرشحيهم، وتجرى الشرطة بينهم فلا تكاد تلحق بؤر النزاع المتجددة هنا وهناك..

★★★

أخيرا وقبل الفجر .. انتهى الفرز وحصرت أصوات كل مرشح، وفاز صقر ، وسقط د. شاهر سقوطا مدويا. فقد جاء قبل الأخير ، وكانت نبيهة هى التالية ثم المستشار فزخارى رجل الأعمال ثم أحد العمال .

أصيب د. شاهر برعدة ثقيلة ودوار مؤقت.. لكنه تماسك وانتزع ابتسامة وقال وهو يكز على أسنانه:

– لا غرابة ولا عجب.. هذه طبيعة الانتخابات.. هناك مجالات كثيرة لخدمة أبناء الوطن..

التف حوله رجاله وهو يمضى متعثر الخطى خارجا من مكتبه، أسرع طارق ابنه ليقود السيارة وجلس شاهر في المقعد الخلفي.. يبدو في حالة هبوط بدنى واضحة، تطلق عيناه نظرات ضبابية إلى اللاشئ.. تدلت نظارته حتى استقرت فوق أرنبة أنفه.. أغلق فمه وأخذ يتنفس تنفسا عاليا، ولم يكن يستمع إلى أى كلمة مما قالها مرافقوه.. ولما وصل إلى البيت لم يتحدث إلى أحد، طلب أن يتركوه نائما حتى يصحو وحده، ولم يوافق على طعام أو شراب ، ورضى أن يخلع البدلة ويرتدى البيجاما..

شعر العالم أجمع بأصوات الفرحة الهادرة التى عبر عنها أهل الحى تحية لصقر .. عشرات الألوف يهللون ويغنون، وبدا الحى كأنه أدلى بجميع الأصوات لصقر فقط .. وأن صقر رجلهم كلهم.. رجلهم الوحيد..

أخذ النهار شكلا آخر وكذلك الشوارع.. وسبحت فى الأفق مائة حمامة بيضاء تدور حول نفسها وحول الحى.. رآها الناس كلهم.. ثم اختفت . باعها صاحبها للجماهير ساعة من الزمن، ثم عادت إليه، وظل الناس هناك ، وفى كل مكان يلوكون الحلويات ويمضغون ألوانا مختلفة من الطعام ويتجرعون كل زجاجات المشروبات الباردة التى أمر بها صقر، وهل ثمة يوم فى التاريخ بطوله يستحق أن ينفق فيه مثل هذا اليوم.. إنه يوم الأيام .. يوم الحصاد .. اليوم الذروة.. وتذكر صقر لوقت طويل كلمات عواد النمس.. صول الشرطة الذى وصف له الوصفة، وأعد له الخطة التى أصابت هدفها بدقة وفلاح..

احتدم الحماس فى قلبه شكرا للرجل وعلا إيقاع التقدير، وما لبث أن بعث شخصا يستدعى له عواد.. ولما وصل ، سحبه إلى غرفة منفصلة من شقة مكتبه.. عانقه ، وقال له:

- شكرا لك .. تقبل هذا المبلغ.

- لا .. لا

- أقسم بالله

- أنا غير محتاج ..

- خذهم ووزعهم..

- لكنه مبلغ كبير..

- خمسة آلاف ليست كثيرة عليك..

عاد يعانقه ويقبله ، ثم همس فى أذنه قائلا..

- غير مسموح بنشر كلمة .. هذه مسألة بين صديقين..

- اطمئن..

لما جلس على كرسى المكتب وأخذ نفسا عميقا.. اصطفوا جميعا أمام عينيه..

كان يود أن يراهم.. إخوانه وأبوه وهنية، وكل من أسقطوه من قوائمهم.. هاهم الآن جميعهم أمامه.. جامدون .. متخشبون.. لاينطقون ، لكن عيونهم فارغة من كل معنى ، ولا حتى الاحساس القديم نحوه بوصفه مجلبة للعار أو باعتباره كائنا لاقيمة له..

في المساء .. ذهب محملا بما خف وزنه وغلا ثمنه إلى رجل الحكومة الأول : كمال الدهبى.. انحنى وشكر وكان مستعدا لتقبيل الأيادى والأقدام، قال الكبير باعتداد:

– أنت تستحق كل خير يا صقر.. ولنا فى الرجال نظرة .. شد حيلك .. البوابة الكبيرة فتحت لك..

فى صباح اليوم التالى رأى الناس د. شاهر وهو يخرج من داره بالبيجاما والشبشب يسألهم عن أخبار الحرب، ويقول فى لهفة وحيرة .

– أنا لم أسمع أصوات الغارات أمس .. ممكن الدول وافقت على وقف إطلاق النار.. هل سمعتم النشرة.. أنا لم أسمعها، لكنى أعرف.. تأتى الأخبار إلى مباشرة.. أسمعها أينما أكون .. من منكم استمع إلى خطبتى وأنا أدعو الناس كى تحارب .. أظنك حضرت و .. وأنت ... وأنت أيضا كنت حاضرا.. القيادة السياسية علمت بخطبى .. وعبد الناصر أيد الفكرة.. لابد أن نحارب .. إذا فرض علينا القتال... لابد أن نقاتل..

وسار على رجليه فى الشوارع يحمد الله أن الغارات توقفت.. والناس لاترفع عيونها عنه ، وتضرب كفا بكف.

– لا حول ولا قوة إلا بالله .. الرجل مخه اتلحس يا ولداه .



(٣٤)

يحيى الآن - ياناس - يجلس تحت القبة ، يلبس كما يلبس الوزراء والكبراء ، ويجلس فى نفس الكراسى، كتفه بأكتافهم، وأمامه ميكروفون يستطيع أن يتحدث فيه إذا شاء، مسموح له أن يمدح من يشاء ويهاجم من يشاء.. ويعبر عن رأيه فى كل الأمور والقوانين والأحوال.. هو الآن وسيظل على الأقل لأربع سنوات قادمة ضمن رجال السلطة... محسوبا منهم.. ولماذا أربع سنوات.. مادام قد ذاق طعم الانتصار وعرف الوصفة وطبقها ونجحت ، وسوف يفهم - لاشك - خلال الأيام المقبلة أسرار اللعبة وسراديبها.. مزاياها وعيوبها.. سيكون باستطاعته فى يسر أن يعود دائما ليجلس فى الصدر.. وكلمته مسموعة فى الدائرة وتحت هذه القبة.. أتيح له أن يرى رئيس الجمهورية مرتين، وسلم عليه يدا بيد فى احداهما، ولمس كم هو طيب ولطيف، ويذكر أن رئيس المجلس قدمه له قائلا:

- الحاج يحيى صقر رجل أعمال وابن مصر القديمة.

ابتسم الرئيس أبتسامة مرحبة وانتقل إلى غيره ، لكن صقرا كاد يضحك وهو يتذكر قول أحد زملائه وهو يعرفه لبعض الزملاء قائلا فلان ابن الدقهلية، وفلان ابن بنى سويف، والحاج صقر ابن القديمة..

كل الذين لم يشاهدهم من قبل إلا فى التليفزيون والصحف ، يشاهدهم ويتحدث إليهم ويعترض على كلامهم ويختلف معهم.. وضع جديد تماما ومبهر ويستحق ما صرف عليه، وقد أسعده جدا أن يرى صورته فى الصحف . يده مرفوعة فى وجه وزير الإسكان، طبعا لم يكن اختلاقا أو مشكلة ، لكنه كان مجرد حديث حماسى، وهو دائما يستخدم يده فى الحوار، ورأى صورته فى مجلات كثيرة مع شخصيات مشهورة .. طلب نسخا من هذه الصور علقت على جدران مكتبه الذى كان يمتلئ كل يوم بأبناء الحى ، يريدون حل مشاكلهم أو التوسط لدى المسئولين لتلبية حاجاتهم ، وتعيين أبنائهم والحصول على تراخيص لأكشاك ومبان وطلبات نقل من جهة إلى أخرى.. وغير ذلك من المطالب التى لا تنتهى..

حرص على بذل أقصى اهتمام بطلبات أهل الحى وفى مقدمتها طلب شبل اللبودى لإعادة هشام ابنه الضابط المنقول إلى الصعيد، وقد أفلح فى هذا.

ازاء كم الطلبات المتلاحق، أصبح يغير مواعيد حضوره إلى المكتب ، وقد لايحضر أياما متواصلة، ولم يعد يدفع مليما لمؤسسة صقر الخيرية، وأصبح المصدر الرئيسى للصرف فيها من التبرعات، فقد أتيحت له الفرصة للتعرف على العشرات من الأغنياء المستعدين للإنفاق على المشروعات الخيرية.

حاول صقر أن يتابع المناقشات ليشارك فيها ولو بالتأييد ، لكنه لاحظ أن القضايا المطروحة صعبة ومعقدة، بعضها لايفتى فيه إلا من يفهمون فى القانون الدولى وبعضها خاص بعلاقة الأردن بفلسطين، وبعضها حول تعامل بعض المصريين مع الشركات متعددة الجنسيات، وأخرى حول موقفنا من دفن النفايات النووية. وهناك من يثير مشكلة ، منح الجنسية لأبناء المصريات المتزوجات من أجانب ، وأغلب الحديث عن الخصخصة والآثار السلبية والايجابية لاتفاقية الجات، وحقوق التأليف ومشكلة خروج آثارنا للعرض بالبلاد الأجنبية ومشكلة المياه العالمية وغيرها..

يضطر يحيى للصبر حتى يظهر موضوع أسهل يستطيع أن يقول فيه كلمة حتى ولو يظهر من المناقشة أنها خطأ ، ويقول بعد أن يطول الصبر:

– كانت «شورة غبرا» .. الكلام واضح.. وهو كلام عربى بلا شك لكنه غير مفهوم ، ولا أقدر على الإمساك بالمشكلة ، فى حين أرى البعض يتحدث عنها كأن أحدا قتل والده. غاضب وثائر ولا يسمح .. ولايقر .. و.. و .. وينهض آخر ليعترض ويوضح لزميله أمورا، فيفهم الزملاء جميعا.. إلا أنا، لم أكن أحسب أن المناقشة ستكون هكذا.. على أية حال.. لنا أهدافنا وسوف نسعى للحصول عليها، ومادام الكلام صعبا، فالأمر لله.. أنا نفسى لم أتأخر ، لكن أظن إن تعلم لغة الماو ماو أسهل ..

استطاع يوسف إبراهيم المحامى الذى يقضى معه ساعتين كل أسبوع أن يساعده فى فك بعض الرموز وتوضيح بعض الأمور التى ترد فى الصحف ،

وأمكن لصقر أن يستوعب بعضها.. بالبلدى.. لكن ظل الحديث فيها حتى بالعامية في المجلس متعذرا، في حين كان عواد النمس هو الأنفع، لأنه هو الذى نبهه إلى التركيز على مناقشة القرارات الجديدة.. لعبتك .. مشروعات القرارات.. كلما أعد المجلس لمناقشة مشكلة، تمهيدا لإصدار قرار.. تفتح العيون على الآخر.. حتى لو اقتضى الأمر تسجيل المناقشة على كاسيت سرى تخفيه في جيبك ونسمعه معا بوجود يوسف المحامي.. هذا هو الشجر المثمر في المجلس..

تمكن يحيى خلال عدة أشهر من شراء مئات الأفدنة في عدد كبير من محافظات مصر فما إن يسمع .. وهو في المجلس .. أن مساحات زراعية على أطراف المدن على وشك أن يصدر بشأنها قرار بضمها إلى كردون المدينة، أى مدينة ، حتى لو كانت مدينة كوم أمبو أو الطور ، حتى يندفع لشراء عشرات الأفدنة الزراعية ولو اقترض ثمنها..

يكلف الخبراء بالسفر إلى المنطقة والمعاينة من كافة النواحي وإفادته بالحالة ، ثم يقدم على الشراء، وأحيانا مجرد تليفون لصديقه المحافظ يكفى كي يحجز له مائة فدان أو مائتين ، ومع قليل من الصبر والأيام تمر بسرعة البرق سيصبح ثمن الفدان مباني على الأقل نصف مليون جنيه بعد ثلاثين ألف وهو زراعي..

على الشواطئ الشرقية والشمالية وضع يده على آلاف الأمتار لإقامة أربع قرى سياحية ، واضطر للاقتراض بدون ضمانات أكثر من ثلثمائة مليون جنيه من أربعة بنوك .. لم تكن المهمة صعبة..يكفى أن يرسل الهدايا وينظم السهرات مع المديرين كل ليلة خميس إلى أن يروا ببقايا الوعى ميلاد نهار الجمعة ، ويعودوا بالكاد إلى بيوتهم وألسنتهم لا تذكرمن الأسماء إلا القليل في مقدمتها يحيى صقر.. الرجل الكريم .. خفيف الظل.. الذى يفهم في الذوق..

في إحدى الولائم الثقيلة المترعة بالسهر والانشراح ، والاستعداد لدى الجميع لعمل أى شئ يؤدى إلى انطلاق الجسد وتحليق الروح ونسيان الدنيا والأهل والأرض أيضا، تعرف يحيى صقر عى جين ديكنسون - سيدة أمريكية جميلة جدا ورشيقة لا تتجاوز الثلاثين.. جاءت إلى القاهرة لتستثمر أموالها وأموال

زوجها هارى ديكنسون الثرى الذى توفى فى حادث انفجار لنشه فى المسيسبى وتعذر التوصل إلى معرفة الفاعل أو الأسباب..

اعترفت ديكنسون لصقر بأن أموالها تزيد قليلا على المائة مليون دولار، وأنها تحب مصر مما قرأته عنها وما حكاه الأصدقاء ، وقبلهم زوجها.. لطالما تمنت أن تزورها، لكن ظروف زوجها لم تسمح بذلك، وها هى تجد نفسها غير قادرة على مقاومة سحر مصر، ولما كانت حرة طليقة إلا من بعض المشروعات الصغيرة المتبقية فى ولاية فلوريدا، قررت أن تأتى لتعيش إلى الأبد فى بلد التاريخ والحضارة.. فى بلد حسن الضيافة.. فى بلد الجو البديع طول السنة، لذلك فهى تتعلم اللغة العربية على يد أستاذ لغة انجليزية بالجامعة الأمريكية .

اصطحبها عدة مرات على مدى شهر لزيارة معالم القاهرة.. شاهدت الأهرامات والمتحف المصرى .. زارت المتحف الإسلامى والقلعة وجامع السلطان حسن.. زارت الأزهر والحسين وشربت شايا فى الفيشاوى وتمشت فى شارع المعز.. وركبت لنشا فى النيل ، وكاد يصيبها الجنون من روعة الجو وجمال المناظر.. أخذها صقر إلى منطقة مصر الجديدة، وزارت متحف الشمع والمتحف الزراعى، كما سافرت إلى الفيوم والإسكندرية مع بعض مساعديه، وكذلك القناطر الخيرية، ثم زارت الأقصر وأسوان ، وقررت بعد اقتناع شديد أن تستقر فى مصر نهائيا، خاصة بعد أن زارت مرة حى مصر القديمة، استطاعت بعدها أن تأتى لزيارة مصر القديمة عدة مرات.. تلف فى شوارع الحى وتتعرف على طبيعته سيرا على الأقدام.

يتعرف عليها نبيل وهى تزور مكتب صقر، بعد أن انتقل إليه ويدعوها لحضور فرح أخته فى نفس الليلة..

كانت هنية قد قبلت الزواج من بركات السكرى والد ناهد.. الذى تحسنت صحته واسترد حيويته وشفيت تماما ساقه، وكسب كثيرا من يحيى صقر منذ بدأ يعمل معه فى المؤسسة الخيرية.. تعهد صقر بأن يتكفل بكل مصروفات الفرح وسلمه قبلها منحة طيبة كى يؤثث شقته بأثاث جديد ، ورضيت هنية أخيرا ، وكانت قد أوشكت على اليأس من صنف الرجال.. وإن لم يكن هو الرضا المثالى، ولكن «ضل رجل ولا ضل حيطة».

(٣٥)

قال ملاك لعلى:

– أنت يا على مشغول عن نفسك.. تجاوزت السادسة والعشرين ولم تتزوج..

ولم يرد على لسانك ما يفيد أنك مهتم بهذا الموضوع ككل الشباب.

داهم على إحساس بالمفاجأة... وبدا عليه التوجس ، لكنه قال:

– من قال إنى لا أريد أن أتزوج؟

انفرجت أسارير ملاك وقال : عال ... إذن فأنت تريد الزواج؟

بسرعة أجاب على: طبعا..

قال ملاك: ولايبقى إلا البحث عن عروسة.

رد على : موجودة..

قال ملاك منشرحا:

– لماذا لم تتقدم إليها؟

تنهد على وصمت لحظات ، ثم قال:

– أخشى أن يرفض أبوها.

– ولماذا يرفض؟

– لعل لديه أسبابه.

– هل هو من الأثرياء أو الوزراء؟

– لا .. أهلها ناس طيبون وفى مستوانا الاجتماعى تقريبا.

– إذن ما المانع؟

عاد يتنهد:

– ربما يكون هناك نقص فى التكافؤ..

– أى نقص ؟ .. مال قلت لا .. منصب قلت لا.. ربما الجنسية..

– مصرية..

– هل أعرف العروسة؟

– عز المعرفة.

– من تكون؟

عاد على يتنهد، ثم لاذ بالصمت ، فقال ملاك:

- ماذا بك يا على ؟ لم أجدك أبدا فى حيرة
- ليست كل الأمور على هوانا
- لم تقل لى .. من تكون ؟
- الآنسة ماجدة .
- بنت من ؟
- بنت ملاك
اصفر وجه ملاك ، ثم سأل :
- ماجدة ابنتى ؟
هز على رأسه مؤكدا أنها هى .
قال ملاك : خذ المسألة يا على بجد ، هذه المسائل لا لهو فيها ولا دعابة.
أسقط على نظراته إلى الأرض ، ثم قال :
- سامحنى يا عمى .. أنا أحب ابنتك ، وقاومت ذلك فلم أستطع .
- على ؟
- لا أمل لى فى الدنيا إلا إذا تزوجت ماجدة
- على !
- أنا ساكت لأجلك فقط ، ولذلك أنا لا أنطق ولولا أنك والد بحق .. فكرت فى وفكرت لى ، وألححت ، ما قلت لك .
- تعلم يا على أن هذا مستحيل .
- أعلم لكنى أحبها ..
- لست وحدى صاحب القرار .. هناك الكنيسة وأبونا والأهل .. فاهم ..
- أفهم يا عمى .
- وهى ..
- أظنها تحبنى
- نسيم ابن خالها خطبها يا ولدى
لم يرد على .... زاد اصفرار وجه ملاك وشرد طويلا ، وعاد يقول :
ابن خالها طلبها يا ولدى .

استئذن على فى الانصراف .. لم يرد على ملاك .. كان فى حالة ذهول قاتلة .. قام ملاك فجأة وأغلق الدكان ولأول مرة يغلقه عصرا .. ذهب إلى بيته .. سألها لم ترد .. أحس بصدق ما قاله على ، طلب إليها ألا تصعد إلى والدة على وأخته لأى سبب ، وقال لها :

– أنا واثق أن ابنتى لن تضع رأسى فى التراب وتسبب لى الإحراج .

هزت رأسها فاستطرد فى شبه ذلة .

– أرجوك يا ابنتى .. الموضوع حساس .. أنا عشت طول عمرى جنب الحيط ، رأسمالى سمعتى ، ولا بد يا ....

قاطعته ماجدة قائلة :

– تأكد يا أبى أنى لن أغضبك أبدا .. أنت كل مالى ، وإن كنت أرجوك أن تعذر مشاعرى .

– مسلم يا ماجدة .. مسلم يا ابنتى ؟

– الدين لله يا بابا

– آه .. كلامه .. ونسيم يا ابنتى ؟

– سامحنى يا بابا .

أدرك أنه مادام على نفذ إلى عقلها فلن يستطيع الحوار معها ، وإذا استطاع فلن يصل إلى نتيجة .. لأن إضافة عقل على مع عواطف فتاة طيبة وحنون وكلها مشاعر مثل ماجدة ، معناه الجنون الأكيد .. العقل وحده لا ضرر منه ، العواطف وحدها لا ضرر منها ، ولكن عقل عبقرى وعواطف ملتهبة .. يصبح جيشان وانطلاق بلا حدود ومأساة .. تذكر أنها رفضت شخصين تقدما لها بحجة رغبتها فى استكمال الدراسة بالجامعة .

تركها ودخل غرفته وأغلقها عليه ، لم يخرج إلا صباح اليوم التالى ، كان يوم أحد . لم يذهب لتوزيع حكمته ولم يحضرها من مطبعة سلامة .. لم يفتح المكتبة وذهب إلى الكنيسة .. فكر أن يتحدث إلى المطران أو القسيس أو حتى صديق من أصدقاء الكنيسة .. لم يستطع .. كان يشعر بأنه غير قادر على أى شئ ولا حتى على الكلام أو المشى .

خرج من الكنيسة وظل يمشى فى الشوارع ، لايدرى لماذا يسير وإلى أين وإلى متى ؟ كان يجر قدميه الثقيلتين ، نصفه الأسفل المفكوك ، حاملا نصفه الأعلى غير المتزن ، لكن الحل الوحيد له هو المشى .. المشى إلى أن يقع وينتهى العالم .. فكر فى عرض يحيى صقر عليه بترك دكانه .. يأخذ عدة آلاف ومكتبة جديدة فى وادى حوف .. لم يجد فى نفسه القدرة على الاستمرار فى مناقشة الموضوع .. عاد إلى البيت .. ألحت عليه ماجدة أن يتناول الطعام وطلبت منه ألا يحمل هما ولا يقلق ، وعليه أن يثق بها .

تنهد ودخل الغرفة وأغلقها عليه وشعر برغبة عميقة فى النوم .. النوم إلى نهاية العمر ، وياليت أحدا لا يناديه عندما تقوم القيامة .. وقد خامره شعور بأن القيامة ستقوم قريبا جدا وقبل أن يموت .

(٣٦)

بعد عدة زيارات للمنطقة وهى الجزء الشمالى من حى مصر القديمة ، اقترحت جين ديكنسون على صديقها يحيى صقر أن يشاركها فى مشروع ضخم لتعمير وتطوير المنطقة ، ونقلها نقلة حضارية لتدخل القرن الواحد والعشرين بما يليق بمصر ، بدلا من هذه البيوت الصغيرة والحوارى والخرائب .

مساحة كبيرة من الأرض تمتد من كورنيش النيل ، بالضبط من خلف قسم شرطة مصر القديمة وسيدى رويش غربا ، إلى نهاية كوم الغراب والشيخ مبارك التى تجاورها المحاجر شرقا ، تنتهى جنوبا إلى مدرسة المعوقين وشمالا مجمع الكنائس .

رأت ديكنسون أن هذه المنطقة جديرة بأن تمحى من الوجود ليحل محلها مدينة جديدة اسمها «مدينة النور» تتضمن فندقين سبع نجوم ودارا للملاهى وكازينو وصالات للقمار والبلياردو وحمامات ساونا ، ومطاعم عالمية ، وقاعة ضخمة للأفراح وقاعة للمؤتمرات ومركز علاج طبيعى ، وشركة سياحية واستديو للتصوير السينمائى والتليفزيونى واستديو للتسجيلات الصوتية ، ووكالة إعلانات وسينما ومسرحا ومكاتب اتصال وبنوك .. تحف بها الأشجار والنافورات والبحيرات الصناعية .

مدينة النور .. مشروع متكامل يغطى مساحة ضخمة ، ويتكلف نحو مليار جنيه ، قدمته جين لصقر خلال لحظات عاطفية غاية فى الرقة والشفافية .. كان ساعتها مستعدا لأن يتقبل أى شئ ، ومع ذلك سمح لنفسه أن يتساءل عن مصير الناس الذين يقيمون بالمنطقة .

- المنطقة يا دارلنج كلها كراكيب ، والناس تشبهوا بها على مر السنين .. العالم لم يعد يسمح بهذا .. العالم المتحضر يحاول أن يستثمر كل سنتمتر واحد فى رفع مستوى المعيشة وتحقيق أكبر عائد .

- المنطقة فيها آثار وأماكن مهمة لأصحابها ..

- عواطف فارغة .. تعطيل للطاقة .

- لكن .

- أنا كنت أظن إنك مع التطور ، ومصر بالذات أكثر بلاد العالم حاجة للتغيير وإعادة صياغة شكلها ، ولا تنس أنك أحد قيادات البلد .. ربنا أتاح لك الفرصة ممثلة فى عدة عناصر .. هى مركزك وموهبتك وإحساسك ببلدك من ناحية .. ولقاؤك بى من ناحية ثانية كى نحول قطعة من الطين إلى لؤلؤة تلفت نظر العالم ..

- يعنى قصدك ..

- تخيل لو هذا المشروع تكرر خمس مرات فى أماكن مختلفة فى مصر كلها .. ماذا تكون مصر بالنسبة للعالم .

قال وهو فى شبه شرود .

- يا سلام .. لابد تكون عظيمة

- ستكون عاصمة العالم أجمع .. تحفة .. موقع وجمال وسحر .. ومن صاحب الفضل .. أنت .. أنت البداية ..

يا يحيى .. اضغط على الزر .. اضغط ..

- ماذا .. أضغط .. أى زر ؟

- زر الانطلاق .. أنت إنسان سيتحدث عنه كل العالم ، لأنك ستبدأ رحلة التغيير والتطوير فى أهم منطقة فى العالم.. اضغط ..

لما احتار.. قالت له : قل موافق ..

بعد أشهر قليلة أعاد فيها صقر دراسة المشروع مع مستشاريه الكبار فى وزارة الاقتصاد والسياحة ومحافظة القاهرة وهيئة الاستثمار، بدأت الخطوات الفعلية للتنفيذ بتوقيع العقد بينهما ، وكان يقضى بأن يتعهد الطرف الأول «صقر» بهدم المنطقة المذكورة بالكامل وتسليمها أرض فراغ لجين (الطرف الثانى).. .

حددت الدراسة تكاليف عملية التفريغ بنحو مائتى مليون جنيه ثمنا للأرض والبيوت والمحلات وغيرها ، وكذلك بناء بدائل لأصحابها فى أماكن أخرى ، وكان مطلوبا من يحيى أن يسدد نقدا ثلاثمائة مليون جنيه ، لتكون الأرباح بعد ذلك

مناصفة بين الطرفين ... كان دوره إذن المساهمة فى عمليات البناء والتجهيز ومن ثم ، يصبح مشاركا فى ملكية المدينة بكل ما تشتمل عليه ، وقد أصر صقر على ألا يدفع مليما بعد إتمام عملية التفريغ إلا بعد أن تقوم جين بالصرف على تنفيذ ٢٥٪ على الأقل من المبانى والتجيهزات ، وهى تعادل أيضا مائتى مليون جنيه .

استعان صقر بجيش من المساعدين ، كى يتولوا إقناع الناس بترك منازلهم ، وكان عليه تعويضهم عما يشغلونه من عقارات ، مع بناء مجموعات من المساكن فى منطقة ١٥ مايو ووادى حوف، لينتقل إليها الذين يتم ترحيلهم من المنطقة القديمة ، وقد طلب أصحاب البيوت عدم ترك مساكنهم إلا بعد استلام الجديدة والرضا عنها.

كانت المهمة فى غاية الصعوبة والتعقيد، لكن صقرا كان يمضى فيها بقوة وإصرار ، وكل من رفض أرجأ الصراع معه والإلحاح عليه حتى النهاية ، وتولى الاستمرار فى الشراء .. بيتا وراء بيت .. وشقة بعد شقة ، ودكانا إثر دكان ، الكثيرون فرحوا بآلاف الجنيهات التى وضعها أمامهم وإلى جوارها التنازلات .

مع النقود .. ضع توقيعك أو بصمة إصبعك ثم عد فلوسك .. وفى نفس الوقت بدأ بناء مساكن جديدة ، وتعهد أن يسلمها لهم فى غضون ثلاثة أشهر .

ومن لم يستجب من نفسه استعان لإغوائه بمن له تأثير عليه ونفوذ، ومن لا يخضع للضغوط ولا يعبأ بأصحاب النفوذ ، لجأ معه إلى أسلوب التهديد بوقف الحال وتشريد أهله وخطف أولاده ، واستخدم عددا من القيادات المحلية الرسمية والشعبية وبعض رجال الشرطة ...

التقى نبيل فى أحد الأيام الحامية بصديقه طارق ابن د. شاهر لطفى ، وكان يعد الماجستير فى الجامعة الأمريكية ، أبلغه أن جين ديكنسون صاحبة المشروع تتعلم اللغة العربية على يد صديق هو د. رأفت ، الذى يدرس اللغة الإنجليزية بالجامعة ، وأنها يهودية تزوجها صقر فى السر ، حتى لا يثير حوله الأقاويل فى المجلس .

نقل نبيل المعلومة إلى على جوده الذى قام بإرسال عدة خطابات ، الأول لرئيس مجلس الشعب والثانى إلى المستشار القانونى للمجلس والثالث لنرجس

زوجة يحيى ، التى كانت تحتفل وحدها بميلاد الطفلة الثانية منذ أيام قليلة ، كما أرسل المعلومات إلى بعض صحف المعارضة .

كان على قد أنهى بحثه عن قصر الأمير نور الدين وتوصل إلى رسومه الأصلية وتكوينه المعمارى ، ووصف دقيق لقاعاته وغرفة وممراته وحماماته ومطابخه، وغرف الخدمة والحراسة وأسماء النباتات والأشجار التى غرست فى حديقته ومداخله ومخارجه والشرفات والمظلات والخزانات والمخازن ووسائل الإضاءة وغيرها من المستلزمات ، كما توصل إلى الأيام التى كان يجيئ فيها الأمير لزيارة زوجته ، وهى الثالثة فى الترتيب والأولى فى الأهمية ، وهى التى هرب إليها بعد أن طعنه أحد منافسيه ، وما إن استقبلته فى أحضانها حتى خر صريعا .

أرسل الدراسة إلى هيئة الآثار . تداولتها أيدى خبرائها شهورا دون جدوى ، فاضطر على - بعد أن بدأت حملة صقر لإزاحة السكان والاستيلاء على المنطقة بما فيها القصر الذى لن يدفع فيه مليما لأحد - إلى بدء سلسلة مقالات بالصحف لتخليصه من الباعة والمتشردين والحمير والمدمنين ، ولينقذه من احتمال استيلاء صقر عليه .

(٣٧)

وصلت برقية لنرجس من سراج يخبرها بعودته ، يوم الاثنين السابع من أغسطس ، طارت الدنيا بها ، ولم تتسع لفرحتها .

– أخيرا سيعود أخي .. ما أحوجني الآن إليه .. لم أشعر بضرورة وجوده وأهميته إلا في السنة الأخيرة ، تغير يحيى وأصبح يلعب بذيله ، ويكذب في أحاديثه ويتنكر لوعوده ، وينشغل عني تماما ، وبالأسبوع أحيانا لا يدخل البيت .. ياه .. حتى وأنا أفكر في أخي يقتحم يحيى فكري .. أين تراه كان ؟ ولماذا كل هذه الغيبة .. الحمد لله .. أخيرا سيعود ، لعل يحيى يعمل له حسابا ولابد سيعمل، سراج رجل قوي ولا يقبل الحال المائل أبدا .

كانت فرحتها بلا حدود ، ولا تكاد تقل عن يوم عرسها .. تشعر أنها مقدمة على حياة جديدة قوية مطمئنة .. تطلع بها فوق الأرض . كانت تشعر دائما أنها زوجة في السر .. تحت الأرض .. لا دور لها ولا كلمة ولا اقتراح ولا نقاش .. مجرد فراش .. بينما حياته هو مملوءة بالأسرار والألغاز والتصرفات المريبة ، والأحداث الكبيرة ذات الأطراف المجهولة .. رفضت أن تجيب على أسئلة سراج القلقة عليها إلا بعد أن يحكي لها عن سر غيابه كل هذه المدة ..

– لما وصلت باريس .. وعلم بوجودي عدد من أصدقائي ، لم يتركوني ، زيارات واتصالات متواصلة .. رحلات .. سهرات .. كل أسبوع في مكان مختلف .. كرم كبير أحاطوني به .. لست في حاجة إلى تذكيرك بأن هذا كان متوقعا ، على الأقل ردا على ما كنت أقدمه لهم عندما يحضرون إلينا لزيارتنا .. المهم أني رأيت كل معالم باريس التي لم أرها في زياراتي القليلة السريعة السابقة .. زرت متحف اللوفر وقصر الحكومة في الشانزليزيه حتى مصنع داسو للطائرات .. دخلت تقريبا كل الكباريهات ، كنت أقيم في أحد الفنادق لفترة ثم انتقلت إلى شقة صغيرة لكنها جميلة في غابة بولون .. دلني عليها شاب مصري يعد للدكتوراه ، تصوري أني لأول مرة أشعر بأهمية أني مصري .. أحببت المصريين .. هناك

شباب كلهم حيوية ، مقبلون على العلم ، لهم مواقف لا تحصى تتسم بالمروءة والكرم .. أما المفاجأة فكانت محبة الفرنسيين لمصر .. لدرجة أني تمنيت أن أقضى عمرى كله هناك حتى امتلئ ببلدى وحبها وحب ناسها الذين رأيت بعضهم هناك ، وداخلنى إحساس أنى لم أكن أعيش هنا .. هناك وجدت مصر جديدة .. حتى عبدالناصر الذى تصورت أن كل العالم «قرفان» منه ، وخاصة فرنسا .. بالعكس قابلت كثيرا من الشخصيات الفرنسية والألمانية والانجليزية والامريكية ، أبدوا إعجابهم الشديد به ، ومنهم من راح يحلل لى مواقفه وأسبابها وأهميتها لبلاده ، بعضهم لم يكن يعرف أنى مصرى ، وكانوا يقولون : العبرة بدور الرجل لأمته ، كما أن النتائج ليست وحدها هى المهمة ، لكن المحاولات المخلصة هى الجديرة بالاعتبار .

عشت سنوات رائعة ، عمل ، علاقات ، نزهات ، فرجة ، سفر ، معلومات .. وكان الذى أسعدنى أكثر .. أسلوب الحياة .. النظام .. الدقة .. الجدية فى كل شئ حتى فى اللعب والعلاقات ، علاقاتى انتشرت ووصلت إلى شخصيات مرموقة .. منهم داليدا .. كنت أسميها داليدا المسكينة .. لما عرفت أنها انتحرت بالحبوب المنومة . فى اليوم التالى ذهبت إلى بيتها ، وجدت آلاف الفرنسيين حول البيت ، يبكون ويستخدمون مكبرات الصوت فى إذاعة أغانيها ، وكأنهم يحاولون بالأغانى إعادتها للحياة ، لكنها كانت يائسة ، وكانت دائما تقول : الحياة لا تطاق ..

بعد وفاتها بحوالى سنة ، فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل ، عندها شعرت بالفخر الحقيقى والسعادة وأنا أرى صوره على أغلفة المجلات والكتب ، ويتكلمون عنه وعن مصر فى النوادى والصالونات والتليفزيون .. بس يا خسارة صورتنا من شهور رجعت أسوأ من الأول بعد غزو العراق للكويت ، والعالم كله لم يعد له سيرة ولا حديث إلا عن العرب الذين يأكل بعضهم بعضا .

قاطعته نرجس ، أنا لا أريدك أن تحدثنى عن فرنسا وجمال عبدالناصر وداليدا ومحفوظ والعراق .. أريد أن أعرف لماذا غبت كل هذه المدة بلا رسائل ... انقطاع كامل ؟

– فى يوم أفقت وجدت نفسى فى مكان غريب .. حراس مسلحون يحيطون بى وأسأل عن المكان وعن أصحابه وعن السبب وعن .. وعن .. لا أحد يجيبنى ، وبعد عدة أيام وجدت نفسى فى فيلا فوق جبل فى كولومبيا .

– كولومبيا !

– كولومبيا دولة فى أمريكا الجنوبية .

– أعرف ، ولكن لماذا ذهبت إلى هناك ؟

– أنا لم أذهب .. أنا نمت فى شقتى فى باريس .. فتحت عينى ، وجدتنى فى مكان مختلف والرشاشات حولى من كل ناحية .. والرجال لا يجيبون ، كأنهم خرس ، وعندما يضيقون بى ، يهددون بالضرب .. كانوا فى البداية يشيرون إلى بالإصبع فوق الشفة .. يعنى الزم الصمت ، وبعد ذلك يسحبون الاصبع نفسه أفقيا تحت الذقن ، يعنى إلا ستذبح ..

فى مرة ثار أحدهم على وضربنى على رأسى بمؤخرة الرشاش .

بعد أسبوعين فهمت أنهم تجار مخدرات على مستوى دولى ويصرون على أنى الرجل الذى عقد معهم صفقة بعشرين مليون دولار ، واستلمت البضاعة واختفيت أنا ورجالى ، إلا واحدا منهم (من رجالى) هو الذى دلهم على مكانى .. كنت أسهر فى ناد للقمار تديره سيدة فرنسية من أصل لبنانى اسمها سيمون ، لما رأتنى أكسب مبالغ كبيرة طلبت أن أشاركها ، لكن رجال العصابة كانوا يراقبوننى ويرصدون كل حركاتى وتنقلاتى إلى أن تمكنوا من خطفى إلى كولومبيا بعد تخديرى .

نفخت نرجس وقالت : ياه .. إنت بطيئ .. يا جدع خلص .

– سجنونى فى أحد أوكارهم فوق جبل على بعد ثلاثمائة كيومتر غرب العاصمة بوجوتا .. الجبل يطل على المحيط الأطلنطى .. المياه أمامنا بلا نهاية ، ويصعب تماما الهرب منهم حتى لو تخلصت من القيود التى كانت تقبض على قدمى اليسرى فقط .

جاء عليهم الدور ليسألونى عن البضاعة ، والأموال والرجال والخيانة والنذالة وتنوعت إهاناتهم ووسائل تعذيبهم ، وبعد عدة أسابيع لاحظت أن حوارهم معى قل وخفت الإهانات والبصق المقزز ، وقال أحدهم لى : ظهر أنك لست الشخص المطلوب ، ومع ذلك لم يطلقوا سراحى ، إلى أن هجمت قوات الشرطة بالطائرات

من الجو ، وبالمدافع من البر والبحر .. فر الجميع وأصبت فى الهجوم ووصلت حالتى النفسية إلى أدنى مستوى .

تمنيت فى كل لحظة أن أعود إلى مصر ، إلى بلدى التى اكتشفت أنى أحبها ، وأنها مهما حدث بها أفضل من بلاد كثيرة .

قضيت شهورا تحت العلاج بمستشفى كبير بالعاصمة ، وقد أبلغت السفارة المصرية ، وطلبت منهم عدم إبلاغ بشئ وكانوا متحمسين لذلك .. طلبت منهم فقط متابعة حالتى وإعادتى إلى شقتى بباريس بعد إتمام الشفاء .. كانت عدة طلقات قد نفذت فى ظهرى وبطن ساقى ..

احتجت السفارة المصرية لدى الحكومة الكولومبية التى قدمت اعتذارا رسميا يتضمن أسفها لقيام هذه العصابة العتيدة فى الإجرام وتجارة المخدرات باختطاف المواطن المصرى سراج البارودى وتعرضه للإصابة ، وإصرارها على عدم السماح بمغادرتى أراضيها إلا بعد كامل شفائى ، واستعداد الحكومة لتحمل كافة النفقات بل وتعويضى ماديا ، رغم أنها ليست المتسببة فيما أصابنى وعزمها على مطاردة الآثمين أينما كانوا ..

تنهدت نرجس وقالت بحنان : الحمد لله يا أخى إنك عدت بالسلامة .

- بعد تماثلى للشفاء عدت إلى باريس ، وجدت شقتى كما هى ، ذهبت إلى نادى القمار لأعاود اللعب والحصول على مال للشقة التى تأخرت على إيجارها وحاجتى الماسة للنقود .. فوجئت بسيمون تعاملنى بغلظة ، وتطردنى وتهددنى بإبلاغ البوليس إذا عدت مرة أخرى ، حاولت التوضيح .. لم تسمع .. علمت بعد ذلك أن أشخاصا حاقدين حذورها منى بوصفى أحد تجار المخدرات والسلاح ، بدليل اختفائى والقبض على ، قالت لهم إنها تخشى العصابات لأن رجالها لهم علاقات برء وس المافيا .

وقعت فى حيرة وأصابنى الارتباك الشديد .. اختفت كل أموالى ، حتى التحف والأشياء الثمينة وبعض المجوهرات التى كانت بالشقة تم الاستيلاء عليها .. فى أحد اللقاءات مع بعض المصريين الذين علموا بحالى وحاولوا التخفيف عنى ، التقيت بفتاة سويسرية جميلة وطيبة .. أحبتنى وحرصت على رؤيتى كثيرا .

قاطعته نرجس : لماذا لم ترجع على الفور مادمت لا تجد عملا وضاع منك كل ما تملك ؟

- لم أكن متحمسا للعودة وأنا على هذه الحال من الإفلاس .. كرامتى لم تسمح بذلك .. يقولون .. غاب .. غاب وعاد «يد وراو يد قدام» .. ليس فيها حتى الهدايا .

كنت غير راض عن نفسى .. عزمت على أن أعمل عملا محددا ، يدر دخلا كبيرا ، قررت افتتاح محل لبيع التحف المصرية بمساعدة بعض المصريين ، وهم أنفسهم الذين اقترحوا فكرته ، وفتحت المحل وملأته بالآثار والتحف وبعض المنتجات المصرية مثل السجاد والنحاسيات والبردى والجلاليب المنقوشة .. وكانت السويسرية تأتينى فى المحل ، وقد توطدت العلاقة وتعمقت وازداد التفاهم ، وأصبحنا نشعر برغبة عارمة فى الرفقة الطويلة الدائمة ، ولا نود أبدا أن نفترق .

تعرفت بأخيها وهو صاحب شركة لصناعة أجهزة غسيل الكلى ، أما هى فكانت هوايتها الوحيدة وتجارتها شراء الكريستال الأصلى والأحجار الكريمة ، وهى رخيصة نسبيا فى دول شرق أوربا وأفريقيا وتباع غالبيتها للأثرياء فى غرب أوروبا ..

تزوجنا ، ومرت بعض الأشهر ، وقال أخوها فريدريك إنه سمع بأن حالات الفشل الكلوى فى مصر من أعلى معدلاتها فى العالم ، وهو يريد أن يفتح مصنعا فى مصر ، يسوق إنتاجه فى مصر ودول العالم الثالث المحيطة ، وأيدت اليزابث الفكرة ، وهكذا أصبح ملائما جدا .. الآن فقط أن أعود .. بعد تحسن الأحوال وتجمع الرغبات واتفاقها على هدف واحد .. أعود وأنا لست الذى سافر قبل عدة سنوات .. سنوات غيرتنى تماما ، وإن كنت سوف اشتاق قريبا للعودة إلى باريس..

رضى سراج عندما علم أن أخته نرجس لم تتزوج رجلا نكرة ، وإنما رجل أعمال وعضو بمجلس الشعب وذو نفوذ وعلاقات ، وكل ذلك يمكن أن يفيده .

سأل نرجس عن الأراضى والعقارات ، قالت له إن كل شئ كما هو ، ولم يمس أحد من إخوته شيئا .. سافر إلى البلد وبحث موضوع بيع كل الأراضى الزراعية .. فوجئ بأن المعروض عليه مبالغ ضعيفة جدا ، والذين يركبون الأراضى يرفضون أن يبيعها لغيرهم ، دارت مناقشات حامية ، لم تسفر عن تقدم كبير ، لكنه بدا متعجلا ، ولم تساعده أعصابه وظروفه على الصبر والمغادرة .. أخيرا رضى ببيع الأرض لزارعيها بثلثى ثـنها فى السوق ، وقال له البعض إنه حقق ما لم يحققه غيره ، فالعادة أنها تباعَ بنصف ثمنها .

بعد أسبوعين حضرت زوجته وأصرت على أن تنزل فى فندق .. وأقام سراج حفلا ساهرا ورائعا ، جمع فيه كل أفراد الأسرة والأصدقاء ليعرفهم بإليزابيث ويعرفها بهم ويجمع الشمل من جديد بعودته ، وأعلن عزمه على إقامة مشروعات مشتركة مع زوجته وأخيها ، وتكون البداية بناء مصنع لأجهزة غسيل الكلى .. دهش البعض فى البداية ، لكنهم بعد استعراض الأرقام الخاصة بحالات الفشل الكلوى ، أقروا الفكرة ، بل وأعجبوا بها وحيوا فردريك ووعدوا بالمساندة الجادة والمخلصة ، وتحدث البعض عن الفرق بين هذا المشروع وعشرات المشروعات التى أنفق عليها أصحابها المليارات من أجل إنتاج البسكويت والشيكولاتة واللبان والعطور وأدوات الماكياج وتعبئة الشاى .

(٣٨)

ذهب ملاك إلى أم على يرجوها باسم المودة والعشرة الغالية والجيرة ، وباسم كل ما هو مقدس أن تتحدث إلى على ليصرف نظر عن التفكير فى ابنته ، ويبعد عنها ولو يتحمل العذاب من أجل رجل أحبه ، وتمنى من كل قلبه أن يكون أسعد إنسان .

وذهب إلى الشيخ إبراهيم يعرض عليه المشكلة ، ويدعوه لمساعدته فى توجيه على وجهة أخرى غير وجهة ابنته .. عليه أن يتصرف فى بوصلة قلبه وأن يفعل أى شئ لكى ينساها ويحمى الأسرة من الدمار، فالمسألة أكبر من على ومن ملاك ، كما أنه ليس لديه غيرها ، إذا ذهبت لا داعى له أن يعيش .

حدثه عن التكافؤ الذى يمثل أهم عنصر من عناصر الزواج الناجح فى كل مجتمع .. واختلاف الدين يمثل نوعا من الاختلاف الكبير فى هذه العلاقة المقدسة.

كان يس الفار يجلس بالقرب منهما .. لكنه لم يكن معهما .. كان شاردا تماما لا تتحرك فيه غير أصابعه التى تحرر حبات المسبحة وتسقطها واحدة فوق الأخرى لم يعرفه ملاك لطول لحيته وبياضها .. قال : هل تتصور يا سيدنا الشيخ إن الكنيسة نفسها أحيانا ترفض زواج المسيحى بالمسيحية ؟

قال الشيخ : أعلم أن هناك نوعا من الاختلاف بين الطوائف ، يعنى الأرثوذكسى غير الكاثوليكى .. لكن هل يؤثر هذا فى الزواج ؟

قال ملاك : نعم ، وقد حدث أن نشأت علاقة بين مدرس ومدرسة ، وتزاورا وتحابا ، ولم تكن المدرسة تعرف أن المدرس كاثوليكى فشعرت بأنها أقدمت دون أن تقصد على خطيئة ، ولابد أن تذهب إلى الكنيسة وتلتقى بالأب لتعترف له بأنها كانت تتحدث مع شخص غير أرثوذكسى ، فقال لها إنها ليست خطيئة ، لكن لا داعى للزواج من شخص غير أرثوذكسى وعدم دخول كنيسة غير أرثوذكسية ، وحضرتك تعرف أن الزواج لابد له من أن يكون الزوجان من عقيدة واحدة حتى يتحقق الانسجام بينهما ، وتتحقق السلامة النفسية والدينية لأبنائهما .

وعده الشيخ بالتحدث إلى على .. وتحدث بالفعل إليه فوافقه على ، إنهاء للحديث الذى طال ، ومنعا لانتشار القضية واتساع الحوار حولها .. وتعهد له أن يبحث عن وسيلة للتخلى عنها ، لكن ذلك سيتم تدريجيا ومن ثم يحتاج لبعض الوقت ، وتمنى عليه ألا يذيع هذه الأنباء لمخلوق .

ذهب ملاك إلى كنيسة العذراء ، وقف أمام الهيكل ، تعلو رأسه صورة مريم البتول تحمل ولدها المضئ بالسماحة ، والحنان :

– سيدى المسيح ، أنا أتبع تعاليم كنيستك المقدسة فى كل ما أفعل ، وفى كل ما أقول ، وفى كل ما أفكر .. هذا مسعاى اليومى ، بل وكل من ينكرك أقطع به صلتى .. أطلب المساعدة .. ابنتى تحتاج إليك .. ذهب الجميع وبقيت ماجدة .. فقف معها واهدها .. أنت صعدت إلى ملكوت الرب . لكنك معنا .. نحن جميعا بحاجة إليك .. امسح جبينها بيدك الطاهرة تهتدى .

عاد ملاك من الكنيسة مهموما وقد انخفض إلى الأرض وتهدل ثوبه من كتفيه، ولما نكس رأسه إلى الأرض وسار ببطء ، بدا قصيرا ولا يكاد يبين ، وأمام عينيه لوحة مكتوب عليها قول المسيح : ما جمعه الله لا يمكن لإنسان أن يفرقه .. كانت اللوحة تمشى أمامه إلى أن نفذ فى وعيه ما سمع من الهرج .. رفع رأسه .. رأى عائلة يس الفار تجرى جميعها بنسائها ورجالها ، ماعدا يس نفسه وفى وجوههم غضب وحزن ، وفى عيونهم دمع غزير يتناثر مع صراخهم .. ولما سأل .. صدمه الخبر .

جيران جمعة فى شقته الجديدة أبلغوا الشرطة أنهم يشمون رائحة نتنة تأتى من ناحيته .. جاءت الشرطة وكسرت الباب ، وجدت جثة جمعة متعفنة ، قرر الطب الشرعى أن ذلك حدث منذ ثلاثة أيام ، وكانت هناك بقعة دم كبيرة والشقة مبعثرة الأثاث .

تمت الإجراءات فى جو من الأسف والدهشة .. الحى كله شارك فى الجنازة وامتلأ السرادق عن آخره عدة مرات ، وفى اليوم التالى باشرت النيابة التحقيق .. واشتعلت عناوين الصحف تتناول مصرع الفنان الفذ .

تأثر علي لما رأى منظر ملاك .. ذهب إليه وتحدث معه بعض الوقت وسأله عن أحواله .. كان ملاك متحفظا ، لا يكاد ينطق .. قال علي والدموع في عينيه ..

– لأجلك وحدك يا أبي سأخنق قلبي وابتعد عن ماجدة .

ارتعد ملاك ورفع رأسه لأول مرة وسأله :

– أحقا .. يا علي .. يا ولدي ..

– حقا يا أبي ، ولكن اعلم أني أحب ماجدة حبا لا حدود له ، يملك عليّ كل أعصابي وحاضري ومستقبلي وحياتي ، ولا أحسب أن شابا أحب فتاة كما أحب ابنتك الغالية الطاهرة .

– أعرف يا ولدي ، وأشكرك على أنك عملت لي حسابا ، وحافظت على وأنا مستعد أن أتنازل لك عن كل ما أملك .

– ما هذا الكلام ؟ .. لا تقل هذا ، هل أنا أبيع لك قلبي ، أتنازل لك عن حبي مقابل شئ .. أبدا أنا لا أبيع ولا أتنازل ولن يحدث ذلك أبدا ، سيبقى كل شئ كما هو ، ولكني سأكتمه ، من أجلك وحدك وأنت عندي غال جدا جدا ، فأنت أبي بحق ولا يتعين أن يُغضب الولد أباه أو يتسبب له في ذرة حزن ..

انفطر ملاك من البكاء وتبعه علي جوده ، وقام ملاك فعانقه ومسح له دموعه وقبّله عدة مرات .

ثم قال له : تمم جميلك .

قال علي : ليس جميلا قلت لك .. هذا حقك ، ولكن اعلم أنه أصعب المواقف التي مررت بها وأحرجها ، وأثقلها على نفسي ، واعلم أيضا أني سأضحي بحياتي وبكل ما أملك من أجل أن يبقى حبي ، على الأقل في قلبي ..

عاد ملاك يقول : تبقى خدمة

– ماهي ؟

– أن تقنع ماجدة أن تنساك .. وتنسى حبك وتنتبه لدراستها وحياتها .

– أنا في الحقيقة أفكر في السفر خارج مصر ، وربما هذا يكفي .

– لا .. لن يكفي .. ابق كما تشاء .. لكن المهم أن تجعلها تنساك .

- كيف

- هذه مهمتك .. هذه هى الخدمة الحقيقية ، لأنها للحق .. تحبك

- سأحاول .

- حاول جدا ولا تتوقف عن المحاولة .. أنت يا ولدى تعلم أنها هى وحدها الباقية لى ، وقد ذهب أخوها .. هل تعلم أنه أرسل برقية منذ عدة أيام يخبرنى فيها أنه سيبقى لعدة سنوات هناك .. إذن فهو يخطط للبقاء الدائم هناك .. هل فهمت يا على ؟

هذا هو الحال يا ولدى ..

- تذكر أنك تتصرف معى وكأنى غريب عنك .. ألست ولدك .. ألا تعتبرنى مثل مجيد ؟!

- يا على .. سعادتنا كلها بيدك .. طوع قرارك .

- كما كانت سعادتى بيدك .

- أبدا يا ولدى لا تصدق .. أنا لا دخل لى .. هناك سلطة دينية وهناك الأهل فى الصعيد ، وهناك أخوها ومستويات عديدة من آباء الكنيسة ، وبعضهم يعرفنى شخصيا ولن أغيب عن عيونهم ، ولست غريبا عنهم ، ولا تنس أن نسيم ابن خالها يريدها ، وطلبها عدة مرات وأخذ يبعث إلى من لا أستطيع ردهم .

- امض يا ولدى .. ستر الله عرضك وأهلك وحفظك لشبابك .

(٣٩)

كان في استقباله في المطار وزير التربية والتعليم ويحيى صقر ابن خالته وعدد من العلماء وأساتذة الجامعة والصحفيين ، وكذلك كان هناك مصورون من القنوات التليفزيونية المصرية والعربية ومراسلو الإذاعات ووكالات الأنباء وجماهير تزيد على الألف مواطن ، ينتمون لفئات مختلفة ، جاءوا جميعا لرؤية المفكر التربوى الكبير د.رمزى الدمنهورى ، الذى بدا سعيدا ومندهشا ، وصرح بأنه كان يحسب أن أهله فقط هم الذين سوف يجدهم بانتظاره ، وما يراه الآن ويلمسه يدل على نظرة الحكومة للعلم وتقديرها له ، وحب الشعب لأبنائه الذين يواصلون الطريق ولا يخضعون للإغراءات العاجلة ، أو قصيرة الأجل أو ذات الطابع المادى الاستهلاكى.

وصرح أيضا أن كل المؤشرات توحى بتزايد الوعى وانتقال نظرة المواطن البسيط إلى مستوى أعلى ، ولو استمر هذا الدفع والتصاعد ، فمعنى هذا أن القاعدة الشعبية العامة ، يمكن أن تضع أقدامها على أعتاب عالم متقدم ، إذ المعيار دائما ليس الفرادى المتقدمين أو النابغين ، ولكن الميعار يأخذ فى الاعتبار القاعدة أو الجموع ولا يعتبر وجود خمسين مفكرا أو عالما فى دولة من خمسين مليون فرد تقدما .. مادام الجميع يتصرفون فى الأغلب بشكل عشوائى .

ومع ابتسامة جميلة لمعت معها عيناه قال : وأنا بالطبع سعيد جدا بلقاء أهلى .. وهم كل من تراهم عيونى الآن .

إحساس غريب يسرى الآن فى بدنى ، كنت قد نسيته منذ خمسة عشر عاما منذ أن وطأت قدمى الأرض التى يفصل بيننا وبينها المحيط وأشياء أخرى .

تعددت الأسئلة .. أجاب عن بعضها بإيجاز وبعضها بدبلوماسية وأرجأ بعضها الآخر لمجال أوسع لحاجتها إلى تفصيل ، والحديث عنها يحتاج إلى الحديث عما قبلها .. فمجال الدراسات التربوية والتعليمية ينهض فى الأساس على فكرة البناء من عدة طوابق وليست الفيلات المنفصلة أو المنعزلة .

أصر وزير االتعليم على أن يوصله بنفسه إلى الفندق ليرتاح ساعة ، وبعدها يلتقيان وضيوفه على الغداء ، ويتوالى البرنامج حسب النشرة المطبوعة .

يسعد بوجود ابن خالته يحيى بك صقر عضو مجلس الشعب ويشكره على حضوره بينما الكاميرات لا تكف عن التصوير. على جنب يسأل د. رمزى أخاه فتحى عن أمه ، فيضطرب ويقول له إنها خرجت ولم تعد ويسأل أخواته البنات ، يقولن جميعا : إنها خرجت ولم تعد .. يقرر رمزى أن يذهب إلى الحى للبحث عنها .. يقول له البعض : إنها كانت هنا فى الخرابة تعيش منذ شهور .. ومند أسبوعين فقط اختفت .. مرة أخرى يأخذ رمزى أخاه فتحى على جنب ويسأله :

– صارحنى يا فتحى .. إنت أو أى واحدة من أخواتك عملت فيها حاجة .. «زعلتوها» .

يدهش فتحى من كلام أخيه .. ويقول ..

– والله يا رمزى يا خويا .. والمصحف الشريف ..

يسرع رمزى ويوقفه .

– لا تحلف .. أنت صادق .. أو المفروض ، لأنها أمك ..

– حتى لو مجرد سيدة غريبة أرعاها فى بيتى .. سأهتم بها وألبى طلباتها ، فما بالك وهى أمى .. قال الله فى كتابه العزيز : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر» ، يقاطعه رمزى ، لكنه يكمل بحماس:

– «أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل ربى ارحمهما كما ربيانى صغيرا» .. لا يا دكتور .. لا ..

يسرع الدكتور رمزى قائلا :

– خلاص .. مصدقك يا فتحى .

– لا يا دكتور لا .. لا يحق لك أن تتهم .

– خلاص يا فتحى .. خلاص ..

كان فتحى الدمنهورى قد علم بقرب قدوم أخيه فذهب إلى الخرابة التى بلغه أن أمه فيها ، ليصطحبها وتعيش معه أياما حتى يرجع أخوه إلى أمريكا وتعود هى إلى الخرابة ، لكنه لم يجدها ، فأخذ يبحث عنها دون جدوى .

استولت حالة غريبة على د. رمزى ، وبدا عليه التوتر بسبب عدم رؤيته لأمه ، وعلم يحيى فبعث رجاله للبحث عنها فى صباح اليوم التالى .. ذهب إلى الحى وسأل كل الناس عنها ، وتبرع بعضهم بالحديث عن معاملة إخوته لأمهم وإهمالهم لها ، بل طردها وتشريدها .

التقط أحد الصحفيين الخبر ، فسجله تحت عنوان « مستشار بوش يبحث عن أمه فى الخرابة» .. لولا أن لحق به نائب رئيس التحرير قبل طبع الجريدة .

علم الوزير بالموضوع ، ولاحظ ارتباك المواعيد وإلغاء الندوات وتأجيلها ، استعان برئيس الوزراء لكبح جماح الصحافة ، وكاد الأمر أن يخرج من أيديهم بسبب الأقلام التى تحاول أن تكون حرة جدا ، فاكتفت بأن تسأل فقط أين اختفى المفكر التربوى الكبير بعد وصوله إلى القاهرة .. وكان من السهل على الجميع توقع المشاكل التى يمكن أن تتفجر ، ليس آخرها أو أقصاها سؤال السفير الأمريكى عن المواطن الأمريكى حامل الجنسية المزدوجة ..

كان رمزى يشعر بطعنة بالغة ، تمزق قلبه لأن أمه حية ، بينما أولادها لا يعرفون أين هى .. لو ماتت .. لا بأس .. كلنا سنموت ، لكنها لا تزال تتنفس ، وكانت حتى أسبوعين موجودة ، وأين كانت موجودة .. لقد رأى المكان البشع الذى كانت تقيم فيه ، بينما ابنها على أمتار منها سعيداً وهانئاً بزوجته وأولاده فى شقة أمه .. مستحيل ، وفجأة .. أفاق من غيبوبة الأمومة على طرقات العلم والوطن .. ورأى أن يمضى فى عقد الندوات وتلبية الدعوات ، ثم يتفرغ بعد انتهاء البرنامج للبحث عن الوالدة ، ويحاول الاتصال بمكتبه فى واشنطون لتأجيل العودة أسبوعاً واحداً .

تعددت الندوات وتوالى التكريم والمناقشات ، وعاش قطاع كبير من البلاد حالة من الزهو بما أنجز الابن النابه ، وطغت العاطفة الجياشة لشعب محروم من

الانتصار والتفوق إلا قليلا .. وكان هناك جانب كبير من الأضواء حظى به يحيى صقر ومسحة من التقدير من جانب رئيس المجلس والأعضاء .

ما إن أعلن المذيع فى إحدى الندوات ترحيبه بالضيف الكبير د . رمزى الدمنهورى ، حتى صرخت أمه الجالسة أمام التليفزيون ، وسقطت الكوب من يدها ..

- ابنى .. ابنى ..

ارتعدت وسالت من عينيها دموع مفاجئة ، وعادت تصرخ :

- ابنى يا سناء .. ابنى يابنتى ..

اضطربت سناء وهبت تلحق الكوب الذى انكسر والماء الذى أغرق المائدة وتسألها :

- د . رمزى ؟

- نعم .. هو.. حبيبى يابنى .. كيف أذهب إليه .. كيف أراه .. كنت أنتظر هذا اليوم ..

- اهدئى يا أمى .. اهدئى .. سوف نعرف كيف نراه ، ونعرف أين يسكن .. علينا أولا أن نهدأ لنستمع ..

- ابنى .. ياترى أنت هنا ولا هناك ...

- فى أمريكا .. قلت مرة إنه فى أمريكا ..

- نعم ..

- لكن من يتحدثون معه يتكلمون بالعربى وهو يتحدث بالعربى .. وإن كنت لا أفهم كلامه ..

- محتارة يا ابنتى .. من يدلنا ؟

مضت سناء تفكر ، ثم قامت إلى التليفون وتحدثت إلى ناجى ابن عمها ، وهو صول فى المباحث ، لم يفدها بشىء .. اتصلت بزوج بنت خالتها .. الأستاذ حسين مدرس الابتدائى ، قالت له : افتح التليفزيون ..

فتحه .. سألته عن الضيف الذى يتكلم فى القناة الأولى ..

قال لها : إنه المفكر المصرى المشهور ، د . رمزى الدمنهورى ..

قالت له سناء على الفور : براوه عليك .. هل تستطيع أن تعرف إذا كان هذا اللقاء فى مصر أم فى الخارج ؟

قال بثقة : اللقاء فى مصر .. تقريبا فى قاعة محاضرات بفندق .. بفندق ..

قاطعته : خدمة العمر تقدمها لى .. لو عرفت مكانه وكيفية الاتصال به .. شاهد البرنامج ثم اتصل ..

أغلقت السماعة وطمأنت أم رمزى بأن الرد سيأتى بعد قليل .. وجلسا يتابعان البرنامج .. والدموع تفيض .. كل الدموع التى تجمعت ، ربما طوال عمرها تسيل الآن ..

اتصل حسين وأنبأها بمكانه ، طلبت إليه أن يتفضل بزيارتها الآن ، كان يسكن الشارع المجاور .. حضر إليها وتعرف على أم رمزى .. وعرف القصة .. قرر أن يأخذها إليه ، ولا يتركها حتى تلقاه ..

سناء سيدة بسيطة تعلمت الخياطة على يد أم رمزى قبل عشر سنوات وخطبها عبد الباقى النقاش وسافرا معاً إلى الإمارات .. عمل هناك وعملت .. عادا بالأموال .. اشتريا شقة جديدة فى دار السلام .. فكرت سناء فى أن تزور صاحبة الفضل عليها .. من علمتها .. وجدتها بعد السؤال فى «الخرابة» .. أصرت على أن تأخذها معها .. أقسم عبد الباقى ألا تبرح داره .. وأى شىء تطلبه يوفره لها فى ثوانٍ ..

عندما التقت أم رمزى بولدها سقطت من طولها .. وأحضروا العطور .. أفاقت ثم عانقته وسقطت من طولها .. وأفاقت وبقيت مع ولدها فى الفندق أربعة أيام، رجعت بعدها سنوات فى اتجاه الشباب .. شكر د . رمزى عبد الباقى وأخبره أنه سيستأجر شقة لأمه لتعيش فيها ، ومن يود رؤيتها .. يزورها فى بيتها .. وسوف يكون إلى جانبها تليفون ليتحدث إليها كل أسبوع .. رفض عبد الباقى ورفضت سناء .. ورفض أولادهما الثلاثة الصغار ، ترك «نينة إنصاف» وقالوا جميعا : البيت بيتها وكلنا خدامها ..

أقسم عبد الباقى ألا تغادر «نينة أنصاف» وطلب طلباً بسيطاً من د . رمزى هو أن يحجز لها كى تحج إلى بيت الله الحرام ، فهذا حقها على ولدها ، والباقى على عبد الباقى ..

اختلطت الألوان العديدة من الدهشة فى رأس رمزى .. الدهشة لموقف إخوته .. أبنائها .. والدهشة لموقف شخص غريب ، أمه نفسها لم تكن تعرفه قبل شهر على الأكثر .. وسناء المتشبثة بالتراب الذى تسير عليه أقدام أمه لمجرد أنها علمتها الخياطة ثلاثة أشهر منذ سنوات .. وكانت هناك دهشات أخرى لما عرفه من أحوال الناس، والبلاد .. وما لبث أن نسى كل ذلك .. وأعاد ترتيب عقله وتنظيمه ليلائم بلادا أخرى ، وإليها انطلقت الطائرة التى لوحت لها طويلا قلوب ودموع ..

(٤٠)

مضى سراج يجهز أرض الطريق الصحراوى التى تبعد عن الهرم فى اتجاه الإسكندرية بنحو ثلاثين كيلو لاستغلالها كمصنع مع شريكه فريدريك شقيق زوجته اليزابث .. ومع أول ضربات البلدوزر فى الأرض ، طلعت من باطنها لوحات معدنية عليها أرقام سيارات ملاكى الجيزة .. تملكت سراج الدهشة .. ما كل هذه اللوحات .. حوالى ثلاثين ، ولماذا يدفنها مرور الجيزة فى أرضنا ..

عاد إلى نرجس وسألها عما إذا كانت تعرف أى شىء يخص الأرض ، أو أن ثمة اتفاقاً بشأنها أو فكرة مشروع معين ، أو تم تأجيرها لجهة رسمية أو غير رسمية ..

قالت نرجس ان يحيى كان قد استخدمها عدة أشهر كمخزن لقطع الغيار ، وسألته عن أى تغيير فى شكلها أو فى سورها .. فأجاب بالنفى ، فقد كان كل شىء على ما هو عليه بالضبط كما تركه سراج قبل سفره حتى الكوخ والطلمبة وشجر الكافور .. لا تغيير يذكر إلا زيادة كمية الحشيش والهيش والغاب فى الأطراف بجوار جدران السور ، وكمية من الثعابين والسحالى والفئران ..

أبلغ الشرطة ، تم التحقيق .. أجرى البحث فى ملفات إدارة مرور الجيزة .. تبين أن اللوحات كلها لسيارات مرسيدس .. سرقت وأبلغ عنها أصحابها ولم يعثروا لها على أثر ..

كان يحيى صقر قد نسى موضوع لوحات السيارات تماما ، لكنه أغرق سراج وزوجته وأخاها بكرمه واهتمامه ، ولم يشك سراج فيه ، لكن علامة استفهام كبيرة كانت تحيط به استمرت تحريات الشرطة دون نتيجة ، وانتشر الخبر بين الناس .. سيارات المرسيدس التى اختفت منذ ثلاث سنوات وانتقل هشام اللبودى ضابط المباحث إلى الصعيد ، لأنه انهال بالضرب على السياس الثلاثة حتى مات منهم واحد وبقى الاثنان على قيد الحياة ، لكن بعاهات .. وُجدت لوحات هذه السيارات فى أرض البارودى ، فمن الذى سرقها وفككها وأخفى فى تلك الأرض لوحاتها ..

كان يحيى قد أغلق مخزن قطع الغيار المستعملة ، لكنه ظل فى حيازته ، ولما وصلت إخبارية للشرطة من فاعل خير مجهول ، تفيد بأن صقر عضر مجلس الشعب كان يتاجر فى قطع غيار المرسيدس المستعملة سنة كذا ، وهى نفس السنة التى اختفت فيها هذه السيارات . قامت قوة من الشرطة بالهجوم على مخزن قطع الغيار بعد استئذان النيابة ، وعثرت على قطع عليها أرقام شاسيهات السيارات المسجلة لدى إدارة المرور ..

طلب النائب العام من مجلس الشعب رفع الحصانة عن العضو ، قاومت اللجنة القانونية فى المجلس هذا الطلب ، لكن الصحافة وصلها الخبر، فخرجت الأقلام تسأل عن سر القوة التى يتمتع بها العضو ، وتؤكد عدم وجود أى شخص فوق القانون مهما علا مركزه .. وأخيرا رفعت الحصانة وتم توجيه الاتهام إلى يحيى صقر لقيامه بسرقة تسعة وعشرين سيارة مرسيدس حديثة الصنع وتفكيكها وبيعها قطعة قطعة ..

كلف يحيى أكبر المحامين للدفاع عنه ، واستعد لدفع مليون جنيه من أجل البراءة، وأكد له محاموه العتاة ، أنها مضمونة إذا اتبع الخطة التى وضعوها له وتحتاج إلى مليون آخر لن يدخل جيوبهم هم ، فسيأخذ طريقه إلى جيوب أخرى ذات حيثية فى عدة سلطات ..

فعل بالضبط كما طلبوا ، واستمر فى تحركاته وابتساماته وسهراته ، كما كان ، حتى يوحى بمصداقيته وسلامة موقفه ، وأرسل - كجزء من الخطة - رسائل إلى أكبر المسئولين يحدثهم عن مشروعاته وسعادته ببلد الأمن والأمان وسيادة القانون ومناخ العدالة الذى يرفرف على الجميع وعهد الرئيس مبارك الذى ليس كمثله عهد، وكان قد حل موسم الحج ، فانطلق يؤدى المناسك ويدعو الله أن ينصره ، ويتعهد إذا خرج منها على خير لينفق الكثير من ماله على المحتاجين والأيتام .

سأل سراج أخته نرجس عن رأيها فى اتهام زوجها بسرقة المرسيدس . قالت إنها لا تستبعد ذلك لأنه عندما تزوجها لم يكن يملك شيئاً ، واشترى سيارة أجرة

بالقسط وسرعان ما أصبح غنياً ويقيم المشروعات الخيرية ، وينفق على حملة فخمة لانتخابات مجلس الشعب ..

لم تقتصر معرفة النيابة بحالة يحيى صقر على إخبارية واحدة ، فقد تلقت نحو عشرين رسالة تتحدث عن السائق الجائع الحافى الذى كان منذ سنوات قليلة..

كان يحيى تقريبا قد دفع كل أمواله لسكان الحى وأوشك على الانتهاء من المساكن التى يتعين أن ينتقلوا إليها ، وبدأت مقالات على جوده تنشر فى الصحف المختلفة ، داعية وملحة أن تقوم هيئة الآثار ووزارة الثقافة بالتحفظ على قصر الأميرة وتحريره من المحتلين ، وترميمه ووضع حراسة عليه ثم فتحه للزيارة ..

أما خطة صقر فقد كانت إرجاء الهجوم على القصر إلى ما بعد التخلص من سكان المنطقة من جنوب مجمع الكنائس حتى مدرسة المعاقين .

لكن إيقاع على جوده المتسارع لدعوة الآثار كى تتبنى قضية القصر وتتولى ترميمه تمهيداً ليصبح مزاراً ، دفعت يحيى إلى أن يسرع بإحضار البلدوزر ويبدأ الهدم ليضع الجميع أمام الأمر الواقع ، هكذا كانت خطته مع جين ديكنسون ، والصدفة البحتة جعلت الخبر يتسلل آخر الليل إلى محسن اللبودى الذى كان هو وأهله غير راضين عن صقر ، وسرقة المرسيدس التى أطاحت بأخيه وأثرت على مسيرته فى الشرطة ، رغم أنه هو الذى سعى بعد ذلك وأعاده ..

أبلغ محسن على جوده ، فمرا على نبيل ومضوا يدعون الناس جميعهم إلى اللقاء غدا والتجمع أمام القصر المهجور .. طلب الشباب من السكان الخروج لحماية الأثر المهم من أيدى المخربين ، ومن أسنان الجشعين اللصوص .. طلبوا منهم التخلص من السلبية والعمل يدا واحدة للوقوف فى وجه مصاصى الدماء .. أغنياء الغفلة .. ولم يخف نبيل دهشته لموقف على جوده العملى الثورى المناضل، وهو الذى كان يائسا ومنعزلا ولا يعترف بحاجة الجماهير إليه ، كما أنه كان حريصا على تجنب مشاركة الجماهير إنقاذا لنفسه من تبديد طاقته مع غفلتها وغياب وعيها واستسلامها للعشوائية .

مع شروق الشمس تجمع الناس من كل الأعمار ، تحدث الشباب إليهم عن الفئة الدخيلة التى لا تقدر عراقة الشعب وطيبته ، وتستغله أسوأ استغلال : تلك الفئة التى تود أن تمحو أى أثر يشير إلى ماضينا وتراثنا وأمجادنا القديمة والتى تواصلت عبر الأجيال ، تريد أن تزيل أى ملمح من ملامح حضارتنا وتاريخنا المجيد .. هذه الفئة التى كبرت وترعرعت فى الظلام ، وتريد أن ترمى بسكان المنطقة .. بكم بعيداً ، وتبقى هى لتبنى الكباريهات والملاهى وصالات القمار والرقص والتدليك والدعارة .. ولتذهبوا أنتم إلى الجحيم ..

بعد ساعة .. دمدم من بعيد وزمجر .. يسبقه ترابه وتهديده .. جاء البلدوزر .. ضخما وقويا جاء .. مهدداً .. ومزلزلا جاء ..

جاء ومعه الرجال ، يتقدمهم صقر وديكنسون .. رأى صقر عددا هائلا من الناس كلهم من سكان المنطقة ، ولم يكن قد تصور أن يكونوا بهذا الكم وهذا الاحتشاد .. النساء .. والشيوخ .. الرجال والشباب ، الأطفال والبنات ، يقفون كالسد أمام القصر ..

أشار صقر إلى الرجال بتجهيز بنادقهم .. فطرقعت بتحد وصلف ثم أشار لهم فأخذوا مواقعهم فى الأجناب ، وانتظموا فى أوضاع الضرب .. ثم أشار للبلدوزر كى يتقدم .. زمجر البلدوزر .. وتقدم ..

أمسك الجميع بأيدى بعضهم البعض وتقدموا خطوات فى اتجاهه ثم توقفوا .. كان يونس اللبان وملاك ونبيل ومحسن وعلى جوده والشيخ ابراهيم وشبل اللبودى ونصحى عبد النور وسيد غراب الحلاق وميشو وغيرهم فى المقدمة ..

وصل البلدوزر إلى آخر المتاح له من الأرض حتى لمست سكينه الضخمة أجساد الصف الأول ..

زعق صقر طالبا الابتعاد .. لم يتحرك أحد .. أمر السائق بالتقدم .. حاول .. لم يستطع ..

بذل على جهدا كبيرا ليقول : ارجع يا صقر .،. كفاك ما بلعت فى بطنك ..

قال صقر : تقدم يا خميس .. المسئولية تقع علىَّ وحدى ..

قال الجميع : لن تمر إلا على جثثنا ..

فجأة علا صوت رجب سرحان : ياجماعة .. علينا أن نحتكم إلى العقل والحوار ، وقد أعددنا بعض المطالب للسيد / يحيى ، مقابل السماح له بهدم القصر ..

وصرخ الجميع فيه : لا مجال للعقل الآن يا رجب .. يسحب البلدوزر ونحن نعود إلى بيوتنا ولا يقترب من القصر ..

قال رجب : الحاج صقر ابن المنطقة ، وعلينا أن نتحاور .. امنحوا فرصة للعقل والسلام ..

وتحول إلى الحاج صقر وقال له : هل تقبل يا حاج أن تقرأ مطالبنا ؟

وصرخ الجميع : ليس لنا مطالب يا رجب .. اسكت ..

قال الحاج صقر : هات وخلصنى ..

ذهب إليه رجب ومد له ورقة ، وسرعان ما التف حوله ووضع سكينا فى رقبته وهو يقول : لا يصلح معك إلا هذا .. الغدر يا غدار .. قل للسائق يبتعد وإلا أغمدت السكين فى رقبتك ..

يهلل الناس ..

يقول يحيى : أنت جننت يا رجب .. ابعد السكين ..

يضغط رجب أكثر ..

يستشعر يحيى إصرار رجب ، يضطر إلى إصدار أوامره بسحب البلدوزر وابتعاد رجاله المسلحين وكذلك ديكنسون ..

بعد أن يطمئن رجب إلى تنفيذ مطالبه يدفع صقر دفعة قوية أوشكت أن تطيح به .. وهنا يسمع الجميع صوت آلات تنبيه عالية ومميزة خاصة بالشرطة ..

يهبط الرجال وعلى رأسهم هشام اللبودى وسيارة أخرى سوداء يهبط منها رجال هيئة الآثار ليتسلموا المبنى ، وتعلق لافتات تحذر من الاقتراب مهما كانت الأسباب ، ووضعه تحت الترميم والحراسة ..

فى هذه اللحظة وفى غمرة الحماس الفرحان بفشل مهمة صقر ، ونجاح الجماهير فى استعادة القصر المهجور واستعداد الآثار لرعايته ، أحس رجب سرحان بيد حنون تلمس ظهره ، وسرعان ما هلل فرحا فى شبه دهشة :

- أهلا يا ثريا ..

- أهلا بك يا عمى .

فجأة .. طفر الدمع من عين الفتاة ابنة إمام سرحان ، ربت رجب على ظهر ابنة أخيه ، وسألها وقد تغير شكله وانكمش :

- ماذا جرى .. ما بك .. قولى ؟

تماسكت البنت ومسحت دموعها وهى تقول :

- لقد بحثنا عنك فى البيت والورشة ، لقد كانت أمى تريدك ..

- تحت أمركم ، ماذا جرى ؟

- أبى أخذ الفلوس المتبقية من مهر رباب وتزوج بها .

- ماذا .. مستحيل .. متى ؟

- أمس ..

فرد طوله وغمغم : معقول يا إمام !! .. كل الناس ممكن تعمل هذا إلا أنت .. هيا بنا يا ثريا .

ذهبا إلى بيت إمام فى «شق التعبان» .. وصل إلى أم ثريا منبع الدموع التى لا تجف .. قالت له :

- سأجن يا رجب .. القرشين» أبقيناهم لثريا والأولاد .. كان دائما يحارب كى يصل إليهم .مصيبة ، وياريت المسألة توقفت عند زواج إمام ، لكن كمال ابنى غائب منذ ثلاثة أيام ، لاف على مجموعة أصحاب ، ومنعته عنهم ، بلا فائدة ..

حار رجب ، ماذا يفعل .. هل يحاول أن يعيد إمام أخاه الأكبر؟ وكيف يعيده ؟ .. إنها تقول لقد تزوج فعلا بثالثة .. عليه إذن أن يبحث عن كمال .. سألهم كيف حدث ما حدث لكمال ..

قالت ثريا :

- لقد بدأ بتدخين السجائر ..

وعقبت أمها ..

- من خيبته كان يقول أريد أن أكح كأبى وأطرد البلغم ..

ضرب الرجل كفا بكف ..

- يريد أن يكون رجلا ، ويحسب أن الرجولة بلغم وبصاق وكحة ..

سأل رجب عن الأصحاب الذين يمكن أن يتردد عليهم كمال منكسا رأسه ، وقد نسى تماما بهجة ما فعله مع صقر ، استدار لينصرف .

وقبل أن يمضى ليبحث عن كمال ، قالت أم ثريا وهى تمسح دموعها :

- أنا خائفة .. قد يرفض العودة .

- لماذا تقولين هذا ؟

- لما زعقت له آخر مرة .. قال ورحمة أبويا ما أنا راجع ..

- قال «ورحمة أبويا» ..

لم يدر رجب ماذا يفعل بالضبط .. هل يبكى أم يضحك ..

اكتفى بأن قال وهو يتجه صوب الباب :

- كلام شباب .. اطمئنى ..

شهقت أم ثريا وقالت :

- افتكرت يا رجب ياخويا .. عارف شعيب أخو شبل اللبودى .

- ماله ؟

- ابنى يصاحب ابنه .

- ياه .. هذا الرجل عنده أموال لا تحصى ..

- أسمع إن عنده محلات كثيرة .

- محلات وشركات يديرها وهو فى بيته بالمحمول .. لأنه مشلول .

- أتارى ابنى قال لأخته : أنا مصاحب عيال تسهر وتروش .

- كلام شباب ، لا تحطى فى بالك .

- تروش .. كلمة لا أفهمها يارجب .

رغما عنه ضحك وأخذ الباب فى يده .

(٤١)

عندما أطلت فى المرآة طالعها وجه على فوق جسدها ، مبتسما وعيناه السوداوان الصافيتان تلمعان بابتهاج روحى راسخ ، ابتسمت له ، فلوح لها وذهب .. ظهر وجهها فوق جسدها يبتسم ، ويدها تلوح ، ولما سحبت الابتسامة بسبب فراق على ، راعتها البشرة الصفراء ، وتذكرت أنها ربما لم تأكل منذ شهر، هى لا تشعر برغبة فى طعام أو شراب ، ولا برغبة فى الذهاب إلى الجامعة .. العالم لم يعد بحاجة إليها ، وهى لم تعد بحاجة إليه ، على هو كل عالمها ، شرابها وطعامها .. نومها وأحلامها ، لا داعى حتى لأن يكون بقربها ، وليس مهما أن تراه ، فهو فيها ، فيها تماماً ودائما وأبداً .. أصبحا شخصا واحداً ، وإذا احتاجت أن تراه فإنها تخرجه من قلبها ، أو تدخل إلى قلبها لتحدثه وتطمئن عليه وتسأله عن أحواله .. نظراتها الزائغة تفكر لها وتدور فى اللامكان .. تحلق فى اللا أفق ، وتدقق فى اللا شىء ..

يخامرها إحساس مؤكد بأنها غير قادرة على فعل أى شىء أو أداء أى عمل أو تلبية أية رغبة ، أو حتى قول كلمة . وهى ليست فى حاجة إلى فعل شىء ولا توجد بها رغبة تطمع فى تحقيقها ، ولا تشعر بأنها تتوجب أن تقول شيئاً .. كل شىء لا شىء ..

أبوها لا يأكل إلا نادراً جداً .. منذ سنوات وشهيته تفتر وتتراجع ، لكنه فى الفترة الأخيرة وهو يرى حال ابنته الذاهلة عن الدنيا ، يكاد لا يأكل ، ولم يعد يكتب حكمته .. ولم يعد يتكلم ، ولم يعد تقريباً يفعل شيئاً إلا أقل القليل ..

وعملية البيع فى المكتبة تفتقد الحرارة .. الأتربة فى كل مكان ، مطمئنة فى مواضعها فلا أحد يقترب منها أو يعكر صفو استقرارها .

ها هى الحياة تصفو وترق وتتخلى عن ثقلها السخيف وكابوسها الذى كان يقبض على صدرها .. النهار يمضى متسللا فى هدوء بلا أى مشاكسة أو أحداث أو إزعاج ، وربما هناك الكثير من توابل الحياة ، ذلك كله لا يخص ملاك وابنته

بوصفهما كائنين منعزلين .. ماجدة تمضى فى درب الغياب وأبوها يتبعها فى استسلام ودعة .. غير قادر على السؤال عن شيء أو الاعتراض أو .. لعله لا يزال مالكاً زمام عقله .. ليس عقله كله بالطبع ، لكنه ربما يفضل أن يتبع ابنته ، فهى الباقية له .. وهما يمضيان حثيثاً وبثقة نحو الانقراض .

الصمت شجرة مترعة بالخضرة كاسية الفروع ، تبسط أمامها ظلاً وارفاً يحتضن كل المخلوقات .

رفعت ماجدة ببطء يدها .. ببطء شديد . رفعت يدها . مدت أصابعها النحيلة التى يشك من يراها أنها أصابع إنسان لا يزال له قلب ينبض .. التقطت صليبها الذهبى المعلق فى سلسلة ذهبية تتدلى من عنقها الثلجى الشاحب .. أحنت رأسها وقبلت الصليب ، تمتمت بكلمات فى أذن العذراء الطاهرة وطفلها الإلهى يسوع .. توسلت إليهما أن يحفظا حبها المسمى .. علياً ، أكدت للبتول ووليدها المجيد أن العالم أصبح يعيش حالة حب اسمها على ..

بأطراف أناملها ظلت ممسكة صليبها ، ثم قربته من فيها .. وشوشته وقبلته ثم عادت توشوشه وتقبله .. رفعت عينيها إلى لوحة العذراء والطفل .. لوحة مقلدة طبعاً .. رسمها الفنان الإيطالى بيزالينو .. اشتراها ماجد منذ سنوات قبل أن يغيب فى بحار أوروبا .. عادت تتمتم ، وتبث الكلمات والتوسلات بعينيها فى الوجه المريمى النبيل ، وكذلك فى وجه الطفل المبارك ، تتمتم وتبث رسائل قلبها .. عبر نظراتها إلى الوجهين وكذلك الرداء الأحمر وتجعداته وثنياته ، وتمضى مع يد السيدة المحتضنة وليدها ، وتنتقل إليه فتسأله أن يرضى عنها وتحمل نظراتها أمانيها إلى الساقين العاريين والأصبع الدقيقة ..

لما أوشكت أن تقع من فرط الوهن والتهافت وتراجع نبض الحياة ، استندت إلى المنضدة ، وهبطت ببطء على الكرسى الوثير الذى تعودت أن تقبع فيه ساعات إلى جوارها أيقونة مارى جرجس وهو يطعن الوحش ..

أدركت أخيراً أنها بلا قدرة .. أى قدرة .. لكنها لا تحتاج إلى طعام أو شراب ..

قالت لعلى الذى رأته إلى جوارها :

– حسن ما فعله أبى .. لقد وضع أجسادنا هنا فى هذا القبر ، نحن الآن دائماً معاً ..

سمعت على يقول لها :

– وهل يتمنى المرء شيئاً غير أن يكون مع من يحب .. فى قصر أو كوخ أو قبر ، خلق كل شىء أصلاً للحب ، لأن الحب هو طريق الله .

بلعت ريقها بصعوبة ، وحاولت بل شفتيها ، وقالت وهى توزع الكلمات على أنفاسها :

– إلى أين أنت ذاهب .. ؟ على .. أنت تتمدد على الكنبة .. هل ترغب فى النوم؟ . إذا كنت تنوى ذلك هيا بنا ننام ، فربما نصحو من هذه النومة على لحظة الحساب ، ألسنا نتجنب طعام الأرض .. لا بأس فى انتظارنا طعام الجنة .. هاأنذا أنام إلى جانبك .. هات يدك .. دع أصابعى تتخلل أصابعك واسمح لرأسى أن ترتاح على وسادة رأسك .. هل ترى هذا العصفور الذى يرفرف فى قبرنا الواسع ؟ .. هل تعرف ما هو ؟ . أصبت . إنه حبنا يحلق فى الظلمة ، ويضىء كما يضىء هذا الصليب ووجه العذراء ووجه يسوع وتلك الأيقونة .

ابتسمت عندما سمعته يقول :

– وأنت أيضا تضيئين .

دخل أبوها .. وقعت عيناه عليها فسألها :

– لماذا تنامين على الكنبة هنا فى الصالة ؟

اعتدلت وفغرت فاها دهشة ، وقالت :

– هل أنت مت يا أبى ؟

بهت الرجل وراح فى لحظة غيبوبة ، ثم سألها بينما يترقرق الدمع فى عينيه: لماذا تقولين هذا يا ماجدة ؟

زاغت نظراتها ، وقالت : لأنك جئت إلينا هنا فى قبرنا ..

لمسها برقة وهو يدقق النظر فى وجهها : ماجدة .. ماجدة .. ماذا بك ؟

ردى على أبيك ياابنتى ..

كان الرجل تقريباً يسيل ويتحلل .. هزها بحنان وقلق . اعتدلت ماجدة و بدت نظراتها أكثر تحديداً وتركيزاً بعد حالة السفر والسباحة فى المجهول .. قالت:

– لا شىء يا أبى .. أنا كنت ..

– تعالى .. استندى على ذراعى .. اجلسى هنا على هذا المقعد ، أحضرت لك طعاماً .. طبق كشرى بالشطة .. من زمن لم تأكليه .. محل ممتاز ، أحضرت لنفسى أيضاً .. أعرف ما ستقولينه .. كنت أمنعك عنه ، لكنى أحضرته لك اليوم بنفسى .. هيا .. كلى كى آكل أنا أيضاً .. ألا تريدين أن آكل .

– شكراً يا أبى .. ليست لدى رغبة .

– يا ابنتى أرجوك .. ستموتين .

ابتسمت وهى تمضى إلى حجرة النوم فى تثاقل وتمايل ..

– يا أبى .. أنا أسعد ميتة .. هيا بنا يا على .. سنترك أجسادنا ياأبى فى الفراش ونخرج للقاء العصافير .. هناك ما يحتاج للمناقشة .. هيا بنا يا على ..

انحط ملاك على الكرسى .. حاول كثيرا منع الدموع ، لكنها انفرطت وغسلت وجهه وسقطت فى حجره ، ومعها تساقطت أسئلته التى تمزق لحمه ، وفاحت بشدة رائحة الحيرة المتعفنة .. ماذا يفعل فى ابنته ؟ وهو لا يود أن يخبر أحدا من أهله ..

– لم أتكلم إلا مع الشيخ إبراهيم .. وعلى لم يعد يراها .. بل أنا نفسى لم أعد أراه ، وهى لم تخرج من البيت لأنى أغلقه بالقفل من الخارج .. يارب أنت عالم بالحال .. رأى زوجته بحذاء الجدار وكذلك ولده ..

نهض فجأة وهو يقول :

– لابد أن يعرف أبونا .. ليس غيره لديه الحل .. لابد أن يعرف ..

(٤٢)

ذهب كل أهالى الحى تقريبا إلى كنيسة العذراء لتعزية ملاك فى وفاة زوجته . فوجىء عند العصر بعمال يكنسون وينظفون شارع تقاوى الذى يقيم فيه .. نثروا الماء ورشوا الرمل ، ثم وصلت سيارة نقل ، هبط منها عاملان وشرعا فى إنزال كراسى مغطاة بقطيفة قرمزية ويرتبانها فى مستطيل ينقص ضلعا صغيرا .

جاء الحاج شبل واطمأن بنفسه على وضع الكراسى ، وأفسح قليلا بين كل كرسى والآخر ، وتمتم رافضا ومستاء من تصرف العمال الكسالى الذين ألقوا بالكراسى وذهبوا دون أن يحسنوا أداء العمل المكلفين به .

صعد إلى شقة ملاك وهبط ممسكا بذراعه ، جلسا معا ، وما لبث الشيخ إبراهيم أن جاء ، وكذلك عواد النمس وعلى جوده وبركات السكرى ونبيل وإمام وسيد الحلاق ونصحى عبد النور الفران ويونس اللبان وموافى العجلاتى وشبراوى الديب ورضوان وعلى سمك ، وشكورة ومحسن اللبودى وطارق ابن د . شاهر لطفى وحنفى العربجى الذى كان يقيم مع حماره فى القصر المهجور ، ودهش الناس لما شاهدوا سراج البارودى ، جاء يأخذ بخاطر ملاك ، وجاء كثيرون ، منهم ميشو الذى فتح دكان قطع غيار سيارات سرق معظمه من محلات صقر ، وهو الآن الذى ينفق على والديه وحضر أيضا كل من علم بوجود فراشة أمام بيت ملاك حتى لو كان قد ذهب إلى الكنيسة ، الكل جاء ليشارك فى العزاء المصرى الذى يتحقق له الإعلان فى الشارع ، على مرأى ومسمع من الجميع .. تهدأ بتأثيره النفوس ، وتتراجع إلى حد ما بعض الآلام التى تجثم على صدر أهل من رحل .

لما جاءت بعض النسوة والبنات من زميلات ماجدة يردن تعزيتها ، اضطر ملاك إلى أن يقول : إن أهل أمها أخذوها معهم إلى الصعيد .

لم يستطع أحد من الحضور حجب ملامح الدهشة التى ارتسمت على وجهه لرؤية حالة ملاك المسرفة فى الجزع إلى درجة الانهيار ، وكلما طيب أحد خاطره ، انفطر الدمع سيالا من عيونه ، كأنه لم يبك من قبل أبدا .

قال الشيخ إبراهيم : المؤمن يا ملاك والكلام للجميع مطالب ألا يحزن لأن المبالغة فى الحزن عدم ثقة بالله ، وإعلان برفض الاعتماد عليه ، وأيضا دلالة على عدم الإيمان بالقدر خيره وشره .

اندفع شبل اللبودى : يعني ينكتم يا سيدنا الشيخ ، لازم البنى آدم ينفس ويفضفض وإلا فسوف يموت .. مواقف كثيرة وأنت سيد العارفين تفاجىء الرجل منا وهى أكبر من احتماله ، وصعب أن يتجاهلها ويمنع نفسه من الحزن .. المدرس الذى اغتصب تسعة من البنات كان يعطيهن دروسا والآباء آمنوا له وسلموا ووثقوا فيه ، ما شعورهم بعد الحادث .. ألن يكون شعوراً بالحزن الشديد والثورة ، جابر بائع الكبدة عنده سبعة أولاد ، كلكم تعرفونه يوفر لهم الخبز بالعافية ، توفيت زوجته ، بعد عذاب مع المرض «اللى ما يتسمى» .. ماذا يفعل ؟ أليس هذا موقفا فوق الاحتمال يوجب الحزن ، وأى حزن يكفيه .. خاصة أنه يرى ناسا آخرين يحصلون بسهولة على الملايين ومحتارين كيف ينفقونها ، ومولانا يقول لا يصح أن تحزن .

كلما حاول الشيخ أن يلحق شبل ليقاطعه أو يوقف ويوضح . انطلق شبل يستأنف حديثه ، أخيرا قال الشيخ ابراهيم : يا حاج شبل .. المقصود بألا تحزن.. ارم حمولك على الله ، أنا معك ، لابد من الحزن ، ولكن فى البداية ، عند سماع الخبر .. ربما بحكم المفاجأة ، لكن لأن الله رحيم بنا ، ويعرف أحاسيسنا لا يرضى أن يقتلنا الحزن ، أو يضيع منا الطريق ويذهب العقل فنضر أنفسنا وغيرنا .. لذلك علينا أن نقول : نفوض الأمر إليك يارب ، أنت حسبنا ونعم النصير .. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون .. ليس لك من الأمر شىء . إن الأمر كله لله .. ماذا تملك أنت .. أنت لم تجر الضرر أو الفقر على نفسك .. أنت تريد أن تكون سعيداً أبداً .. ولكن الله له قضاؤه وقدره الذى يديره بين المصائر ، ليعلم الناس ويحفظ الحياة ويدفعها للتطور ، «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» صدق الله العظيم .

اندفع بركات السكرى يقول : سامعنا يا عم ملاك ، أنت مسافر بعيد ، كن معنا ، ولاتأس على ما فاتك .. الله جاب ، الله أخذ . الله عليه العوض .. كلها ابتلاءات ومن يفهمها غير هذا يكن مخطئا .. قال إمام وهو يخبط بيده على ساق بركات : أحسنت يا بركات .. خلينا نسمع رأى الشيخ ..

قال الشيخ ابراهيم : المثل الشعبى يقول «من شاف بلوة غيره هانت عليه بلواه» ..

يس اللبان : ارتاحت يا مولانا ..

قال سيد : أمر الله ولا يجوز أن نعترض .

وقال الشيخ إبراهيم : جاء فى كتاب الزهد للإمام أحمد ، أن المسيح مر وهو فى طريقه من قرية إلى قرية على شيخ عجوز يجلس على حافة الطريق ، وقد أصابه العمى والجذام وضرب جنبه الفالج ، فتأثر لمنظره وتوقف لحظات ، فسمع الرجل يقول : أحمدك ربى علىّ أن متعتنى بما لم تمتع به أحدا غيرى ..

دهش المسيح ، ودنا من الرجل وسأله :

– أى شىء متعك به ربك ، وهذا حالك لا يخفى على أحد .

قال الرجل :

– لقد وضع فى قلبى معرفته ، وهى خير كنوز الأرض ، لا حرمنى الله منها أبدا .

ابتسم المسيح ومد يده الكريمة فمسح على عينى الرجل ووجهه وبدنه ، فارتد بصيرا وسليما معافى ، واستأنف المسيح عليه السلام سبيله إلى القرية التى يقصدها ..

قال نبيل : أحسنت يا سيدنا .. إنت بركة كبيرة بيننا ..

قال الشيخ إبراهيم : ليت لى عشر حظ أبيك ..

دهش الجميع ، صحيح أنهم يعرفون أنه لزم المساجد ، لكنهم كانوا يعتقدون أنها مجرد دروشة ، سألوا الشيخ عن الذى دعاه ليقول ذلك ، فقال :

- الشيخ يس الفار قرأ كتب حجة الإسلام الغزالى ورياض الصالحين مرات والقرآن يتمه كل شهر مرة ، وقرأ صحيح البخارى ومسلم ثلاث مرات ، كذلك ، ويصوم بالنهار ويقوم بالليل ويكفى الناس شره ..

قال يونس اللبان : ربنا يزيده .

وعلق سيد : سبحان مغير الأحوال .

وقال بركات : يغير ولا يتغير .

أما عواد فقال : فتاب عليهم ليتوبوا ، اللهم أحسن ختامنا .

قال الشيخ إبراهيم : الصبر جزاؤه عظيم يا ملاك لأن الصبر على قدر الله إيمان به .

انصرف البعض ، وجاء آخرون ، وكان الجميع مستنكرين حالة الحزن الشديدة التى تلبست ملاك ، وكان معظمهم يعلم أن زوجته كانت بمستشفى الأمراض العقلية ، وبعضهم يعلم أن الشقاق بينهما كان متواصلا ومتجددا ، فلماذا كل هذا الأسى ، وقليل جدا الذين كانوا يدركون أنه لا يبكى فراق مريم بقدر بكائه على ابنته الشابة التى على وشك أن تقتفى أثر أمها وتمضى فى طريقها ، وعلى الولد الذى ذهب ولم يعد ..

مضى الشيخ إبراهيم وبعض الحاضرين يخففون عن ملاك أساه ، ولزم البعض الصمت ، فلم يكن هناك ما يقال ، ظل نبيل وعلى جوده حتى النهاية ثم نهضا وخرجا معا .. تقدم على من ملاك وعانقه فى صمت وقوة .

همس له كأنه يفشى له سر بضاعة مهربة :

- سأسافر بعد غد إلى الإمارات .

ثم تسلل مغادرا سريع الخطوات ، ليختفى عند أول ناصية ..

صعد ملاك بعد رحيل الجميع إلى شقته وأغلق بابها عليه .. اصطدمت يده بجيبه المملوء بالورق .. جلس على الكرسى الذى تعودت ماجدة أن تجلس عليه .. أخرج البرقيات التى وصلت إليه .. مضى يقرؤها والدموع تتساقط على الكلمات الآسفة .

– الصدمة قاسية والعيون باكية وذكراها باقية .

– فراقك أدمى قلوبنا ، لكن عزاء نا أنك تركت أرض الشقاء وربحت أمجاد السماء ، فهنيئا لك صحبة القديسين .

– عاشت نسمة وديعة ، ورحلت بهدوء الملائكة .

– جوهرة ثمينة فقدناها وعند المسيح أودعناها .

فى الطريق قال نبيل لعلى .

– كسبنا القضية .

صرخ على فجأة وهو يتقدم لمعانقة صديقه

– الحمد لله .. ياه .. ألف مبروك .

كان نبيل شاردا وعابسا .. قال على مندهشا لحالة نبيل .

– هل هذه هى حالة مليونير

– لا تفرح هكذا .

– ولماذا لا أفرح .. أصبحت صديقا للميونير

– مع وقف التنفيذ .

– لماذا .. ألم يصدر الحكم ؟

– صدر .

– والمشكلة .

– عمى بنى عمارة على الأرض كما تعلم .

– يدفع حقنا نقدا .

– يقول ليس عندى مال للدفع نقدا ، ادفعوا أنتم ثمن ما عليها من مبان وحلال عليكم .

– مستحيل .. المبانى ليست أقل من مليون .

– قل نصف مليون .. قل أى رقم مهما كان ضئيلا .

قررا فجأة أن يجلسا على الأرض ، وجه كل منهما فى وجه الآخر ، والخدود فوق الأيدى فى وسط الطريق جلسا يحدقان ويمطان الشفاه والناس كذلك ،

يمطون الشفاه ويخبطون الأكف .. بقيا لحظات على هذه الحال ، اتفقا على مقاومة فضول الناس والاستمرار فى التعبير عن الدهشة بهذه الطريقة ، لولا أن ظهر سراج البارودى وهو يقول .

- الله .. الله .. أبحث عنك فى كل مكان ياسى نبيل ، ثم أجدك فى وسط الشارع على هذا الوضع ، ولولا أن لدىّ حب استطلاع ما وجدتك .

ظل نبيل كما هو وسأل .

- أهلا يا أستاذ سراج .. ماذا تريد ؟

- أريدك أن تعمل معنا فى شركتنا .

ظلا هكذا لحظات ، ثم قفز نبيل قائلا :

- أخيرا .. هناك عمل .. يلعن أبوها البطالة

ثم توقف وهو يقول :

- الله .. سراج نسيب يحيى

ضحك سراج وهو يقول

- اسحبها .. اسحبها فورا

- ألست نسيبه ؟

- هناك فرق

- سلام يا على .. لازم أشوفك قبل أن تسافر .

شاهد الناس ما يجرى وعادوا يضربون الأكف على الأكف ، وتنبهوا أخيرا لآلات التنبيه التى أطلقتها السيارات ، فأفسحوا لها وتفرقوا ، وأسرعت السيارات تركض وتفرح بالفراغ ..

(٤٣)

– جئت إليك منذ شهور يا أبانا وقصصت قصتى .. وعرضت مشكلتى .. إنها تتفاقم ، وحالة البنت تسوء وأشرفت على أن تلحق بأمها .. فانصحنى .. انقذني .. أشر على بالطريق الذى أسلك فأهتدى ..

حطت عليهما لحظات صمت .. قال الأب المبجل بهدوء رصين ، ومن وجهه يطلع البهاء وتتألق السماحة والرضا : لقد أطلعنى الأنبا مرقص الذي زارها منذ أسبوعين على حالها .. ولكن اعلم يا ملاك أن فى جسد كل إنسان لا ينفك المسيح يتجلى ويتحد بنا ، بحيث يمسى كل رفض لحياة الإنسان بكل أشكاله ، رفضا للمسيح ذاته .. تلك هى الحقيقة الصارمة التى يكشفها لنا المسيح ولا تنفك الكنيسة ترددها ..

غرق المكان فى السكون من جديد ، قطعه ملاك ببعض العبارات عن حالة ابنته وانفطرت دموعه رغم تماسكه وحرصه على الثبات أمام الأب الوديع ..

سكت ملاك .. وجاءه صوت الأب .

– إن شريعة المسيح هى الحفاظ على الحياة ، والذود عنها والعمل على تأسيس دولة إنسانية ، ومهمتنا المطالبة بحقوق البشر والدفاع عنها .

لما سكت الأب لم يتكلم ملاك ، واستشعر أنه سوف يقول الآن ما يهديه .

– علينا أن نعتنى بالآخر بصفته إنسانا أناط الله بنا مسئولية رعايته ، نحن مدعوون إلى أن نكون أقرباء كل إنسان ، والحياة البشرية مقدسة ، ويجب أن تجد لدينا الحصانة ، فعلينا إذن أن نعنى بكل الحياة وحياة الكل ، فنسعف بأسرع وبأقصى ما نستطيع الجائع والظمآن والغريب العريان والمريض والسجين والمشرف علي الموت ، ولابد أن يكون ذلك من منطلق الحب .

سكت الأب وتنهد ومس شعرات ذقنه ثم وقف وسار خطوات .

لم يظهر على ملاك التململ ، لكنه يتجول فى أعماقه ، كان يتعجل كلمة واضحة ، وجاء صوت الأب دافئا ومتئدا يقول :

– لا تحسب أن الكنيسة تحرص على القواعد والشريعة أكثر من الحياة ، بل تبحث دائما عما يعزز قيمة الحياة وتكافح كل اعتداء عليها ، فنحن نحاول أن نقيم حضارة الحياة فى مقابل حضارة الموت .. يقول البابا بولس السادس :

– لقد افتدانا المسيح بدمه الكريم وبغسل المعمودية ردنا إليه أغصانا تستمد من الشجرة نفسها ماويتها وخصوبتها فصرنا شعبا للحياة ، وعلينا أن نتصرف هكذا فى ضوء شريعة المحبة ، ومن يفعل ما هو ضد المحبة لا يكرم المسيح ، بل يحتقره.

سكت الأب وبدأ التململ يظهر على ملاك فى يديه وساقيه .. ولم يدر بالضبط ماذا يفعل .. وأحس بحرج وحيرة .. وهم أن يسأل من جديد سؤالا محددا ، يطمع به فى إجابة محددة تريح ضميره ، لكن الأب قال له فيما يشبه الهمس .

– ما رأيك فى الشاب المسلم ؟

– هذا ولدى ، أفضل من رأيت من الشباب .

عاد الأب إلى الصمت ، ولكنه بدا مشغولا بالفكر ، شرد الرجل المهيب وأغمض عينيه ومضت يده تتلمس بعض الشعيرات فى ذقنه الرمادية الطويلة وتنهد ، ثم نهض وتوجه إلى صورة المسيح وأمه ، وكان تحتهما كتاب فوق منضدة صغيرة وبسيطة ، وضع يده على الكتاب ، وتمتم .. وملاك محنى الرأس ، لكن عينيه تتبعان الأب وفكره يغلفه القلق والحيرة .. قلبه يدق .. عاد الأب فجلس ، ثم قال :

– ملاك .. ادعها إلى .. لقد سبق أن تحدثت إلى زملائى فى الكنيسة وهدانا الرب إلى رضاه .

انفتحت فجأة طاقة نور فى أعماق ملاك المعتمة ، واطمأنت نفسه المضطربة فى موقعها بعد طول تجوال فى متاهات لا نهائية من القلق والضياع .. يجب أن ينصرف بسرعة ، ليس هذا أوان أو مكان التفكير .. انحنى يقبل يد الأب السمح ، وشملته السكينة كما شملته رائحة الثوب الكهنوتى التى طلعت عليه من أغصان الزمان والحكمة المغموسة فى آبار الحنان والسماحة .

تعثر فى هبوطه الدرجات الكثيرة وتماسك .. أسرع إلى بيت على جوده ، لم يجده .. مضى إلى بيته مرتقياً سلالمه مرتقا أنفاسه اللاهثة ، وقد بدا قويا عن ذى قبل .. طرق باب شقة آية .. لاأحد هناك ..

أسرع إلى ميشو فى دكانه .. لم يجد ميشو .. سأل عنه شابا فى مكانه .. أنبأه بأن الجميع ذهبوا منذ ساعة إلى المطار لتوديع علي .. تجمد فى موضعه .. كان قد نسى ما أخبره به على ..

– إذن على سيسافر حقا .. ما العمل الآن ؟ .. هل أتركه يمضى فى سبيله ونرتاح من المشكلة ولا نحرك رمادا خامدا فيصبح نارا تحرق القريب والبعيد .. هذا ليس هو المهم .. المهم جدا على الأقل بالنسبة لى هو ماجدة التى توشك على الجنون ، بل هى جنت فعلا .. سعادة ابنتى هى الدنيا .. هيا إلى المطار .. إنها إرادة الله .. مؤكد إرادة الله ..

وقبل أن يتجه إلى المطار ، عاد إلى بيته واصطحب معه ماجدة التى لم تعرف إلى أين يمضى بها أبوها .

الهرم فى يوليو ١٩٩٩

رقم الايداع : ١٣٨٣٩/ ٢٠٠٠
I.S.B.N
977-07-0917-4

أحدث إصدارات روايات الهلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٠٩	عيون البنفسج	علاء الديب	سبتمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٠	تل الهوى	يوسف أبو رية	اكتوبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١١	قط وفار	جونتر جراس	نوفمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٢	الكائن الظل	إسماعيل فهد اسماعيل	ديسمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٣	طيور العنبر	ابراهيم عبد المجيد	يناير ٢٠٠٠	٨,٠٠
٦١٤	خمرية	أمين العيوطى	فبراير ٢٠٠٠	٥,٠٠
٦١٥	القلق السرى	فوزية رشيد	مارس ٢٠٠٠	٧,٠٠
٦١٦	فئران بلا جحور	أحمد ابراهيم الفقيه	ابريل ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦١٧	خزانة الكلام	جميل عطية ابراهيم	مايو ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦١٨	بوح الأسرار	محمد جبريل	يونيه ٢٠٠٠	٥,٠٠
٦١٩	صالح هيصه	خيرى شلبى	يوليه ٢٠٠٠	٧,٠٠
٦٢٠	غريبان فى قطار	باتريشيا هايسميث	أغسطس ٢٠٠٠	٨,٠٠

روايـــات الهـــلال تقـــدم :

الطوف الحجرى

تأليف

خوسية ساراماجو

(جائزة نوبل ١٩٩٨)

ترجمة

لبنى الريدى

تصدر ١٥ أكتوبر ٢٠٠٠



فؤاد قنديل

روائى مولود فى ٥ أكتوبر ١٩٤٤ ، حصل على ليسانس الفلسفة وعلم النفس، فاز بالعديد من الجوائز الأدبية عن الثقافة الجماهيرية ، ونادى القصة، يكتب الرواية ، والقصة القصيرة ، والمقال، والدراسة الأدبية .من بين رواياته «أشجان» ، «السقف» ، «الناب الأزرق» ، «موسم العنف الجميل» ، «عصر واوا» ، «روح محبات» ، ومن مجموعاته القصصية «عقدة النساء» ، «العجز» ، «الغندورة» ، و «زهرة البستان» . ومن دراساته الأدبية «نجيب محفوظ كاتب العربية الأول» ، «أدب الرحلة فى التراث العربى» .

هذه الرواية

تحاول هذه الرواية بعدساتها المتعددة أن تصور أطياف الوهج المتفجر من اندفاع أبطالها نحو ملامسة أقصى تخوم الرغبات الإنسانية .

لقد مضوا بأحلامهم وأعصابهم وقوة الحياة فيهم متذرعين بحكمة يغالبها الجنون فى اتجاه مضاد يأملون به التخلص من ماض خامل وقدرات عاجزة .

لقد اكتشفوا بأنفسهم أن الحب طاقة خلاقة تمتلك القدرة على تغيير ملامح وأعماق الأشياء والبشر ، ومع ذلك أسفر الارتطام المحتدم للأمانى المحمومة مع واقع ملتبس عن اكتشافات حياتية ، اضطرت معه الرواية أن تسعى لإثارة أسئلة حول الصيغة التى ارتضاها أبطالها سبيلا للحياة .

إنها رواية أضفى فيها الكاتب كعادته الشاعرية على أساليب رؤيته التى تلونها لمسات سحرية خافتة تجعل من الكتابة الروائية نصا قريبا من العقل والوجدان .


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET